الرحالة اليمنيون

رحلاتهم شرقاً وغرباً

تأليف

عبد الله محمد الحبشي

مكتبة الإرشاد
صنعاء

بسم الله الرحمن الرحيم

الرحالة اليمنيون

رحلاتهم شرقاً وغرباً

الطبعة الأولى

١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

مكتبة الإرشاد

الجمهورية العربية اليمنية - صنعاء - ميدان التحرير

شارع ٢٦ سبتمبر - ص.ب ١٠٠٧٤ - تليفون ٧١٧٧٥

الإهداء

إلى شيخي المؤرخين اليمنيين في العصر الحديث العلامة الجليل محمد بن محمد بن يحيى زبارة والقاضي الفاضل عبد الواسع بن يحيى الواسعي.
إلى روحيهما الطاهرتين أهدي هذا الجهد المتواضع.

المؤلف
عبدالله محمد الحبشي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد خاتم الطّهر المرسلين وآله وصحبه وسلم، وبعد:

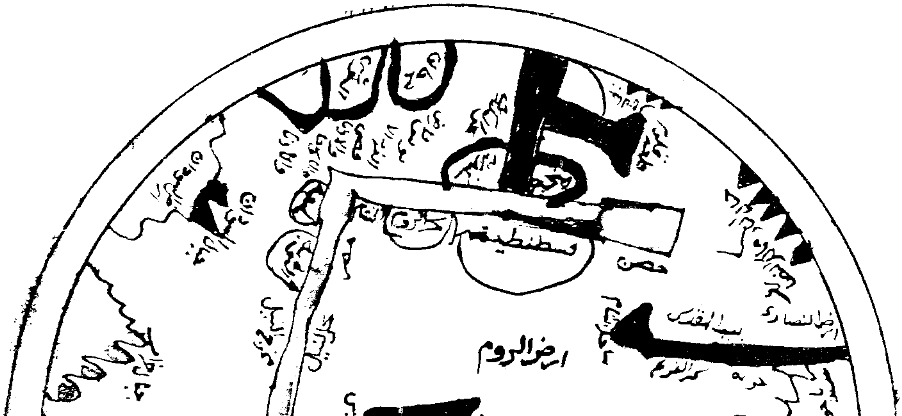
كلما ذكرنا الرّحلة تبادر إلى الذهن موضوع الهجرة، إذ الهجرة في حقيقتها رحلة سريعة وربما طالت وأصبحت إقامة دائمة ولأهل اليمن القدح المعلّى في جانب الهِجْرة وهم أهل الهجرة الأولى التي تحدثت عنها كتب التاريخ وأصبحت حديث النّاس عبر العصور الغابرة. ومنذ تصدّع سد مأرب بسيل العرم، والمعين لا ينضب من هذه الهجرات المتواصلة ونحن الآن أمام الآلاف من هذه الهجرات التى هى فى حقيقتها رحلات لم يدوّنها أصحابها فأصبحت في ضمير التاريخ نَسياً منسيّاً.

وإنما كتب من كتب عندما كانت الرّحلة في ذاتها حدثاً أدبيًّا يعتني به أصحاب الفن والأدب فهم يدوّنون ما عنَّ لهم في رحلاتهم من مشاهدات وخواطر وليس كل النّاس من يستطيع التعبير عن تلك الخوالج والمكتنهات، ولذا قلّ هذا المعين ونضب عندما قلَّ المتصدّون له، وعلى الرّغم من هذه القلّة فقد استطعنا أن نقف على بعض من تلك الرّحلات لعل أقدمها في هذا السِّفر رحلة الحيمي إلى الحبشة في القرن الحادى عشر الهجري، ولا شك أن قبلها مئات من الرِّحلات ولكنَّا لم نجدها مكتوبة فضاعت بموت أصحابها.

وربما وجدنا الكثير من الرّحلات التي قام بها العلماء والأدباء كتلك الرحلة التي قام بها الأديب عمارة اليمني إلى مصر ومن أمثاله كثير نذكر

منهم في القرن السادس رحلة القاضي العلامة جعفر بن أحمد بن عبد السلام المتوفى ٥٧٣ هـ إلى العراق حيث نقل كتب المعتزلة ومنهم العلامة يحيى بن القاسم بن عمر العباسي المعروف بالفاضل العلوي فقد ساح في البلاد الإسلامية وزار دمشق سنة ٧٤٩ هـ ودخل بغداد والرّي والديلم وغيرها وأخذ عن الشيوخ وألّف الحاشية المشهورة على الكشاف تُوفي سنة ٧٥٣ هـ ومنهم الشيخ المقري علي بن محمد الرفدي المعروف بالشرعبي رحل إلى مصر للأخذ عن شيوخها توفى سنة ٨٧١ ومنهم شمس الدين علي ابن سعيد الزّبيدي «بضم الزاي» الجبزيّ نسبة إلى الجبزية بالباء من بلاد المعافر، رحل إلى مصر والشام للقراءة على الشيوخ توفي سنة ٨٩٣ هـ ومنهم برهان الدّين ابراهيم بن عيسى السرعبي قال البريهي في تاريخه رحل إلى مصر والعراق وديار بكر ودمشق لتلقي العلم وهو من أهل ذخر بالقرن التاسع، ومن أشهر الرحلات الصوفية رحلة الصوفي الكبير علي بن عمر القرشي الشاذلي رحل إلى بيت المقدس ولما دخل مصر قصده أصحاب الطريقة الشاذلية قبل وصوله القاهرة بمرحلتين «وتلقاه أصحابها براحلة ركب عليها وزَفّوه بالتّرحيب والبشارة» توفي الشيخ المذكور سنة ٨٢٨، ومنهم الشيخ محمد بن عبدالله الأصلع من تلامذة الصوفي الجنيد بن أبي بكر السّراج قال من ترجم له: «جاب البلاد لزيارة الصّالحين حتى دخل مصر فصحب فقيرين من أهل اليمن لا يعرفهما وهما يخدمان بعض الترك فسرقا عليه شيئاً وهربا فلزم التركي هذا الشيخ محمد المذكور لصحبته لهما، وقال لا أعرف مالي إلاّ منك وشدّد عليه» في خبر طويل، وغير هؤلاء كثير لكن رحلاتهم لم تكتب فضلّت حدثاً تاريخياً تتحدث عنه كتب التاريخ والتراجم.

وفي العصور المتأخرة ـ القرن العاشر وما بعده ـ لم تعد الرحلة في الغالب لطلب العلم وإنما كانت للبحث عن الرزق والمعيشة مع بعض القيام بالدَّعوة إلى الله وإرشاد العوام وقد برّز في هذا الجانب مهاجرو الحضارم حتى بلغ بهم الأمر أن اتصلوا بملوك الهند وكانت لهم المكانة العالية عندهم



صورة لخريطة العالم برسم أحد اليمنيين في القرن الثاني عشر عثر عليها المؤلف في بعض المخطوطات «من أوراق المؤلف»

وقد ذكرت (مجلة الرابطة العلوية) أن هجراتهم كانت «منذ القرن الثامن وقد اتسعت اتساعاً عظيماً حتى شملت الحبشة وأفريقية الشرقية التي كانوا يسمونها السَّواحل والهند ثم الجزائر الملاوية والجاوية وإنما كان بدء أمرهم في التِّرداد إلى هذه الأقطار أنهم يأتون تجاراً ودعاة إلى الله وأكثرهم يعود إلى وطنه وإنما اتخذها دار هجرة وتوطنها أقلهم إلاّ ما كان بعد مرور سنة ١١١٨ هـ فقد هاجر أناس منهم فراراً من الإضطراب الذي شمل الجهات الحضرمية إذ ذاك لا بقصد التجارة».

ونحن نذكر هنا جماعة من أعلام المهاجرين الذين من الممكن اعتبار هجراتهم رحلات أدبية وعلمية ففي القرن العاشر هاجر من حضرموت إلى الهند العلامة شيخ بن عبدالله العيدروس قدم إلى الهند سنة ٩٥٨ والأديب عبد المعطي بن حسن باكثير سنة ٩٦٤ وهذا له أدب وشعر كثير في تلك الديار.

ثم كثر عددهم في القرن الحادي عشر وما بعده كثرة تستحق الإفراد بمؤلف مستقل يتعلق بالهجرة والمهاجرين.

عمارة اليمني في مصر

إذا ذكرت الرَّحلات الأدبية في اليمن فإنما تذكر أشهر رحلة عرفها التاريخ الأدبي على الإطلاق ألا وهي رحلة الأديب عمارة بن أبي الحسن اليمني إلى مصر، وما وقع له من مكانة مرموقة وصيت لا يزاحمه فيه أديب آخر. بل إن سيرته فيها وما شارك به من أحداث في مجريات الأمور أصبح مما يؤرخ به تاريخ ذلك البلد العريق ولنا الآن أن ننظر إلى هذه السيرة بإمعان ودراسة حتى نخرج برحلة جيدة تعتبر أول ما وصلنا من هذا النّمط في التاريخ الأدبي لليمن.

الأديب عمارة اليمني

هو من أشهر الأدباء وذكره يغني عن الإعادة، وإذا كان الكثير من الأدباء والمؤرخين قد كتبوا عنه العديد من البحوث، فإن أفضل من يعرفنا بالأديب هو عمارة نفسه بما كتبه عن سيرته في مؤلفه القيم «النكت العصرية» وهو في الحقيقة من كتب التراجم الذّاتية وإن كنا سنعتبره هنا من كتب الرحلات من باب التجوز حيث أنه سجَّل فيه ذكريات متفرقة عن رحلاته. وصلاته بالوزراء الفاطميين في مصر. وذكره لممدوحيه إلى غير ذلك.

والآن إليك ما قاله عمارة عن نفسه (مُعرفاً ومبيناً) يقول:

«أما عن جرثومة النّسب فقحطان ثم الحكم بن سعد العشيرة المذحجي وأما الوطن فمن تهامة باليمن مدينة يقال لها مرطان من وادي وساع وبها المولد والمَرْبى وأهلها بقية العرب في تهامة لأنهم لا يساكنهم حضريّ ولا يناكحونه ولا يجيزون شهادته ولا يرضون بقتله قَوَداً بأحد منهم، ولذلك سلمت لغتهم من الفساد» وقد عاش عمارة في بيت رئاسة وثروة يذكر عن طفولته: «وأنا طفل عمري ثماني سنوات أن معلّمي واسمه عطية بن محمد بن حرام بعثني إلى عمّي علي ومعي لوح فيه أصرافة وتسمى عندنا في اليمن الرقعة وقال امض إلى الشّيخ بهذا اللوح فلعلّه يدفع لنا بقرة لبوناً، فلما وصلت إليه ضمّني وأجلسني في حجره وتصفح اللّوح وكانت فيه سورة ص ثم قال كم ندفع للأديب يا أبا حمزة قلت بقرة لبوناً فضحك ثم أمر بمائة بقرة لبون معها أولادها ووهب له غلّة أرض زراعة سمسم حصل منها ما ينيف على ألفي أردب من السّمسم خاصة».

ويذكر عن أهله ووالده بأنهم كانوا أهل نجدة وجاه عظيم، وفي سنة ٥٢٦ توفي عمه علي بن زيدان وتبعه خاله محمد سنة ٥٢٨ «وتماسكت أحوال النّاس بوالدي إلى سنة ٥٢٩ وفيها أدركت الحلم ثم أراد الله إنفاذ

قـدره فيهم فمنعنا الغيث سنـة كاملة وبعض أخـرى حتى هلك الحرث والنّسل ومات النَّاس في بيوتهم».

بين الحجاز واليمن

وكانت هذه الأزمة إيذاناً لعمارة بالحركة والضّرب في الأرض فخرج من بلده باحثاً عن الرّزق. وكانت والدته قد ورثت عن أبيها المثيب بن سليمان مالاً فدفعته لولدها «سنة ٥٣١ مصوغاً لها بألف دينار ودفع لي أبي أربعمئة دينار وسبعين. وقالا: تمضي مع الوزير مسلم بن سخت إلى زبيد وتنفق هذا المال عليك ولا ترجع إلينا حتى تفلح فقد احتسبناك عند الله وصبرنا عنك».

ويرحل عمارة إلى زبيد بما معه من مال «وكان بيننا وبين زبيـد في مهب الجنوب تسعة أيـام» وهناك عنـد الوزيـر ابن سخت يتفرّغ للعلم يقول: «أنزلني في داره مع أولاده ولازمت الطّلب فأقمت أربع سنين لا أخرج من المدرسة إلا لصلاة الجمعة ثم زرت الوالدين في السنة الخامسة ورَدَدْت ذلك المصوغ إلى الوالدة ولم أحتج إليه».

ثم يعود إلى زبيد مرة أخرى وهناك يتفَقّه في الدين وتصبح له حلقة علم يطلب عنده الطلبة العلم على مذهب الشافعي ثم يزوره والده سنة ٥٣٩ «وخمسة من إخوتي إلى زبيد وأنشدته شيئاً من شعري فاستحسنه ثم قال: تعلم والله إن الأدب من نعم الله عليك فلا تكفرهـا بذم النَّـاس واستحلفني أن لا أهجو مسلماً قط ببيت شعر فحلفت له على ذلك ولطف الله بي فلم أهجُ أحداً والله المحمود».

ثم يخرج عمارة إلى مكة للحج مع الملكة الحرة أم فاتك وكانت هذه المرأة من المحسنات بحيث أنها تتكفل بنفقات حاج اليمن كله، وفي هذه السّفرة يتعرّف بها وتقربه إليها بسبب حـادثة طـريفة رواهـا عمارة نفسـه

يقول: «أذكر ليلة وقد سئمت ركوب المحمل ثم إني ركبت جملاً نجيباً وحين تهوّر الليل أنست عن يميني حسّاً فعدلت إليه فوجدت هودجاً مفرداً والبعير يرتعي فناديت مراراً كثيرة: يا أهل الجمل يا جَمّال فلم يكلّمني أحد فدنوت فإذا امرأتان نائمتان في الهودج وأرجلهما خارجة عنه ولكل واحدة منهما زوج خلخال من الذّهب فسلبت الزَّوجين من أرجلهما وهما لا يعقلان... فلما أصبح النَّاس وإذا صائح ينشد الضَّالة ويبذل لمن ردّها مائة مثقال وإذا هما امرأتان لبعض أكابر أهل زبيد نام الجمَّال عنهما فعدل البعير عن الطريق، وكانت عادة الحرّة أن تمشي في ساقة[1] النَّاس ولا يمشي بعدها أحد فمن نام أيقظته ومن انقطع حملته وكان لها مائة بعير برسم حمل المنقطعين وحين تنصّفت الليلة الثانية تأخرت حتى مرّ بي محملها فتبادر الغلمان إليّ وقالوا ألك حاجة قلت: الحديث مع الحرة في خلوة ففعلوا ذلك فأخرجت رأسها إليّ من مسجف الهودج فناولتها الزوجين الخلاخل وبلغني أن وزنها ألف مثقال فقالت: ما اسمك ومن تكون فقد وجب حقك فأعلمتها بذلك وبصورة الحال».

ومن ذلك الوقت حظي عندها بالقبول والمكانة وهو يذكر تلك اللحظة فيقول: «ويا سبحان الله فما كان أبركها من ساعة لأني حصل لي منها جانب قوي وصورة جميلة وشفاعة مقبولة ووجاهة مبذولة وتقدم على الأكابر من الفقهاء وأعيان الخواص وتسهيل الوصول إليها في أي وقت شئت والاستظهار بي على التَّوسط فيما بين النَّاس».

وبواسطتها تعرف على الوزير القائد أبي محمد سرور الفاتكي، وكسب من معرفتهما مالاً جزيلاً وهما اللَّذان بعثاه في مهمّة تجارية إلى عدن لشراء بعض ما يحتاج إليه في خبر طويل نترك عمارة يشرحه بنفسه يقول: «وذلك أن الشيخ بلال بن جرير الدّاعي بعدن غزا أسطوله سواحل زبيد فقتل ونهب وأحرق فانقطع النَّاس عن السفر من زبيد إلى عدن ومن عدن

(١) موكب الناس.

إلى زبيد مدّة ثلاث سنين فقضى ذلك برخص بضائع كل بلد منهما وغلائها في البلد الأخرى حتى صار ما يُسْوَىٰ ديناراً بربع دينار وما يسوى ديناراً في البلد الأخرى بأربعة دنانير فأذنت لي الحرة هي والقائد سرور في السفر إلى عدن دون الأسود والأحمر ـ أي من بقية سائر الناس ـ ودفع لي كل واحد منهما ألوفاً من المال وتذكرة بما يشترى من عدن فقال اشترِ بهذا المال من البضائع الرّخيصة بزبيد وما حصل فيه في عدن من فائدة فهي لك وابتع لنا برأس المال من عدن ما في التذكرة فحصل لي من المال ما لا مزيد عليه وحصلت لي صحبة أهل عدن ووصلت من مودّتهم إلى غاية من الاختصاص والمساهمة».

وبهذه السَّفرة الموفّقة أصبح له شأن كبير عند أهل عدن وزبيد وغدا من المبرّزين عند التجار وأهل الفقه والعلم وشاعراً من فحول الأدباء حتى قال له ذات يوم القاضي أبو عبدالله محمد بن أبي عقامة الحفائلي «وهو رأس أهل العلم والأدب بزبيد: أنت خارجي هذا الوقت وسعيد لأنك أصبحت تعد من جملة أكابر التجار وأهل الثروة ومن أعيان الفقهاء الذين أفتوا ودرّسوا غيرهم ومن أفضل أهل الأدب منزلة وأفصحهم عارضة».

يقول عمارة «فكأنه والله بهذا القول نعى إلي حالي وذهاب مالي».

ويبدو أن عمارة قد ظنّ الحسد في قول القاضي ابن عقامة، فما هي إلاّ أيام حتى عاود عمارة الرحلة وذهب إلى «جبلة» باستدعاء من صديقه الدَّاعي محمد بن سبا صاحب عدن، فوجده في «جبلة» وقد أحاط بقصره جماعة من الأعيان يطلبون الإذن لهم بالدخول إليه من بينهم بركات بن المقري وحسن بن الحمار ومرجي الحراني وعلى رأسهم جميعاً علي بن المهدي الثائر. يقول عمارة «فلما قدمت إلى ذي جبلة وجدته ـ يعني محمد بن سبا ـ خارجاً عنها في حصن ومستنزه، يقال له «الضربجان» وقد دخل فيه عروساً على ابنة السلطان عبدالله بن أسعد بن وائل منذ ثلاثة أيام ولم يصل إليه أحد. فلما وصلت إلى ذي جبلة كتبت إليه قول المتنبي:

كن حيث شئت تصل اليك ركابنا   فالأرض واحدة وانت الأوحد

ثم اتبعت ذلك برقعة مضمونها طلب الإذن في الاجتماع به. فكتب بخطه على ظهر رقعتي ما مثاله:

مرحبا مرحبا قدومك بالسعـ   ـد فقد أشرقت بك الآفاق

لو فرشنا الأحداق حتى تطأهـ   ـن لعلت في حقك الأحداق

واتفق أن هذه الرقعة وصلت مفتوحة بيد غلام جاهل فلم تقع في يدي حتى وقعت الجماعة كلهم عليها».

ثم أذن له بالدّخول فمكث عنده في المستنزه أربعة أيام وقد وجد عليه الجماعة الذين خارج القصر وكتبوا إلى أهل زبيد بما يوجب سفك دمه، وأشاعوا أن الداعي محمد بن سبا وعلي بن مهدي قد اتفقا على حرب زبيد وأن الواسطة في ذلك عمارة اليمني. ولما عاد إلى زبيد حدثه الشيخ جياش بن إسماعيل بما أضمره له أهل البلدة فصادف في تلك الأثناء خروج أحد الخارجين عليهم فاشتغلوا عنه قدر سبعة أيام «وحين عادوا إلى زبيد ذكرهم بي رحل كنت أحسنت إليه» ثم كان من أمر عمارة أن استجار بأحد المقربين لدى فاتك يقال له العريف بعد أن حمل إليه مالاً كثيراً فأجاره ريثما خرج حاجاً إلى مكة سنة ٥٤٩ وفي مكة يصادف موت أميرها هاشم بن فليته، وولاية ولده قاسم بن هاشم. يقول عمارة: «فألزمني السِّفارة عنه والرّسالة منه إلى الدَّولة المصرية».

في مصر

قدم مصر في المرة الأولى سنة ٥٥٠ والخليفة بها الإمام الفائز بن الظافر والوزير الملك الصالح طلائع بن رزيك. يقول عمارة «فلما أحضرت للسّلام عليهما في قاعة الذّهب في قصر الخليفة أنشدتها قصيدة أولها:

الحمد للعيس بعد العزم والهمم   حمداً يقوم بما أولت من النِّعم

لا أجحد الحق عندي للركاب يد   تمنت اللجم فيها رتبة الخطم

قربن بعد مزار العز من نظري   حتى رأيت إمام العصر من أمم

يقول عمارة: «وعهدي بالصَّالح وهو يستعيدها في حال النّشيد مراراً والأستاذ وأعيان الأمراء والكبراء يذهبون في الاستحسان كل مذهب»!. وبعد الإنشاد تطلق عليه الهدايا الجزيلة من خلع الثياب المذهّبة، وغيرها ودفع له الصَّالح خمسمئة دينار، ويأتي بعض الأخدام من عند السيدة بنت الإمام الحافظ بخمسمئة دينار أخرى، يقول عمارة «وحمل المال معي إلى منزلي وتهادَتْني أمراء الدَّولة إلى منازلهم للولائم واستحضرني الصَّالح للمجالسة ونظمني في سلك أهل المؤانسة، وانثالت علي صلاته وغمرني برّه». ووجد عنده من أعيان الأدباء والوزراء الشيخ الجليس أبا المعالي بن حباب والموفق ابن الخلاّل صاحب ديوان الإنشاء والمهذّب أبا محمد الحسن بن الزبير، وكانت أيامه هذه المرّة في مصر على قصرها من أيام العمر التي يذكرها بالبهجة والسرور، ولما كان في مهمّة رسميّة كان عليه العودة إلى مكة، وقد تهيأ للسّفر والرجوع إلى مخدومه. وقبل مغادرة مصر يلقي قصيدة يودع فيها الخليفة والوزير، يقول فيها:

من لي بأن ترد الحجاز وغيرها	أخبار طيب مواردي ومصادري
زارت بي الآمال أكرم ساحة	فوق الثرى فغدوت أكرم زائر
ووفدت ألتمس الكرامة والغنى	فرجعت من كل بحظ وافر
فكأن مكة قال صادق فالها	سافر تعد نحوي بوجه سافر

وقد ضوعف إكرامه على إثر هذه القصيدة وجرت مناقشة بين سيف الدين حسين والتوزري في شأن صرف نفقات سفره إلى الحجاز فقال سيف الدين للتّوزري وهو يكتب الرِّسالة عن الخليفة ثلثمائة دينار تسفير له من الخليفة قليل فاستجملوا من الرجل فما جاءكم مثله، وزيّدوه مائة دينار والتسفير خمسمئة ففعلت السيدة ستّ القصور ذلك.

ثم لم ينسَ صاحبنا وهو على وشك العودة إلى مكة والرجوع إلى بلده أن ينتهز الفرصة، ويسأل الوزير طلائع بن رزيك كتاباً يبعثه إلى صاحب عدن عمران بن محمد الدَّاعي، أن يعفيه عن دين لوالده. مات عنها وهي

في ذمة عمارة يقول: «فكتب لي على يدي كتاباً فلما وقف عليه صاحب عدن أسقط عني الدين وأبرأني منه فكتبت إلى الملك الصَّالح أشكره على ذلك قصيدة أولها:

ليالي بالفسطاط من شاطِىء مصر … سقى عهدك الماضي عهاداً من القطر

منها في شكر الصالح ومدحه:

لقد غمرتني من نداه مواهب … أضافت إلى عز الغنى شرف القدر
قصدت الجناب الصَّالحي تفاؤلاً … وقد فسدت حالي فأصلحني دهري
ولم يرضَ لي معروفه دون جاهه … فسيّر كتباً كالكتائب في أمري
كأن يدي في جانبي عدن بها … تهز على الأيام ألوية النصر
وما فارقتني نعمة صالحية … كأني من مصر رحلت إلى مصر

يقول عمارة «فلما وصلت إليه هذه القصيدة قال: قد فَرَّطنا فيه حين تركناه يخرج من عندنا وقد كان الواجب إمساكه للخدمة».

ثم يرحل عمارة من مصر إلى مكة المكرمة في شوال سنة ٥٥٠ ويدرك الحج والزيارة في بقية سنة خمسين، وتتجدَّد بعد عوده حوادث تتعلق بعمارة منها: أن أمير مكة جَرَّد باب الكعبة من الفضّة التي فيه بعد تجديده بباب آخر، وأمر عمارة أن يتوجّه إلى اليمن لبيع تلك الفضّة «وبلغ وزنها خمسة عشر ألف درهم» يقول عمارة: «فتوجَّهت إلى زبيد وعدن من مكّة في صفر سنة إحدى وخمسين وحججت في الموسم منها فدفعت للأمير ماله».

ويبدو أن أمره صلح في اليمن فقد أراد العودة إلى بلده بعد تسليم الأمانة التي كلفه بها أمير الحرمين إلاّ أن الأمير لم يشأ أن يفرط فيه وألزمه بالتَّرسل إلى صاحب مصر الوزير طلائع بن رزيك يعتذر فيه إليه عن مال نهبه خدامه على حاج مصر والشام فنفذ الأمر وكتب الرِّسالة وذهب بها إلى مصر وبينما هو في «قوص» يلقي القبض عليه صاحبها بأمر من الوزير، يقول عمارة: «ولم يأذن لي في الرّجوع ولا في القدوم حتى يردّ أمير الحرمين

ما أخذه من مال التجار» ويقع صاحبنا في مأزق. بل ربما كان شخص عمارة مقصوداً بالذات حيث نسب إليه أنّه نـظم قصيدة في ذمّ المـذهب الفاطمي، ولكن من حسن الحظ أن الوزير الصَّالح طلائع بن رزّيك كان من الأدباء وهو ممن يتذوَّق الشّعر فيأذن له بالقدوم وهنا نجد عمارة يستعمل الخاصية في الوزير وينظم قصيدة يقول فيها:

ولي تحـت دار الملك يـومـان لم تـلح لعيني عـلامـات الكـرامـة والبشر
وقـد أخـذت أيـام قـوص نصيبهـا فهـل نقلت تلك السجـايـا إلى مصر

فتتفتّح أريحية الوزير ويأمر بإكرامه وإيصاله إليه وهنا لا يترك عمارة الفرصة تمر عليه سدى دون أن يستفيد منها فينشىء قصيدة تتعلق بمناسبة معركة العريش بين المسلمين والإفرنج وفيها يبري نفسه مما اتهم به من ذمّ المذهب الفاطمي يقول فيها:

فـاعـلم وأنت بمـا أريـد مـقـالـه مـنّي ومـن كـل الـبريـة أعـلم
أني حسـدت عـلى كـرامتـك التي مـن أجـلهـا في كـل أرض أكـرم

فيزول ما بصاحبنا الوزير على عمارة من موجدة وألم، ويأمر له بمائة دينار يقول عمارة «وخرج أمره إلى الأمير عز الدين حسام باستخراج ما تأخَّر لي من رسوم الضيافة من بيت المال».

وتبتدىء صفحة جـديدة في صـداقته مـع وزراء الدولـة الفاطميـة وأمرائها، ويبقى حديث رحلته إلى مصر وأدبه فيها رُحْلة العلماء والباحثين في كل عصر وزمان، وإنما أردنا أن نستفتح به في هذا الكتاب حتى لا يصبح عرضة للنقص وخلوّه من أشهر رحلة عرفها الأدب اليمني وبـالله التوفيق.

شاهد فتح مالطة

حديث الرحلة والرحلات لا يخلو منه أي عصر وزمان وفي عصر ندرة أسباب التسلية والملاهي يصبح حديث الرحلة من المشوّقات الكبرى أمام السامعين، فكما دوّن ابن بطوطة رحلته ليشوق مليكه المغربي بما شاهده من عجائب الملكوت كذلك نجد من الرحالة اليمنيين من تفوّهوا بما شاهدوا ليشوّقوا به السامعين، وهناك كثرة من المغمورين لم يقيض لهم من يدوّن بعض ما شاهدوه فحرمنا بذلك طرائف عجيبة.

إنما قد يفلت من الزمان بعض أولئك الرحالة الذين صادف وجودهم وجود مؤرخ أو متطلع لتدوين العجائب المستغربة، ومن هؤلاء المؤرخين العلامة المطهَّر بن محمد الجرموزي المتوفى سنة ١٠٧٢. صادف وجوده وجود رحالة يمني مغمور لم نجد من عرَّف به أو دوّن رحلته.

الرحالة الأهدل:

ذلك هو الرحالة اليمني محمد بن علي بن حسين الأهدل الذي يعرف العلامة الجرموزي بعض شأنه فيقول إنه «من أشراف تهامة، ومحل بلاده من زبيد يسمى الرفود».

ويقول عنه أيضاً:

«وهو ممن جاب وأتى بالعجائب وذكر سياحات كثيرة منها مصر وحلب والشام والعراق وله في معرفة تفصيلاتها العجب العجاب، ودخل

بلاد الروم وفصَّل في معرفتها تفصيلاً عجيباً».

تلك رحلة الرحالة اليمني الأهدل وقد جاد علينا الزمان بشذرة منها ليست بشيء مما شاهده وقد سمح بها قلم المؤرخ الجرموزي ووسع لها وقته، فأضفنا بذلك رحالة مغموراً لم يكن بالحسبان.

رواية المؤرخ الجرموزي للرحلة:

وفي تلخيص المؤرخ الجرموزي خبط عجيب في تحديد البلدان ومعرفة أسمائها. أتى أساساً عن بعد الشقة وقصور المعلومات الجغرافية لعدم تيسر المواصلات كما هو معهود لنا الآن. وإنما هي نتف يجود بها الركبان فيعتورها التحريف والمبالغة.

قلت لعل من ذلك التحريف ما أتى من عند الرحالة نفسه لأنه لا يوجد هناك ضابط يحدّد أسماء البلدان وأماكنها عند العامة، والرّحالة إنما يتلقى من العوام وليس من العلماء والمصادر، فإذا ورد شيء من ذلك التحريف فلا يستغرب لأنه جاء عن مصدر شعبي لا يلتزم قواعد العلماء.

أنظر إليه ـ مثلاً ـ يضبط اسم اللاذقية باللاثقية بالثاء المثلثة كما يقول الجرموزي وكذلك ربما اختلط عليه بعض بلدان العراق ببلدان الشام كما سيتضح فيما بعد.

فإذا عرفنا هذه التقدمة فلا علينا إلا أن نصطحب رحالتنا الأهدل إلى مجاهل العراقين العربي والعجمي وأدغال الشام حتى حدود البوسفور، ففي حديثه عن تلك المناطق على اختصاره عجب عجاب كما يقول الجرموزي.

في بلاد الشام:

يبدو أن رحالتنا بدأ رحلته عن طريق المدينة المنورة بعد أداء فريضة

الحج ـ الشام، فقد حدثنا مباشرة عن أهل الشام وأنهم زيدية المذهب وأن من بلدانها الكبيرة بعلبك، يقول عنها:

«وهي مدينة كبيرة ومن بلدانها جبلة واللاثقيـة ومدينـة سره (كذا) وعنتاب مدينة أيضاً تأتي كلها ثـلاثة عشر مـرحلة من شرقي دمشق إلى مشرق حلب وكذا عسقلان وبلادها وماردين وما يتصل بوادي البصرة».

كذا يضبط رحَّالتنا البلدان ويحدّدها حسب فهمه فلا نكرر القـول هنا، ويقول عن مذهب أهل تلك البلاد.

«يقال فيهم إنهم إمامية وهم زيدية حقيقية قال عرفتهم وخالطتهم».

ورحَّالتنا هنا هو من النوع الذي يألف الناس ويخالطهم لا يمنعه عن ذلك فوارق مصطنعة.

في بلاد فارس:

وتستمر الرحلة عند صاحبنا فينقلنا نقلة أخـرى إلى بلاد فـارس، وكان قبلها قد دخل (الكوفة) ووصف بعض قراها بالعلم والمعرفة فيقول عنها إنها «هجر» أي مراكز علمية، وإن كان وصفها بعد ذلك بالقلة وأن غالب أهلها بوادي يتمذهبون بمذهب الإمام زيد.

أما فارس فله حديث آخر يطول شرحه عند صاحبـه ويقصر عند كاتبه الجرموزي، يقول الأخير:

«ودخل بلاد الديلم ومدائنه منها (روال) بالراء المهملة، و(حوط)، ومدينة تسمى (الناصرة) وهي بالقرب منها».

هذه بلاد الديلم كما يصفها الأهدل، على أنه يشرح بعض المراحل والحالة الفكرية لأهل البلاد فيقول:

«لهم عزة وقوة واعتزى إلى المذهب النبوي وأخبر أن مسير بلد الديلم

أكثر من أربعين مرحلة من غير جيلان».

ويثني على مدينة في الديلم ويسميها مدينة الباغ لا ندري ما هي، يقول عنها:

«مدينة متوسطة كتعز العدنية (الجنوبية) وأن فيها حياة العلم وأن أعظم علمائها بعد السيد إبراهيم بن عبدالله الديلمي القاضي أحمد بن إسحق».

فهذه المدينة اشتهرت بالعلم والعلماء وقد ذكر لنا جماعة من المهتمِّين فيها بنشر العلم هناك فهو يقول عنها فيها حياة العلم «وقد عرفت تلك الأصقاع منذ القدم بعلمائها الأفاضل الذين شرحوا لنا الإسلام وقواعده».

وكم كنا نتمنى من مؤرخنا الفاضل العلامة المطهر بن محمد الجرموزي أن يتوسع في خبر الرحالة الأهدل هناك وما شاهده في تلك البلاد ووصف حياة الناس ومعيشتهم اليومية وأخلاقهم وعاداتهم لولا ضيق المجال عند الكاتب كما يقول علامتنا الجرموزي نفسه.

في المغرب العربي:

لنطوي خبر الشرق وعاداته وتقاليده ونصحب الرحالة الأهدل إلى المغرب.

وسنتتبع خيط الرحلة عند صاحبنا الأهدل من خلال تلك النقولات المباشرة التي دونها الجرموزي رحمه الله، وكما أوردها في تاريخه ـ فنجد أنفسنا وقد تركنا الشرق بضجيجه وعجيجه لنواصل الرحلة في ربوع المغرب العربي، وقد أطلق عليه الرحالة بلاد الأشراف الإدريسية يقول في وصفها:

«إنها مملكة عظمى ولا لصاحب الروم (يعني الدولة العثمانية) ـ إلا هدية سنوية».

فهذه دولة الأدارسة في المغرب تنسب إلى إدريس بن عبدالله بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب وكان قد قام بالثورة على الدولة العباسية سنة ١٦٩ هـ ولما قتل الحسين بن علي بن الحسن (رفيقه في الكفاح) انهزم إدريس إلى مصر ثم تسلل إلى المغرب الأقصى سنة ١٧٢ هـ ونزل بمدينة (وليلى) على مقربة من مكناس، وهي اليوم تعرف بمدينة (قصر فرعون) وكان رئيسها يومئذٍ إسحق بن محمد فعرفه إدريس بنفسه فأجاره وأكرمه ثم جمع البربر على القيام بدعوته وخلع طاعة بني العباس فتم له الأمر يوم الجمعة ٤ رمضان سنة ١٧٢ هـ فجمع جيشاً كثيفاً وخرج غازياً فبلغ بلاد (تادلة) (قرب فاس) ففتح معاقلها وعاد إلى «وليلى» ثم غزا تلمسان فبايع له صاحبها وعظم أمر إدريس فاستمر إلى أن توفي مسموماً سنة ١٧٧ هـ/ ٧٩٣ م.

هذه قصة خبر الدولة الإدريسية في المغرب كما ذكرها رحالتنا عرضاً، وإذا أدركنا أن وصول الرحالة إلى المغرب كان نحو سنة ١٠٥٩ هـ/ ١٦٤٩ م سنجد أن الحاكم في ذلك الوقت هو أحد رجال الدولة السعدية في شمال أفريقيا وهو أبو عبدالله محمد الشيخ بن زيدان أحد ملوك الأشراف السعديين. ثار مع أخيه الوليد على أخيهما عبد الملك لما ولي السلطنة، فقاتلهما عبد الملك وهزمهما ولما هلك ولي الوليد فسجن المذكور خوفاً من خروجه عليه ثم قتل الوليد فأخرج محمد من السِّجن وتولى السلطنة سنة ١٠٤٥ هـ وكان متواضعاً صفوحاً عن الهفوات وكانت وفاته سنة ١٠٦٤ هـ وهذا لعله الذي يعنيه الجرموزي وقد اختلط عليه الأمر بالأدارسة السابق ذكرهم.

وعلى كل فإن رحالتنا الأهدل كان قد دخل المغرب في أواخر النصف الأول من القرن الحادي عشر وقد قوي ساعد صاحب المغرب حتى أنه استقل بحكمه عن دولة آل عثمان كما سبق ذكره، ولم يكن لهم منه سوى الهديه لا غير، وقد حدثنا عن الحالة العلمية في تلك البلاد فقال:

«إنهم يتظهّرون أنهم مالكية قال وهم زيدية حقيقية كما سمع في تونس من بلاد المغرب الأقرب».

وكان قد اجتمع بالقاضي بها يقول الجرموزي محدثاً عن صاحبنا:

«وقد سمع القاضي بطاش وهو المسمى قاضي العسكر يحدث عن فتح (مالطة) وقد فتح الله بها على الإسلام وعمرت فيها مساجد».

وكان فتح مالطة من الأحداث الهامة في تاريخ الإسلام توج بشرفه سلاطين آل عثمان، وهو خبر يطول ذكره ولا يخلو من طرافة:

فقد ذكر المؤرخون أن السلطان الغازي ابراهيم خان قد أعجب بإحدى السَّراري في القصر وقد وضعت حديثاً فاختارها أن تكون مرضعاً لابنه الوحيد محمد ولشغف السلطان بالجارية ومحبته لابنها حصلت بعض أمور داخلية مكدرة وللافاة الأمر والشقاقات العائلية رؤي أن يبتعد زوج الجارية عن (الآستانة) بحجة زيارة بيت الله الحرام واستصحب الجارية وابنها معها ولما أذن له السلطان بذلك سافر وبينما هو في الطريق إذ هاجمته مراكب رهبان (مالطة) وقتلوه وأخذوا الولد ظناً منهم أنه ابن السلطان ولما تحققوا من غلطتهم ربوا الولد على الدِّين المسيحي وأدخلوه في طائفتهم واشتهر عندهم باسم (بدري اوماتوا) أي الأب العثماني وبعد ذلك نزل الرهبان إلى جزيرة كريت فاغتاظ السلطان من ذلك وحبس قناصل البندقية وانكلترا وهولندا ولم يفرج عنهم إلا بعد أن أقنعه وزيره الأول بأن أغلب هؤلاء الرهبان من فرنسا ومع ذلك فإنهم غير تابعين للحكومة الفرنسية ولا لغيرها فهدأ باله، لكنه أمر بتجهيز أسطول بحري لفتح جزيرة (كريت) لأهمية موقعها الحربي عند مدخل بحر أرخبيل اليونان ولتوسطها في الطريق بين الآستانة وولاية الغرب، فجهزت الجيوش باحتفال زائد تحت قيادة شخص يدعى يوسف باشا إلى أن ألقت مراسيها أمام مدينة (خانية) أهم ثغور الجزيرة في ٢٩ ربيع الآخر سنة ١٠٥٥ هـ الموافق ٢٤ يونيه سنة

١٦٤٥ م وافتتحها بدون حرب تقريباً لعدم وصول إمدادات البندقية إليها في الوقت المناسب.

يقول المؤرخون فانتقم البنادقية بحرق ثغور (بتراس) و(كورون) و(مودون) من بلاد (موره) ويقال إن السلطان أراد في مقابل ذلك قتل المسيحيين أجمع عنده، ولولا معارضة المفتي أسعد زاده، لتم ذلك.

بل ربما كان قصد السلطان الانتقام لمسلمي (الأندلس) الذين لاقوا بعد غزو غرناطة من قبل النصارى الإبادة التامة من قتل وتحريق وهتك. وتلك قصة غزو مالطة كما أجملها رحالتنا وفصلناها هنا ويحدّد الجرموزي المدّة الزمنية للمعركه بين العثمانيين وأهل جزيرة كريت (مالطة) فيأتي بشيء من المبالغة نقلاً عن رحالتنا ـ يقول:

«وأن الحرب كان على (مالطة) اثني عشر عاماً وبينها وبين (اصطنبول) مسير أربعة أشهر كلهم مسلمين».

ويستطرد في الحديث عن مالطة فيقول عنها:

«إن بلاد (مالطة) مدائن وحصون وأراضٍ واسعة غالبها في ساحل البحر».

ولا يفوت الرحالة أن يقارن بين الحادثتين فتح (كريت) وسقوط الأندلس من أيدي المسلمين وذلك لقرب الواقعتين فيقول على لسان القاضي المذكور (قاضي عسكر) أن الأولى تقديم واستعادة (غرناطة) من أيدي النصارى لما فيها من أمة الإسلام وعلمائها يقول:

«علينا أن نقول للسلطان أن يفتح بلاد (طليطلة) من المغرب الأقصى (يعني الأندلس) وأنها من أهم ما ينبغي تقديمه وأن فيها قبور ثلاثة أشراف فضلاء يجب استنقاذهم، يقول المؤرخ الجرموزي معلقاً على الرواية:

«وهذا يشهد بصحة المسموع أن مشهد الإمام إدريس بن عبدالله بن الحسن المثنى عليهم السلام قد استولى عليه الافرنج والله أعلم».

تلك تعليقة الجرموزي ولا ندري أيعني بلاد الأندلس أم المغرب ولعله اختلطت عليه المعلومات الجغرافية كما هو الحال عنده رحمه الله فقد ذكر المؤرخون أن وفاة إدريس المذكور في (وليلى) من بلاد المغرب.

على أننا لا ندري أكان صاحبنا الرحالة الأهدل قد شهد فتح (مالطة) بنفسه أم عن طريق رواية القاضي بطاش «قاضي العسكر» إلا أن وقوع الحادثة كانت وهو لا يزال خارج بلاده (اليمن)، لكن ممَّا يقطع الشك في حضور رحالتنا فتح مالطة قول المؤرخ الجرموزي «وحضر فتح (مالطة) وذكر من قوة الفريقين ما يطول ذكره» فعرفنا بذلك أنه ممن شهد المعركة.

قصة الجزائر الغارقة:

وتبلغ الرحلة عند صاحبنا مداها فيصل إلى العاصمة (استنبول) وهناك يروي لنا العجائب من أخبار الفتوح الإسلامية وغرائب الطبيعة وحياة الناس من مسلمين وكفار (حسب تعبيره).

وقبل الدخول في مشاهدات الأهدل بأرض الروم (بلاد الدولة العثمانية) نقف قليلاً عند معلومات الجرموزي الجغرافية عن تلك الأصقاع وخبر دخول الأهدل بلاد آل عثمان ـ نقلاً عن الرحالة نفسه ـ يقول:

«ودخل بلاد الروم وفصل في معرفتها تفصيلاً عجيباً وأنه يقال فيه أنه في بعضها أعرف من أهلها».

وتلك شهادة قيمة من مؤرخنا الجرموزي في وصف مقدرة الرحالة الأهدل في التعرف بأهل البلاد التي يزورها حتى أنه يقال في شأنه، أنه أعرف بالبلاد من أهلها أنفسهم ـ حسب عبارة الجرموزي السابقة ـ

ثم يستطرد في نقل المعلومات الجغرافية عن تلك البلاد، وأظنه ينقلها مباشرة عن الرحالة نفسه، يقول:

«إن ما بين (مالطة) وبين (اصطنبول) المسماة القسطنطينية الصغرى التي هي قرار (مستقر) ملك بني عثمان وبين القسطنطينية الكبرى مسير أربعة أشهر ونصف كلهم إسلام».

وقد علمنا من رواية الجرموزي أيضاً أن الرحالة الأهدل دخل (استنبول) سنة ١٠٥٩ وفيها شهد حادثة طبيعية كبرى نترك صاحبنا يصفها بلسانه:

«إنه كان في سنة تسع وخمسين وألف في اصطنبول فسمعوا زلزلة عظيمة ظنوها مدافع جاءت بها النصارى وكان للسلطان (أي السلطان العثماني) رتبة محاصرة لقلعة في البحر تسمى «تكبتراوه» بالتاء الفوقانية وكسر الكافة وسكون الباء والراء والواو وسكون الهاء، من قلاع الكفار فانهارت في البحر وانغمرت أحجارها وصارت بعد ذلك بحراً وهلك من فيها من النصارى».

هذا هو الحادث الذي شهده رحالتنا وكان فيه نصراً للمسلمين أمدتهم به تلك الحادثة الزلزالية حيث طمست جزيرة بأكملها في تلك القلعة الحربية المحصنة وكفت المسلمين عناء المحاصرة والقتال. على أن رحالتنا قد شهد موجة من الزلازل في تلك الأصقاع تحدثت عنها كتب التاريخ.

وربما كان الثلج والعواصف الثلجية عاملاً آخر في اندراس بعض المدن فقد حدثنا رحالتنا عن واقعة مشابهة لما مضى هي حادثة جزيرة (اسبارطة)، يقول الجرموزي مخبراً عن الرحالة نفسه:

«وأخبر أنه مر بموضع في (الروم) يسمى (اسبارطة) في جهة (قرمان) ـ كذا ـ وهي مدينة عظيمة يتصل بها خمس وعشرون قرية كثيرة الأنهار والبساتين الجامعة لأجناس الأشجار، ثم رجع إليها في عام ستين وألف فوجدها بحراً فسأل من كان يقرب منها أين صارت وكيف كان

ذهابها فقالوا إن الله سبحانه أرسل عليهم الثلج ثم المطر الغالب فغطى عليها وعلى أهلها فلم ينجُ منهم إلا من كان غائباً عنها».

هكذا كان انقراض تلك المدينة العامرة بواسطة طرق الثلج الكثيرة والأمطار الغزيرة، وكان من عناية الله أن لا يكون الرحالة بها أثناء وقوع تلك الحادثة المروعة، والفرق بين مجيئه الأول إليها والثاني لا يتجاوز بضعة أشهر.

الحيمي في بلاد الحبشة

تعدّ رحلة العلامة الأديب الحسن بن أحمد الحيمي المتوفى سنة ١٠٧١ هـ في مقدمة الرحلات الدبلوماسية لأهل اليمن إن لم تكن الوحيدة إذ جاءت غالب الرّحلات التي دونوها وصفاً لمشاهد الحج ورحلاته ولحسن الحظ أن كان العلامة الحيمي من أوائل من تصدّى لموضوع الرحلة من حيث هي رحلة يدوّن فيها صاحبها ما شاهد من مشاهد عجيبة. وقد احتفل بها المستشرقون منذ أن عرفوا مخطوطاتها فنشروها في القرن التاسع عشر الميلادي كمرجع وثيق يتعلق بتاريخ الحبشة العزيز المصادر. فنشرها مع ترجمة بالألمانية المستشرق بريتوريوس سنة ١٨٨٥ م فكانت الرحلة الأولى والأخيرة التي تنشر على الملأ.

على أن هذه الرحلة كان لها شأن عظيم في موطنها الأصلي اليمن فقد احتفل بها النَّاس هنا وجعلوها فاكهة المجالس وسلوة المحزون وقد وقفت على نصّها كاملاً في عدة سفن أدبية وأوردها بتمامها المؤرخ الجرموزي في كتابه تحفة الأسماع، وكذا أعاد نشرها مرتين الأستاذ مراد كامل في مصر الأول سنة ١٩٥٨ م والثانية سنة ١٩٧١.

ومن المعجبين - أو بعض أحفاد المؤلف - من أطلق عليها اسم «حديقة النظر وبهجة الفكر في عجائب السفر» إلاّ أنها لم تعرف إلاّ باسم «سيرة الحبشة» أي سفر الحبشة أو سلوك أهل الحبشة. واشتهر المؤلف بكتابه هذا إذ لم يعرف له غيره وإن كان حفيده العلامة أحمد بن محمد الحيمي المتوفى سنة ١١٥١ قد جمع شعره ونثره في مؤلف مستقل أسماه «لذة

الوسن من شعر الحسن» منه نسخة مخطوطة بمكتبة برلين إلاّ أنه ليس مما عنى بتأليفه ويبقى كتابنا هذا هو الكتاب الوحيد المأثور عنه.

ترجمة الحيمي

ولد العلامة الحسن بن أحمد بن صلاح اليوسفي الحيمي بمدينة شبام كوكبان سنة ١٠١٧ هـ قال عنه الشوكاني في ترجمته للمذكور: أحد أعيان الدولة المؤيدية والمتوكلية وهو من أكابر العلماء وأفاضل الأدباء وكان يقوم بالأمور العظيمة المتعلّقة بالدّولة ثم يشتغل بالعلم درساً وتدريساً وكان يوجهه الإمام المتوكل على الله إسماعيل في المهمّات لفصاحته ورجاحته وقوة تدبيره فمن جملة ما بعثه إليه من المهمات إرساله إلى حضرموت لما وقع الاختلاف بين السّلاطين آل كثير فقام بالأمر أتم قيام وصلحت الأمور بحميد رأيه الخ عبارة الشوكاني.

وفي مطلع البدور ثناء زكيا على صاحب الترجمة نقطف منه قوله:

«كان رحمه الله من عيون الزمان وحيداً في صفات الفضل منقطع القرين في كل فضيلة. وهو في العلم الحجة محقق في الفقه وأشرف على العربية واطلع على أيام العرب اطلاعاً كلياً وعلى الأمثال حتى كان يأتي على أمثال المستقصى غيباً مع علم بصاحب المثل وقصته وعرف الحديث ومع ذلك معدود في أعيان الدَّولة المحمدية فإنه صحب المؤيد بالله وجعله سفيراً إلى ولده سيف الإسلام أحمد بن الحسن أيام بعده إلى جهة يافع فأحسن القاضي السفارة وحمد أثره وانتظمت به الأمور في عهد المتوكل على الله إسماعيل فكان القاضي أحد أساطين الدولة من الكفاة الناهضين في الوزارة والمشورة وهو من أبرع الكتاب الناهضين في الحضرة وله مع ذلك ولايات وأمور منوطة به نحو أقاليم الحيمة وكانت أعمال كوكبان تصدر وتورد عن رأيه ومع هذه الكلف[1] كان صدره أوسع من الدهناء[2] وعظايم الورادات

(١) أي تكلف المشقة. (٢) الصَّحراء المعروفة.

لا تغير له ذهناً لأصحابه منه الحظ الوافر من الأدبيات والملاطفات والإخوانيات والتدريس في العلوم على أكمل وجه، وكان مظهره مظهر أمير وقلبه مستكين خاشع فقير».

يقول العلامة ابن أبي الرجال بعد ذكر هذه الخصال العظيمة «أقول هذا ولا ينبئك مثل خبير، فلقد كنت منه بمنزلة الأخ الشقيق والحميم والرفيق الشفيق أعرف أحواله رضي الله عنه إجمالاً وتفصيلاً وكانت له في النظم يد طولى وسابقه أولى من شعره في الرّد على معتقد النصارى ومذهبهم وتوجيه المؤيد إلى نصارى الحبشة لهدايتهم إلى الإسلام:

على كل سعي في الصلاح ثواب ... وكل اجتهاد في الرشاد صواب
وليس على الإنسان إدراك غاية ... ودون مداها للعيون حجاب
ولو علم الساعون غاية أمرهم ... لما كان شخص بالشُّرور يصاب
فقل لأمير المؤمنين لقد دعا ... وحق له بعد الدعاء يجاب
ولكن دعا قوماً يظنون أنهم ... رموا غرضاً في دينهم فأصابوا
ترائى لهم لمع فهم يحسبونه ... سراباً فأضحى ذاك وهو سراب
يقولون إن الله جلّ جلاله ... هو الروح عيسى إن ذا لعجاب
وحيناً وقالوا بالأقانيم فرية ... فيحصرها ضبط لهم وحساب
وقالوا هي الرب الثلاثة كلها ... بذلك أفتت فرقة وأجابوا

إلى آخرها. توفي رحالتنا رحمه الله في ذي الحجة سنة ١٠٧١ وقد رثاه تلميذه العلامة صفي الدين أحمد صالح بن أبي الرجال بعدد من القصائد منها قوله في بعضها:

رويدكما فالعتب ضر فؤادي ... كفى ما ألاقي من عناً وسهاد
إذا السُّحب شنّت ماؤها شن مدمعي ... أروي كما روت قلاً وبوادي
أنوح كما ناح الحمام لشجوه ... كلانا معنى بالغرام وصادي

رحلة الحيمي

كل الذين ترجموا له وصفوا رحلته هذه بأنها من عجائب الرحلات وغرائبها وقد أخذوا في وصفها وتلخيصها فقال الشوكاني:

«وجّهه المتوكل إلى سلطان الحبشة لما وصلت منه كتب تتضمن رغوبه في الإسلام ويطلب وصول جماعة من آل الإمام إليه يسلم على أيديهم فتوجّه في نحو خمسين رجلاً وركب من بندر المخا ثم توجّه من هناك ولاقى مشاقاً عظيمة» إلى أن يقول «وهذه الرحلة مشتملة على عجائب وغرائب قد جمعها صاحب الترجمة في كراريس هي بأيدي الناس» ويقول ابن أبي الرجال: «لقي في الطريق أهوالاً جساماً ولكن الله سبحانه تولاّه وتولى من معه بحياطته وقد صنف رسالة مشتملة على أحوال هذه الرحلة ومن أعجب ما كتبه هنا ما أخبرني به أن في إقليم الحبشة سحائب تمطر النار وليس لها وبل غير النار فيقع على البلد فيهلكه وسحائبها معروفة وهي لا تزال على ذلك ولا يستغرب أهل الحبشة أمرها».

وقد وصفها من المعاصرين[1] الأستاذ مراد كامل فقال «هذه الرحلة تقدم لنا مثالاً عن اتزان العقل والأمانة العلمية عند أحد كتاب العرب الذين بالرغم من الظروف الدينية التي كانت هي السبب في قيامه بمهمته في الحبشة والتي كانت تحتم عليه أن يرى الأشياء من زاوية خاصة فقد أمكنه أن يتحلّل من كل هذا ويرى المسائل مجرّدة من كل تعصّب أو تحيز فيصف لنا مشاهداته في الحبشة وصفاً علميًّا صحيحاً لا تشوبه شائبة بعقلية قاضٍ عادل نزيه وعالم مدقق خبير وقد حمله نظره المجرّد إلى الأشياء أن يصل إلى استنتاجات قويمة تدل على تحقيق ومعرفة بالأمور. وأن ما وصل إليه من فهم نفسية شعوب الحبشة وأخلاقها مدة إقامته القصيرة بينهم يعتبر دليلاً على حسن فهم للأمور وثاقب نظر إلى كنه الأشياء وأن خاصيّة الأحباش

(١) وانظر ملخص الرحلة في كتاب تاريخ الأدب الجغرافي لكراتشكوفسكي ج ٢ ص ٧٢٨.

المحافظة جعلتنا نتحقق اليوم من النتائج التي وصل إليها الحيمي كاتب هذه الرحلة منذ أكثر من ثلاثة قرون».

سير الرحلة وبدايتها

الطريق الذي سلكه الحيمي إلى ملك الحبشة ذكره في بداية الرحلة يقول: لما وقع اختيار الإمام عليه لإيفاده في هذه المهمّة أرسل صحبته اثنى عشر من حملة البنادق وعشرة من المشاة، وخرج من المخا بعد أن جهّز حاكمها المراكب بالمهمات والجند وكان خروجهم من شهارة في غرة جمادى الثانية سنة ١٠٥٧ وأبحروا من المخاء في نصف شهر شعبان وقطعوا المسافة بين (المخاء) و(بيلول) في يومين بحراً ثم مكثوا في (بيلول) مدة شهرين وأمضوا شهر رمضان بها يقول الدكتور مراد: ويمكن أن نتبيّن على وجه التّحديد الطريق الذي قطعوه من ميناء (بيلول) إلى مدينة (جوندار) حيث الإمبراطور، وقد تحدث لنا في كتابه عن موعد قيامه وموعد وصوله ومدّة إقامته في كل من المواضع التي مرّ بها في رحلته وبذلك أمكننا أن نتبع الطريق الذي سلكه:

٨ ـ شوال سنة ١٠٥٧ من بيلول.

١٠ ـ شوال مسيرة مرحلتين في أرض مشوبه بالمخاطر ثم الدخول في أودية بين جبال عالية

٢٢ ـ شوال الوصول إلى (عين مَلي) بعد اثنتي عشرة مرحلة.

٢٢ ـ من ذي القعدة الإرتحال بعد إقامة شهر كامل في (عين ملي).

٣٠ ـ من ذي القعدة الوصول الى جبل عظيم وبحيرة ماؤها مالح والإقامة هناك ثلاث ليال.

٤ ـ من ذي الحجة الوصول إلى مكان به ماء.

٥ ـ ذي الحجة الوصول إلى واد ترعى فيه (القاله).

٩ ـ ذى الحجة الاجتماع بأمير أندرنه.

١٤ ـ من ذي الحجة الوصول إلى حدود الحبشة عند نهر (وسمه) وجبل (كحل) ثم جبل (حنطالوه) والإقامة هناك ٤٠ يوماً وقد قدّر المسافة بين ساحل بحر (بيلول) وبين حدود الحبشة بمسافة شهر للقوافل.

٢٤ ـ من محرم سنة ١٠٥٨ الخروج من بلاد (اندرنه).

٢٧ ـ من محرّم الوصول إلى (سحرت).

٢ ـ من صفر الوصول إلى بلاد (ابرقلي) و(النيل الأزرق).

٩ ـ من صفر الوصول إلى بلاد (الفلاشة) ووادي (أغنة) وجبل (سمين).

٢٠ ـ من صفر الوصول إلى بلاد (الأمحرة) ودخول قرية من مدينة الملك.

٢٥ ـ من صفر الدخول في عاصمة المملكة.

هذه أهم ملامح سير الرحلة وسنعود إلى ذكر هذه المراحل ووصفها عند حديثنا عن الرحلة وقد حدثنا الدكتور مراد كامل عن شيء من الوضع السياسي في أجواء قيام المؤلف بتلك الرحلة فقال: «بدأت سلطة البرتغال الدينية تضعف في البحر الأحمر بالرغم من أن التجارة كانت لا تزال إلى حد كبير في يدهم وكانت سفنهم تحمل التِّجارة إلى الهند ولكن الأتراك وقفوا لهم بالمرصاد وأخذوا في القضاء على سلطانهم بالتدريج وكان الأتراك يعملون جادين على تملك الموقف وكان من صالحهم أن يرجع رسول اليمن عن طريق (مصوع) وكانت في هذه السنة هدنة بين اليمن والترك وكتب الإمام المتوكل إلى باشا الأتراك صاحب سواكن يأخذ منه الأمان للرسول وتمت الرحلة من دباروي إلى (مصوع) ورجع الرسول وصحبه عن طريق (الدّهلك) ووصلوا (اللحيّة) في ٨ ربيع أول سنة ١٠٥٩ ومنها إلى شهارة أي بعد واحد وعشرين شهراً من تركهم لها.

مع الحيمي في رحلته

عن أسباب كتابة الرحلة يحدثنا المؤلف فيقول: «وبعد فإنه سألني من وجه إلي أمل الإسعاف فأمرني من لا يسعني مخالفته على طريق المطابقة أن

أصف ما ينبغي مذاكرته من سفرنا إلى الدِّيار الحبشية واتصالنا بملك الفرقة النصرانية والملة المسيحية. . . فأجبته إلى ذلك إيثاراً لقصده وقضاء لما ثبت من حقوق ودّه. ولما أرجوه من نعش همم أهل الخمول والحث على ارتكاب الأخطار العظيمة في طاعة الله عز وجل» الخ.

تلك أسباب كتابة الرِّحلة عند مؤلفنا ومما يزيده نشاطاً في كتابتها أن الكتابة في مثل هذا الموضوع ليس مما يترتّب عليه أمر شرعي أو يحتاج إلى علم كبير يقول «وشجعني على رقمه في هذه الأوراق أنه ليس من التأليف المفتقر إلى كمال اجتهاد ولا من التصنيف الذي يتطرق إليه الإنتقاد ولا يتعلق بروايته معرفة الإسناد والإرسال. . . وإنما هو إخبار عن مدركات الحواس ومشاهدات النظر يستوي فيها الكافة من الناس»

فالكتابة عنده هنا من الأمور الميسرة خاصة أن هذا الموضوع من الأمور المشاهدة التي لا تحتاج إلى إعمال فكر أو تبحر في علم من العلوم الشرعية. وقد آن لنا الانصراف مع رحالتنا ومصاحبته في أدغال أفريقيا. وكانت البداية في اليمن يقول بعد ذكر أسباب الرحلة من رغبة الإمام في إسلام ملك الحبشة وإعداد الهديّة اللأّزمة إليه وهي «هدية فاخرة تليق بأحوال الملوك منوعة أنواعاً وأسنى من هدية الملك إليه وأطول باعاً من خلع الديباج العجيبة ومطارف الملوك السنية والسيوف القاضية القاطعة والدروع الفائضة السابغة» إلى غير ذلك. وكان الإمام قد أصحبهما رسالتين ونصائح تتعلق بالمقام. وأخيراً:

«في غرة جمادى الأولى توجّهنا من حضرة الإمام عليه السَّلام مقدّمين بين يدي ذلك حسن التوكل وخالص التّوسل.. وكان في صحبتنا جماعة ممن تليق مصاحبتهم في السَّفر من الشيعة والعسكر وأهل الصبر والرعاية والمروءة والحماية قدر اثنين وعشرين نفراً فيهم نحو اثني عشر بندقاً».

وقد حانت الرحلة «واستقبلنا السَّفر المبارك على تيسير الله وتدبيره

وهو الصاحب في السَّفر والخليفة في الأهل والمال والولد ولا يجمعهما غيره لأن الصاحب لا يكون خليفه والخليفة لا يكون مستصحباً».

ويصل الركب إلى بندر المخا بعد قطع المراحل من صنعاء إلى البندر المذكور «ولما انتهينا إلى بندر المخا حرسه الله تعالى وكان مولانا أيده الله تعالى قد أمر النائب فيه بتجهيز جميع العسكر المحافظين في البندر بأعظم ما يكون من الإعداد في المراكب لما يتوهم أن يعرض من الأتراك ففعل نائب المخا بما أمر».

ثم يُشَمِّر بهم المركب في البحر متّجهين إلى بيلول «وكان جملة سفرنا في البحر يومين فقط والمسافة مع استواء الريح أقرب من ذلك فإنها قد تقطع في يوم واحد». وفي بندر بيلول يتّجه الركب إلى ملاقاة سلطانها المسلم شحيم بن كامل الدنكلي فيجدونه غائباً عن البلد «فراسلناه حتى وصل وكنا قبل وصوله ضاربين خيامنا في مكان خارج البلد بينها وبين البحر» وكان السَّبب في ذلك نفرة أهل البلد من هؤلاء الغرباء لأسباب تتعلق بطبيعتهم أو لعدم وجود السلطان بين ظهرانيهم «وأدركنا من أهل البلد تشوشاً من وصولنا فبقينا هناك حتى وصل سلطانهم السلطان شحيم بن كامل، وقد كان خرج في صحبتنا جماعة من تجار الحبشة» وبعد وصول السلطان تتغير النظرة حولهم ويتلقّون «بالكرامة وسنى الضيافة» ويصف حضرة سلطان الدناكل بالبعد عن أخلاق الإسلام وبشاعة الصور «ولما اجتمعنا بالسلطان شحيم وفد معه رجال من البدو والمتّصلين بذلك المحل خلق كثير منكرين الصّور ضالين عن التخلّق بشيء من أحكام الشرع الشريف المطهّر وذلك كما شاهدناه من اختلاط رجالهم بنسائهم وكلهم عراة لا يسترون عوراتهم ولا يتسترون بمنكراتهم كأن المنكر عندهم من المعروف والبدع لديهم من الأمر المأنوس المألوف» ويصف لغتهم بأنها تختلف عن لغة الأحباش وأنهم يفدون عليهم مستغربين من صورهم وأصحابنا منهم أغرب يقول «ولسانهم أعجمي بلغة تخصّهم ليست من لغة الحبشة فكنا إذا خاطبناهم نفتقر إلى

ترجمان وقليل معنا من يعرف لغتهم كل المعرفة إلاّ من كان يتّصل ببندر المخا فإنه ربما عرف اللّسان العربي وكل من يجيء إلينا من هؤلاء البدو المذكورين يريدون مجرد الاطلاع ومعرفة هؤلاء العرب الوافدين فإذا وصلوا إلينا جعلوا ينظرون إلينا من بعد وهم يتعجبون بالنظر إلينا ونحن بالنظر إليهم أعجب».

ومن طريف عاداتهم «أن كبيرهم الذي يقتدون بأقواله متزوّج باثنتي عشرة امرأة وغيره يعمل مثل ذلك على ما ظهر لنا من النقل» ومع ذلك فإن الريبة قائمة بين الوافدين وأهل البلد «فإنهم يريدون الإطلاع على أحوالنا والتجسس عليها وهل يمكنهم الوقوف لنا على الطريق التي نمر فيها والوصول إلى شيء مما في أيدينا أو غير ذلك مما يفعله المختلسون والأكراد والمتخطفون من أهل الفساد».

وكان من أكبر العون لهم على اجتياز المخاطر المتعددة التي كانت تعترضهم، هو وجود البنادق بأيديهم ولم يكن قد عرف هذا السلاح الفتاك بأيدي الأحباش في ذلك الوقت، وقد أرخ وجوده باليمن المؤرخ يحيى بن الحسين في كتابه غاية الأماني ص ٥٦٥، وأول من وصفه العلامة عبد الرحمن بن علي إبن الدَّيبع المتوفى سنة ٩٤٤ في كتابه الفضل المزيد في حوادث سنة ٩٢٢ يقول في أثناء الحديث عن وصول حسين الكردي جزيرة كمران «ونزل معه بنحو من ألف مقاتل من أصحاب سليمان من أهل الروم أكثرهم رماة بالبندق وهو شيء عجيب لا يكاد أحد يقاتل أصحابه إلاّ غلب وهو شيء يشبه المدفع إلا أنه أطول منه وأدق مجوّف ويجعل في جوفه قطعة رصاص كحبة البندق ويحشي من البارود ويدفع بنار في فتيلة في أسفل البندقة فلا يصيب أحداً إلاّ هلك أو كاد وربما أصابت البندقة شخصاً ونفذت منه إلى آخر فقتلته» وهذا الوصف يدل على الانبهار والاستغراب لهذا الصّنع العجيب وكذا كان حال أهل (بيلول) عندما شاهدوا لأول مرة آلة البندق العجيبة يقول «وكان من فضل الله علينا وما

أمدَّ الله به إمامنا عليه السلام من حسن النظر وكمال الرأي استصحاب البنادق فإنها من صنع الله لنا وبركة مولانا أيّده الله تعالى دفعت عنّا المكروهات وكانت لنا مع عون الله من أعظم المعونات ولقد كانوا يعجبون من رمي البندق غاية العجب وأحسب فيما ظهر لي أنهم يعتقدون أن صاحب البندق إذا رمي يتمكن من متابعة الرمي من غير انقطاع[1] ولا تخلل وقت بين كل رميتين ونحن مع هذا التوهّم نوهمهم صدقه ونحرص ألا يظهر خلافه».

وفي (بيلول) يمكث الرّكب نحو شهرين «نلازم صلاة الجمعة وصمنا هناك شهر رمضان المعظم وخرجنا لصلاة العيد والسلطان شحيم بجمعه وأصحابه ناشرين الأعلام مظهرين شعار الإسلام وصلَّينا في جبانة البلد».

وبعد انتهاء العيد يتوجّه الحيمي بأصحابه إلى طريق كثيرة المخاطر، وبصحبتهم السلطان شحيم مع جماعة من حاشيته وكان سبب تأخرهم في (بيلول) كثرة مخاطر هذه الطريق «منها أنها مفاوز منقطعة عن الماء وإنما يعرف مواقع المياه الدَّليل الماهر والعارف الخابر وقليل ما هو لعدم الاختلاف فيها. ثم إن أهل الأمانة فيهم قليل فإن الدَّليل إذا شاء سلك بالنَّاس حيث لا يوجد الماء فإن شاء أهلكهم وإن شاء تحكم في أموالهم ما يريد ومنها الخوف من هؤلاء البدو المتّصلين بالطريق ومنها الخوف الأعظم من (القالة) لإمكان وصولهم إلى هذه الطّريق» فهذه المخاوف وغيرها جعلتهم يحتاطون في حفظ أنفسهم والاحتراس الشديد لصيانة أرواحهم. يقول «فاحتجنا إلى المبالغة لنفي هذه المخاوف وسد أبوابها ومراسلات كبار البدو وبنظر السلطان شحيم وبذل الأموال لهم».

وبعد تمهيد الأمور اللاَّزمة من عناية تامة في تسهيل الطريق وغيره يبتدي الركب في السير، ولنترك صاحبنا يصف المراحل والمشاق: «وبعد أن

(١) كانت العادة في إطلاق البنادق هي أن تشعل الفتيلة ثم تصوب بها حتى تصل إلى البارود فينفجر وهذا يستغرق وقتاً بخلاف البنادق الحديثة فإنها تنفجر بمجرد الضغط على المقص.

تقررت الأمور بحسب الظن وقدر الإمكان توجّهنا في ذلك الوقت من (بيلول) في أرض مستوية كثيرة الأشجار نحو مرحلتين ثم دخلنا بعد ذلك أودية بين جبال عالية وفيها ماء جار وفي هذا المحل جاء إلينا من أخبار البدو أنهم يريدون غزونا في تلك الليلة» فكان لهذا الخبر وقع كبير في النفوس جعل أصحابنا يمعنون في الاحتياط والحراسة ومن الطريف أن يداهمهم في أثناء تلك الليلة الليلاء أربعة من الفيلة ليس لأصحابنا عهد بها فيرمونها بالبنادق وقد أحدثت دويًّا هائلاً شق سكون الليل فما يكاد المتربصون بهم يسمعون أصوات البنادق حتى يتفرقون عنهم وهذا من عجائب الألطاف «وقد أخبرنا رجل ممن بلغ إليه حقيقة أمرهم أن قدر الجميع الذين كانوا اجتمعوا لذلك خمسمائة رجل».

ويمضون في سيرهم قدر اثنتي عشرة مرحلة «حتى وصلنا محلاً يسمى «عين ملي» وهذا المحل وما بعده أعظم خطراً وأكثر مخافة لقربه من القالة» وهو وادٍ يصفه بكثرة الخوف وعظيم الوحشة وذلك بسبب وجود القالة الذين يصفهم رحالتنا بأنهم «أمة شديدة الباس متينة المراس كثيرة العدد بعيدة الأمد إذا توجهوا للحرب على أحد من الناس من الكفار وغيرهم كالمسلمين في جهة مدينة «أوسة» وما إليها فقد يبلغ عددهم نحو مائة ألف أو ما يوازي ذلك ثم إنهم مع هذا أهل قوة في أبدانهم وصبر على طول الأسفار واحتمال المضار ولقد حكى لي من له خبرة بأحوالهم أن الرجل منهم إذا صرخ بأعلا صوته عند ملاقاة الحرب وسمع ذلك بعض الكفار من النَّصارى انفلق قلبه فيموت من نفس الصوت».

وكانت المخافة من القالة جعلت أصحابنا يطيلون المكوث في «عين ملي» قدر شهر كامل وقد بعث السلطان شحيم رسالة إلىٰ صاحب الحبشة يخبر بقدوم الحيمي وجماعته وأن يتلقّاهم في محل معين مع جماعة من قومه ليتمكن من الحراسة التامة فكان وصول الجواب من سلطان الحبشة في البلدة المذكورة «عين ملي» يقول «وبعد رجوع الجواب عليه أظهر المسرّة

العظيمة وضرب عليه بالنقارة[1] واجتمعوا للعب الذي يعتادونه عند حصول المسار».

ثم تهيأ للسلطان شحيم مفارقة الجماعة بعد أن سار معهم نحو خمس مراحل بعد مغادرتهم «عين ملي» «لأنه إذا جاوز ذلك المحل لم يتيسر العود منفرداً بأصحابه خوفاً على نفسه ومن معه لأنه في التحقيق لا يتم له السلوك في هذه الطريق إلاّ مع انضمامه إلينا، وتقويه بقوتنا التي أمدّنا الله بها» وقبل مغادرته هو وأصحابه موضع أصحابنا عقد اجتماعاً بين الرفقة لسلوك الطريق المأمونة إلى سلطان الحبشة يقول رحالتنا «وكان هناك ثلاث طرق إحداهن ظاهرة الأمان من «القالة» والثانية تجوز فيه المخافة منهم والثالثة مقطوع بخوفها وخطرها لكونها في جانب «القالة» واختلف الرَّأي عند الجميع في سلوك إحدى الطرق الثلاث، فرسول الملك الواصل بالكتاب إلى أصحابنا يرى سلوك الطريق المأمونة وإن كانت بعيدة وسائر الحبشة الذين معه يريدون الطريق الوسطى، فقال السلطان شحيم حلاً للإشكال يكون لكل فريق وجهته التي يختارها، ثم طلب رجلاً جمع بينه وبين أصحابنا يكون دليلاً لهم «وأخذ عليه عهداً لا خاننا ولا خدعنا. . . ثم قال لنا بعد هذا يكون سيركم أنتم وأهل الحبشة مرحلتين مجتمعين ثم تفترقون بعد ذلك».

وبعد المشاورة والمراجعة يتوجَّه الجميع بعد أن ودّعوا السلطان شحيم وأصحابه في ذلك المحل «وواصلنا السَّير مع ذلك الدّليل وكنا جميعاً ونحن وأهل الحبشة لا نفترق عنهم إلاّ بعد يومين كما ذكر السلطان شحيم فاستمر بنا السير ثلاث مراحل متوسطة» وفي طريقهم يمرون على مشاهد ومناظر خلابة يقول رحالتنا «انتهينا إلى جنب جبل عظيم أبلغ ما يكون من العظم في الانبساط والارتفاع ووجدنا هنالك بحيرة يتصل ماؤها بذلك الجبل وبجبال أخر في أطرافها ماؤها مالح زعاق وطولها وعرضها مستويان في

(١) النقارة عند المولدين شبه الدف من الجلد يضرب عليها.

التقدير وقياسها بالمسافة نحو بريد كامل» وفي الطّريق يظهر من الدّليلين علامات الخيانة والخداع فما كان من أصحابنا إلا أن راجعوا دليلهم ولاطفوه بالقول وجميل العبارة «لعلمنا أنه قد صار المتصرف بنا كيف شاء فلم يجب علينا بقول تطيب به نفوسنا وإنما هو يغالطنا ويماطلنا» وبسبب هذا المكر البين من الدَّليل يتحيّر الركب في سيره ويمكث في ذلك الموضع نحو ثلاث ليال، يقول رحالتنا «على ما فيه من عظيم الوحشة وكثرة السِّباع في الليل» وأكثر ما يزعجهم فيه هو خوف (القالة) حتى أنهم إذا أرادوا إشعال النار «تحيَّلنا في سترها عن جانب (القالة) إما بمكان مطمئن أو بأن نجعلها جنب صخرة أو نحوها لأنهم يرون النَّار فيغزون عليها» ثم يتبين للرّكب الخيانة الأكيدة من قبل الدليلين «ولم نجد بدًّا من تسليم ما تيسر من المال لأولئك الجماعة» وهم ثمانية رجال زعم الدَّليلان أنهما من أصحاب هذه البلاد، ويرتحل الجميع مع هؤلاء والشكوك تساور الجميع «فما رأيناهم سلكوا بنا طريقاً واحدة فتركنا السؤال عن ذلك، وشغلنا بالتفكير فيما ينتهي إليه حالنا مع هذين الرّجلين الخائنين فإنما نحن نظن أنا نساق إلى الموت وكنّا في سيرنا نتوجّه إلى ما بين القبلة وجهة المغرب فرأينا الطريق التي مالت بنا إلى جهة المغرب ثم بعد ذلك مالوا عن المغرب قليلاً» وأخيراً يتيقن للجميع أن الدّليلين ضلاً بالجميع عن القصد المطلوب «وقطَعْنا بحصول الهلاك إمَّا بالعطش أو بالجوع لنفاد الزَّاد أو بأيدي القالة ونحوهم».

ولكن من ألطاف الله الخفيّة أن ملك الحبشة بعث من عنده من يتحسَّس الركب فأوكل إلى نائبه أن يتقصَّى آثارهم فما كان منه إلاّ أن أرسل جماعة ينظرون في الأمر ومن حسن الحظ أنهم شاهدوا نار الركب وهم في موضع البحيرة المشار إليها سابقاً وكان الدَّليل خبيراً بالطريق يقول الحيمي «وكان قد أدرك ظهور النار في شاطىء البحيرة التي قدمنا ذكرها من رأس جبل عالٍ على قدر مرحلتين للبريد ومعه جماعة قد استصحبهم ممن

يخالط القالـة» وهنا يتتبـع دليل سلطان الحبشـة أصحابنـا من بعيد، أمـا أصحابنا أنفسهم فإن الخوف ظل مخيماً على أنفسهم متوقعين الموت يداهمهم من حين لآخر وقد أصبحوا «في ذلك اليوم إلى وادٍ فيـه ماء جـار وهذا الوادي ترعى فيه (القالة) في أكثر أحوالهم إلاّ أنهم كانوا في ذلك الوقت في جانب بعيد عنه بسبب أنهم في العادة يتنقلون بمواشيهم لطلب الرعي».

ولما أراد الله السَّلامة لأصحابنا بصر بهم دليل سلطان الحبشة المرسل لإنقاذهم «فلما رآنا هذا الرجل دخلنا ذلك الوادي انحدر إلينا من الجبل بمن معه» فلما رآه الحيمي وجماعته متوجهاً إليهم بمن معه من القوم اعتقدوا أنهم من الأعداء فأمرهم بأن يتأهّبوا لملاقاته بالسلاح «فرأينا أحدهم قـد انفرد قبلهم يشتد إلينا ويتكلم بلسان الحبشـة فعرف من كـان من أهل الحبشة وعلموا أنه رسول ذلك الأمير فقالوا لنا البشارة هؤلاء أصحابنا».

وبوصول رسول سلطان الحبشة تنفرج الغمة ويلوذ الدليلان الخائنان ومن معهم بالفرار أما حال المواشي التي كانت معهم فـإنها بعد وصـول الجميع إلى الماء الجـاري في الوادي المـذكور «وشربت منـه هلك بعضها لانقطاع بطونها من كثرة الماء الذي شربته» ويخبرهم الرسول الواصل إليهم بأن الأمير من قبل السلطان في انتظارهم وأن «عليهم سرعة الارتحال من ذلك المحل وأمر أصحابه أن يكونوا في أعلا الجبال من يمين وشمال ليكونوا عيوناً» وكان دليلهم هذه المرّة حصيفاً في فهم الطريق وقد تتبع بهم شعف الجبال لعلمه أن «القالة لا يطلبون الذي يلوذ بالجبال ولا يعبأون به وإنما يأخذون من وجدوا في السهول».

ثم يواصلون سيرهم في أمان واطمئنان «واستمر بنا السير في صحبة ذلك الرّجل ومن معه قدر أربع مراحل» وبعدها يجدون الأمير في انتظارهم ويسمى بلغتهم «أحد أنبة» يقول «ولما وصلنا وجدناه متعلقاً بجبل صعب المرتقى فلما رآنا نزل إلينا واجتمع بنا في بطن الوادي وضرب فيه خيمته» وكـان من شأن الحيمي وأصحـابنا أن أطلقـوا النار من بنـادقهم إشعاراً

بالتحية والبشر كما هي العادة، إلا أن أصحاب الأمير ذهلوا لسماع أصوات البنادق وهنا تتكرَّر قصة الخوف من البندق «ولما ضربت البنادق وفيها الرصاص وكان لها صوت عند خروجها هالهم ذلك واستعظموه ولقد رأيناهم مع جمعهم العظيم إذا ضربت البنادق انحطوا برؤوسهم راكعين إلى الأرض وهم ينظرون إلينا كالمبهوتين ويتسلّلون تسلل الأذلين كأن السلطان لنا عليهم».

ويرسم لنا المؤلف صورة لأمير الحبشة الذي قابلهم نيابة عن السلطان في البلد المذكور فيعطينا وصفاً لا يقل عن الرسم الحقيقي يقول «وهذا الأمير رجل أشيب مكشوف الرأس على قاعدة أهل الحبشة مطول الشعور والأظفار أشبه شيء بكبار القردة غير أني رأيته بعد أن عرفت حال غيره أحسن أهل الحبشة رأياً وتدبيراً وصبراً وسياسة» ومن تدبير المذكور أنه استصحب معه طعاماً جاهزاً مصنوعاً من الدقيق وغيره وقال للجميع «يأكل الناس من الطعام الحاصل ولا يصنعون شيئاً لأن الإقامة مقدار الاشتغال بمعالجة الطّعام خطر عظيم ففعل النَّاس ذلك وارتحلوا».

وهذا من حكمة الأمير المذكور ورجاحة عقله ثم يستمر السير صحبة هذا الأمير قدر خمس مراحل حتى يصل أول بلد من بلاد الحبشة يقول «وهي قرية بين جبلين عظيمين عندها نهر عظيم يسمَّى «وسمه» وهي طرق بلاد الحبشة وثغر من ثغورها عليهم التزام حراسة من (القالة) في كل شهر عشرة أنفار يتناوبون في جبل يسمى «كحل» لأنه على مسلك (القالة) فإذا علم هؤلاء الحرس بتوجه (القالة) أخبروا قومهم».

وكان المؤلف وأصحابه أثناء سيره في المفاوز والمراحل السابقة قد تعرض لأخطار متعددة غير ما ذكر من أهمها انقطاع الزَّاد بسبب التأخر في بعض المناطق وانتظار الفرج، يقول «وهذه التحيرات ما كانت معروفة لنا في ابتداء سفرنا فنعد لها الزَّاد المبلغ فاستغرقنا الزاد مع التحيّرات ومع تجويزنا السفر كل يوم» وقد نفد الطعام الذي معه ولم يبقَ إلاّ أن يأكل من

ثمار تلك البلاد وهو شيء غير مألوف لرحالتنا وأصحابه يقول «ولما تقاصر الزاد وكانت هذه البلاد لا يعرف فيها وجود الطعام ولا يزرع فيها شيء من الحبوب، وإنما نفقاتهم السّمن واللحم» وهذا ليس عند أصحابنا بمأكول وإنما يعد من باب الأدام «وكنا نحن ومن معنا لا نعد ذلك من معتاد النفقة على أنا اعتمدناه لعدم غيره» فما كان أمامهم غير الأكل من الموجود «إلاّ انا في هذه البلاد المقفرة نشتري بها الغنم ونعدها معنا ونذبح منها ولكن قلما ينفع ذلك كنفع الطعام ولا دفع المشقة التي أوهت القوى وانحلت الأجسام».

نعم وجدوا شيئاً من الثمار غير المطبوخ وهو نوع من الدّوم غير الذي اعتادوه في بلدهم «ولقد كان جماعة من العسكر يتبعون ثمر الأشجار وأكثرها نفعاً لهم ثمر الدوم المعروف بالبهش وليس بالدوم الذي هو ثمر السِّدر وكانوا يستصحبونه زاداً في بعض المراحل» وفوق ما ذكر انقطاع الماء أحياناً «فقد نحمله في بعضها باليومين ولا نجده إلاّ في اليوم الثالث» وثالث الأثافي سوء مخالطة الرفقة لهم من الأحباش وتوجّس الشر منهم «وما نشاهده منهم من البدع في الدّين وكثير ما يتفق بيننا وبينهم من الأسباب ما يثير دفائن شرهم ولا يفزعون إلاّ إلى أسلحتهم ومن معنا كذلك».

وكانت هذه المشاق مما مرّ على رحالتنا أثناء مروره من (بيلول) حتى وصوله إلى مدينة الأمير بعل جاده المسماة وسمه وهي مما يدخل تحت سيطرة ملك الحبشة وبعد الوصول إلى هذه البلدة بدأت الأمور تنتظم «وتوجهت الرسل من هناك إلى الملك من الأمير بعل جاده ورسول الملك الواصل إلى الإمام يخبرانه بقدومنا إلى بلاده سالمين» وقبل أن تأتي رسل الملك يكون صاحبنا قد استقر في بلد الأمير «وهو في جبل عالٍ اسمه «حنطالوه» واسم هذه البلد على عمومها «اندرته» وهي بلاد مستوية كثيرة العشب» ويصف هذه البلاد بكثرة الخيرات «كثرة العسل ولقد كنا نشتري منه بالشقة السودى من بز المراودي ما يزيد على أربعين رطلاً صنعانياً من الشهد الأبيض الذي

ما رأت العين مثله». وهم في انتظار جواب الملك تأتي عليهم عيد الحجة فيقيمون صلاة العيد هنالك «وهم ينظرون إلينا ويتعجّبون مما نحن فيه كما نتعجّب مما هم فيه» وفي البلدة يتعرَّف على جماعة من المسلمين يقال لهم آل كبير على درجة من الدين والفقه «فسررنا بهم كثيراً وكان بعضهم يعرف لسان العرب فما برحنا نسألهم عن أمور نحتاج إلى معرفتها».

وبعد مرور أربعين يوماً في انتظار جواب الملك يأتي الرسول حاملاً معه الأخبار السارة وأن الملك أمر «بإكرامهم في الطرقات والقيام بما يتوجبه من حق الضيافة لنا والصّحبة في الطرقات في الأماكن المخوفة».

ومن هذه اللحظة يشعر القوم بأنهم في وفد رسمي حقيقة وأنهم بين إعزاز الجميع وإكرامهم وقد بعدت المخاوف والشرور فمن «اندرته» يصلون إلى بلاد «السحرت» بعد ثلاث مراحل «وتلقانا أمير تلك البلاد واسمه إسحق واجتمع بالأمير بعل جادة» وكان قد سار برفقتهم ومن الأمور التي تذكر لهذا الأمير برجاحة العقل وحسن التَّدبير، أن رجلاً من أصحابه - أعني «بعل جادة» - دخل الإسلام فسأله إسحاق المذكور كيف تترك هؤلاء يغيرون ديننا ونحن عازمون على قبض هذا الرجل وقتله «فأجاب عليه الأمير بعل جادة بجواب أهل العقول الراجحة. فقال له هؤلاء العرب أهل مروءة ونجدة وشهامة يرضيهم القليل ويغضبهم القليل، وما أظن أنهم يتركون هذا الرجل الذي دخل في دينهم يصل إلى مكروه لو ذهبوا عن آخرهم وأي فائدة لنا ولك والإساءة إلى أضياف الملك».

وفي بلاد «السحرت» يتأهّب أميرها لخدمة الوفد وتسهيل الأمور الأمنية اللازمة لهم يقول «أمر أهل بلاده بالحضور لحمل أثقالنا ثم طلب منهم جيشاً عظيماً لصحبتنا في الطريق لأجل الخوف فحضر منهم نحو ألفي رجل بالحراب والخيل وتوجّهنا من بلاده».

ويمضون في ركبهم مع الحرس والعناية التامة حتى يصلوا إلى بلدة

تسمى «ابرقلى» يقول «وهي بلاد وعرة وجبال عالية وأوهاط منخفضة فتلقانا أمير هذه البلاد واسمه «قسطوس» فسارع بتجهيزنا لحقارتها» ويسيرون في جبال ومراحل متعددة كلّها شدّة وجوف ولكنه قد تستوقفه في سيره بعض مشاهد من الطبيعة رآها في الطريق «وجدنا بين هذه الجبال نهراً عظيماً من آيات الله الباهرة وفيه حيوانات البحر العظيمة، ولقد وصلنا إليه وظهر لنا فيه شيء كالقبّة العظيمة بين الماء في جانب النهر فخيل لنا أنها صخرة، فلما وصلنا إليها وجدناها حيواناً ميّتاً يقال له فرس البحر، الله أعلم ما عرض لها فأهلكها، وهي في الكبر والعظم ما لا أعرف لها نظير في الحيوان. وهذا النّهر لا يتمكّن المار من قطعه إلاّ من أماكن مخصوصة متسعة في عرضها ينبسط فيها الماء ثم تكون مستوية لا ينحدر فيها الماء لأنه مع الانحدار تكون له قوَّة، فإذا كان المكان على هذه الصِّفة سلك فيه الماء والماء يتّصل بركاب الفرس السامي ومقدار العرض في قياس مائة ذراع وهذا النّهر ينصب ماؤه في نيل مصر».

ثم يمر على بلاد «الفلاشة» ويصف بعض معالمها فيقول «أولها وادٍ عظيم تحت جبل عالٍ في نهاية السّمو وغاية العلو اسم الوادي «اغنه» والجبل «سمين» وهو أعظم جبال الحبشة ولو أقول أعظم جبال الأرض لم يكن بعيداً لأنه يوجد في كل طريق من طرق بلاد الحبشة وهو شديد البرد لا يعرف مثله في شدة البرد لا يبرح الماء جامداً شتاءً وصيفاً».

وبعد مشي متواصل يصل إلى بلاد الأمحرة قاعدة المملكة «وكان سيرنا في بلاد الأمحرة قدر اثنتي عشرة مرحلة» ومن الغريب أنهم بعد سيرهم هذا يقفون على قرية كل أهلها مسلمون «فيها مسجد ومكتب لتعليم صبيانهم القرآن فاستأنسنا بذلك غاية الاستيناس وسررنا به أكمل المسرّة بحيث أنه سرى عنّا ما ثقل على قلوبنا مما قد قاسيناه من سوء مخالطة الكفَّار والنظر إليهم وإلى منكراتهم».

وهنا نكتة يجب الإشارة إليها تدلّ على ورع المؤلف وقوة دينه وهو أنه

كان يتجنّب طعام هؤلاء النَّصارى بما أعده من الدَّقيق الذي يطحنه المسلمون «أما بقية المصاحبين فإنهم اضطروا إلى أكل طعامهم المصنوع وللضرورة أحكام».

وفي القرية التي سكانها من المسلمين تبدّل بعض عبارات الإمام في رسالته إلى ملك الحبشة التي توحي بدعوته إلى الإسلام خشية أن يستميل قلب الملك إلى الدين الحنيف وذلك بعد أن جاء الحاج سالم بن عبد الرحيم من مسلمي الحبشة مبهوتاً «خائفاً مرعوباً» لما يتوقعه من الشر من دهاقنة الملك وقساوسته «وقال لي: انظر في كتاب الإمام وتحقق ألفاظه فإن وجدت فيه ما تخشى عاقبته أصلحته وحولت عبارته وقلت له ما شئت فإنهم قوم لا يفقهون فأعدت النظر في الكتاب وهو غير مختوم، فإذا فيه من الكلام ما يجد له عذراً».

ويصف المؤلف نصارى الحبشة عموماً فيقول: «ليس فيهم شيء من المروءة ومكارم الأخلاق التي لا يمنعها شؤم الكفر ولا تخلو ملّة من الملل من الاتفاق على أنها من صفات المحامد، أما هؤلاء القوم فرأيناهم من اللؤم وشدة البخل كأنهم جميعاً أخلاق رجل واحد» وقد أدرك هذا فيهم تجربة فمن ذلك أنهم تركوا ضيوفهم جائعين لا يجدون ما يسد رمقهم يقول: «فمن جملة لؤمهم أنا بتنا في هذه القرية طاوين عن الطعام».

بين يدي الملك

قبيل مقابلة الملك بعث رحالتنا إلى الملك رسولاً يعلمه بوصوله فلم يأتِ جواب الملك إلاّ بعد يومين «لبعد منال الملك وصعوبة الاتصال وسوء معاملة وزرائه وأعوانه» فيأمرهم الملك بدخول المدينة والمبيت عند بعض الوزراء وذلك في سلخ صفر سنة ١٠٥٨ ولنترك المؤلف يصف لحظة دخوله قاعدة الملك وحال الناس في استقباله.

«مررنا بأزقة المدينة وقد اجتمع فيها جموع النَّصارى الذكور والإناث

على قواعدهم في عدم حجاب النساء ما لم يعلم قدره إلاّ الله ولا يحصي عددهم سواه، وذلك لما توفرت دواعيهم واشتدّت رغبتهم إلى نظر هؤلاء العرب الوافدين وكونهم شكلاً غريباً وأمرهم عندهم عجيباً».

وفي بيت الوزير تصلهم الضيافات الجزيلة «طعاماً مصنوعاً وعسلاً كثيراً وغنماً وكل رجل بما تسنَّى لديه وبحسب حاله». ومن الطَّريف أنهم أصحبوا هداياهم تلك خمراً على اعتقاد أنهم ممن يجوز شربه، يقول: «وخلطوا في هذه الضيافة من دنان الخمر العظيمة ما يحسبونه من كمال الضيافة فأشار إليهم الحاج سالم بن عبد الرحيم رسول الملك أن يرفعوا ذلك وبين لهم حكمه في دين الإسلام فسارعوا برفعه».

وفي الصباح يستدعيهم الملك لمقابلته وقبل الوصول إليه يصف رحالتنا قلعته وما شاهده من آثار تدلّ على الملك «فتقدمنا إلى قلعة الملك وأشرفنا على دار عالية وبنية سامية من أعجب المباني الباهرة، وأحسن العجائب الفاخرة مبنية بالحجارة والنورة وليس في تلك المدينة بل ولا في أرض الحبشة غيرها فهي من أكمل منظر وأجمل صورة وسائر البيوت في تلك الديار جميعها إنما هي أعشاش من نبات الأرض».

ويصف مقعد الملك بأنه «يشتمل على دور عديدة وساحات مديدة وحول هذه الدار مبانٍ أخرى أرضية متّسعة الأطراف في الطول والعرض والسّمو سعة، ما رأته العين في شيء من المباني وهذه الأماكن معدّة لقعود الملك فيها، وفي كل مكان منها ما ينبغي أن يهيأ به من الفرش الرومية المنوعة ومطارح الهند التي هي بالذهب ملمعة، والأسرة الفاخرة التي هي بالحلية والجواهر مرصّعة».

وها هو صاحبنا يفد على الملك وقد انتظم في حاشيته بأبهة الملك يقول «ولما وصلنا إلى الملك وقد انتظم مجلسه في تلك الدار وتهيأ أهل الحضرة من الوزراء وغيرهم بأفخر هيئة وأعظم أبهة حيث لبسوا مطارح

الديباج المطرزة بالذهب ومطارف الحرير . . وجعلوا في أوساطهم مناطق الذّهب المحلاّة بالفصوص الفاخرة ونفيس الجواهر» ويطنب في وصف هذه الأبهة الظاهرة ويراها مما عجله الله له من النعيم في الدنيا يقول وهم مع ذلك أوتوا من «بسطة الأجسام وألـوانهم غير مشوهة بـالسَّواد الفـاحم ورؤوسهم مكشوفة عن الشعر الجعيد الناعم وفي أيديهم أساور الذهب وفي آذانهم الأقراط المتلألئة كاشتعال الذهب» إلى غير ذلك وهم ليس لهم من الأمر إلاّ هذه المظاهر الخادعة «وما سوى ذلك من الكمال فعراة» وهكذا يكون المؤمن لا يغرّه المظهر الخارجي دون الاستيطان إلى الداخل وكـان صاحبنا رحمه الله يطمع في أن يتقبّل من يديه نشر الدعوة إلى الله وقد نزل الملك عن كرسيه إجلالاً للوفد القادم وكان بجانبه ترجمان يقول عنه أنه شريف حسيني من بخارى «وهو مـلازم حضرة الملك قد سلب الإيمان واستحوذ عليه الشيطان وسلك مساخط الرَّحمن فهو شيطان مريد» وجرت بينهم وبين الملك مناقشة حول المهمة التي جاؤوا من أجلها ثم سألهم «أي محل تريدون النزول منازل النَّصارى أم في منازل المسلمين وهناك حافـة للمسلمين مخصوصة محصورة في جانب من المدينة فقلنا له منازل المسلمين أولى بنا».

وفي الاجتماع الأول لم تقدم هدية الإمام إلى الملك ولم يقرأ كتابه بعد فعند عودتهم إلى الموضع المخصص افتقد صاحبنا ما معه من هدايا ورسائل حتى حان موعد اليوم الثاني فتوجَّه الوفد إلى الملك «واستأذنا في الدخول فأذن وتوجهنا ووجدنا حضرته كما كانت بالأمس فدفعنا إليه الكتاب فقرأه الشريف الترجمان جهـراً يسمعه أهـل الحضرة وعبَّر عنـه بلسانهم الـذي يعرفونه ثم سلمنا الهدية بأعيانها شيئاً فشيئاً حتى أتينا على آخرها» وبعد انتهاء المقابلة عيَّن الملك من يعنى بأمرهم ويرفـع حوائجهم إليـه، وكان الوزير «حواريا» هو المكلف بهذه المهمّة يقول «ثم انصرفنا من حضرة الملك وقد أمر ذلك الوزير أن يجري علينا من النفقة وتوابعها ما يقوم بكفايتنا»

ويرصد رحالتنا هذه النفقات بالتّعيين فيقول «أجرى علينا من القوت في كل شهر ثلاثين حملاً من الحنطة وأربعين رأساً من الغنم وأربع رؤوس من البقر وعشرين جرة من العسل، وست جرار من السمن واستمر ذلك كل شهر».

كل ذلك والمؤلف رحمه الله في شغل شاغل حتى يفضي إليه الملك بالسرّ الذي جاء من أجله وهو إعلان الإسلام والدّخول في الدين الحنيف، ويأتي ذلك اليوم الموعود وقد استدعاه الملك:

«وأمرنا أن نقلّل من الجماعة المصاحبين فعلمنا أنه يريد ذلك الموقف الذي يكون فيه كشف السرّ الذي إليه يساق الحديث فتوجّهنا إليه وصحبنا من جماعتنا غير أنهم بعد وصولهم حضرة الملك خرجوا من عندنا ووقفوا في حجرة الدار ولم يبقَ في حضرة الملك ومن وزرائه غير ثلاثة من كبارهم».

يقول رحالتنا وليس هناك حفظ للأسرار عندهم ولا احتراس على صيانتها وإنما استخفى بقية الوزراء في موضع من الدار وظلّوا يسترقون السمع، وكان الحاج سالم المشار إليه سابقاً هو المترجم عن أصحابنا، وقد أفضى الملك بمكنون سرّه «وأعلن بما كان أضمره في صدره حتى أتى على آخره» وهذا السرّ لم يفشه المؤلف حتى في رحلته هذه وأظنّه يتعلق بخيبة أمل الوفد في قبول الملك للدعوة المبلغة إليه يقول المؤلف «وقد جاريناه في ذلك المقام بما يليق بالحال من ترويج الكلام وتلقى ذلك الحديث بالإكرام» وينتهي رحالتنا الحيمي رحمه الله بالقناعة التامة واليأس من قبول هذا الملك للدّعوة التي وُجّهوا من أجلها «فأعرضنا عنه صفحاً وسدلنا دونه ثوباً وطوينا عنه كشحاً».

وبعد هذا الموقف يبقى من حديث الرحلة أمور المشاهدة والفرجة وقد وصلهم أحد تجار اليمن بجهة مصوع بجملة من أخبار اليمن «فسرّنا ذلك غاية المسرّة» واغتنم أصحابنا الفرصة بوجود هذا التاجر وتعريف

الإمام بتمهيد طريق العودة إلى اليمن عن طريق (مصوع) وأن «يكتب إلى باشة الأتراك هنالك من يستأمن لنا منه» وذلك أن العودة من الطريق التي جاؤا منها غير ممكنة لاكتنافها بالمخاطر العديدة، ومن حسن حظّ الوفد أنهم صادفوا وجود قادم من (سواكن) من جهة الباشا، وقد وصف رحالتنا هذا القادم بالنّسك والصّلاح وحفظ القرآن والمشاركة في الأدب ومعرفة التاريخ يقول المؤلف «وقد روح عنّا بأدبه وانكشفت عنا غيابات الكروب» ثم يفضي الحيمي إلى هذا المندوب الأريب الأديب أمر الخروج من جهة مسوع وكأنه قد عقد صداقة متينة معه أدّت إليها توافق الطباع وقد أفضى إليه هـذا المندوب بدوره بسر خطير مضمونه أنه لم يصل إلى الحبشة إلاّ للتجسس على حال هذا الوفد بعد أن علم باشة سواكن بخبر بعثة الإمام إلى الحبشة «فإن محمد باشة صاحب سواكن لما بلغه بدخولكم من جهة (بيلول) أقعده ذلك وأقامه فتوصَّل إلى إدراك حقيقة هذه الأخبار بما تراه من وصولنا بهذه الهديّة المضمر في طيّها استكشاف هذه الخبيّة» وقد تحقق مندوب الباشا بأن غرض هذه البعثة تبليغ الإسلام إلى ملك الحبشة وليس لها هدف عسكري أو استعماري، وهنا يطمئن المندوب رحالتنا بأن عودتهم من جهة مسوع من الممكن تحقيقها.

وقد أدرك رحّالتنا بعد ذلك أن الغرض من استقدام وفد اليمن إليه ليس كما فهمه الإمام من رغبته في الإسلام وإنما كان يريـد فتح طـريق للتجارة من جهة (بيلول) وهي غير الطُريق التي تمر عن المناطق التي يستولي عليها الأتراك لما يلقونه من مشقة وتحكم في أموالهم يقول الحيمي «وربّما كان هذا هو ضميره المستكن من هذه المواصلة بينه وبين الإمام فإنه يعلم أنه لم يتم له فتح الطريق إلاّ بقوة وعناية من وجوه عدة من جملتها معاودة الـرسل من قبـل الإمام في هـذه الطريق فـإنهم مع قـوتهم بمعـونـة الله واستصحابهم البنادق يسير معهم كثير من أهل التجارة دخـولاً وخروجـاً فتسهل أوعارها ويتيسر حزانها وتتقلل أخطارها».

وهكذا تتضح نية الملك من استقدام الوفد وقد صح العزم من قبل مندوب باشة سواكن على خروجهم إلى اليمن عن طريق (مسوع) ولم يبقَ إلاّ استئذان الملك بذلك لأجل الموافقة ومن الغريب أنه ما كاد صاحبنا الحيمي يبعث بترجمانه إلى الملك بغرض هذه الموافقة حتى يوافق على هذا الطّلب على الرَّغم من تعارضه التام لمطلبه الأساسي. حتى أن رحالتنا يعلل هذه الموافقة بأنه ربما كان في «تلك الحال وهو متغيّر بسكر ونحوه وعلى غير ثبات من أمره».

وقد ندم الملك غاية النَّدامة على استجابة طلبهم وظلَّ يصعّب الأمر عليهم بذكر المخاوف التي ربّما تعترضهم بقوله «مروركم من جانب الأتراك لا سبيل إليه ولا يمكن أن يكون ذلك فإنهم أعداؤنا وأعداؤكم ولا أمان لهم» وهنا تتجلَّى الوحدة الإسلامية عند صاحبنا في إجابته على هذا الملك النصراني بقوله «أما عداوتهم فلا نكرها وأما الغدر منهم فلا نظن ذلك فيهم ألا ترانا دخلنا بلادكم ووصلنا إليكم بمجرد كتاب منكم وأنتم مخالفون لنا في الدين والملة فأنتم على دين النصرانية ونحن على دين الإسلام، وأما الأتراك فهم على ديننا وملتنا، وكتابهم كتابنا ونبيهم نبيّنا فكيف لا نقبل منهم الأمان».

وظلَّ الملك يثنيهم عن عزمهم في العود إلى الوطن عن طريق (مسوع) حتى يئس منهم. وبعد ذلك أشهد عليهم أنه بريء مما قد يحدث لهم في هذه السّفرة يقول الحيمي «فوضعنا له شاهداً وقبضه منا وقد أشهدنا فيه على أنفسنا».

وقبل أن نصحب رحَّالتنا في طريق العود نقف عند بقية المشاهد التي رآها الحيمي بأرض الحبشة وقد أحب أن يدرجها هنا، فهذه الطبيعة الثائرة والأمطار المستمرة مما يتميّز بها بلد أفريقي كالحبشة يقول «يعتادون فيها توالي الأمطار واتصال ذلك في جميع ساعات الليل والنهار فيستمر مطبقاً أربعة أشهر لا ينقشع سحابه ولا ينقطع في تلك الأشهر ودقه وانصبابه».

حتى أنهم ليعدّون كثيراً من ذخائر النفقات وما يتبعها من القوانين والمصروفات قدر كفاية أيام الإطباق لما يحصل من احتباس الناس وانقطاع الأسواق» ومع كثرة الأمطار وتواليها تتغير الطبيعة وتتحول الأرض إلى قطعة خضراء مزهرة بكافة الأزهار يقول «ولقد رأينا في هذه الدِّيار مع تلك الأمطار يظهر للعيون بأعجب ما يراه الراؤون من حسن خضرتها وكمال نضارتها سهلها وجبلها. وتزهر مع ذلك بأنواع الزهور البرّية بلون الخضرة الزبرجدية والحمرة الوردية والصُّفرة العسجدية. وقد يأخذون من هذه الزهور المذكورة ويتخذون منها صبغاً عجيباً يحبسونه بشيء من الممسكات ثم يصبغون به الثياب، وفي شيء من البسط بنسبة البسط الرومية فيكون صبغاً رائقاً ولوناً مناسباً».

ومن غرائب ما رآه في تلك البلاد الأمطار النارية وقد نقل هذا الخبر رحالتنا شفاهاً لصديقه العلامة أحمد بن صلاح بن أبي الرجال وأورده هنا في رحلته يقول:

«ومن عجائب ما يذكر أنه قد يتفق في هذه أيام الخريف في تلك الدِّيار نزول نار من السّماء يرونها كالدّخان العظيم المجتمع في جو السماء تركمه الرّياح بعضه على بعض ثم ينزل مجتمعاً وهم يرونه بأعينهم حتى يقع على الأرض فإن أصاب بيوتاً أحرقها وإن وقع على نفوس أهلكها».

العود إلى اليمن

كانت هذه الحوادث تقع في أيام الخريف وقد كان وجودها سبباً في تأخير عزم أصحابنا والإسراع في العودة مع مماطلة الملك في عدم السَّماح لهم، يقول رحالتنا «ولما انقضت أيام الخريف رجَعْنا إلى مذاكرة الملك ومطالبته في شأن السَّفر والحث له على الوفاء فرجع بنا بالمماطلات الكذبيّة والمواعيد العرقوبية» وأنهم لا يرون في الخلف بأساً وقد لقي منهم المشقة الكبرى في سبيل الوفاء بمواعيدهم «وغالب أحوالهم أنهم يعدُّون الكذب

شعاراً ودثاراً ويتعاملون به ولا يرونه عاراً ولا بواراً» وتتكالب الهموم على صاحبنا وجماعته بعد أن لقي المضايقة الشديدة من أتباع الملك، ووزرائه منها محاولة إحراقه وجماعته ومنها توقع الحبس في هذه البلاد وحتى لو تم لهم الخروج عن طريق مسوع «فنحن غير آمنين من مكرهم ولا واثقين بأمانهم لما هو الغالب من نكثهم وغدرهم فالتبست الأمور علينا كقطع اللَّيل المظلم فلم نجد ملاذاً ومعاذاً غير الالتجاء إلى الله عزّ وجلّ والتمسك بـدرس القرآن» وفي خلال هذه المدة يرى رحالتنا منامات مبشرة تهدّي من روعه، وقد أظهر خلال هذه الفترة الحزم والصّلابة أمام هؤلاء ومواجهة كل مكروه بأنفسهم «وكنا خلالها من النجدة والصلابة ما ألقى الله عز وجل في قلوبهم الجلالة والمهابة وكم أعد من الأشياء التي يحاولون أن يدركوها منا فيظهر لهم العجز ولا يمكن أن يقال أنهم يتصاغرون إكراماً لنا فقد عـرفنا من حالهم خلاف ذلك وإنما هممهم قاصرة».

وبعد كل هذا لم يرَ أصحابنا التَّسـويف في أمر العـزم والعودة إلى أرض الوطن من الحسن فيجددون الاستئذان من الملك، وقد أذن لهم بعد أن وجَّه معهم ثلاثة من كبار رجال حضرته برسم الخدمة لهم وقت الطَّلب «وجعل لكل رجل منهم مسافة معلومة» وآخيراً «توجَّهنا من حضرة الملك في آخر شهر ذي القعدة الحرام من عام ١٠٥٨» وهم في سيرهم المتواصل وقد كثرت أثقالهم يجدون مشقَّة في الحصول على القوت بالرغم من أمر الملك باستضافة السكان لهم فلم يكن بأيديهم إلا استعمال القوة أحياناً يقول «وقد حاول أهل قرية الامتناع بالهرب فأمرنا نساءهم بالحمل وأجـبرناهن عـلى ذلك فلما عـرفوا صـدق العزيمـة رجعوا إلينـا مغلوبـين مقهورين».

ويمضي بهم السير مراحل متعدّدة حتى يصلون إلى مشارف دوباروى بالقرب من مسوع «وأقمنا في بلد دوباروى قدر اثني عشر يوماً نصلح ما نحتاج إليه من أمورنا لقطع المفازة من دوباروى إلى مسوع وكانت القاعدة

المتعامل بها أن القوافل ما تسير من دوباروى إلاّ مع صحبة من السحرت» وصادف أثناء وجودهم في تلك البلدة أن عزل حاكمها فلم يتأت لهم الحصول على المرافق يقول «وكان من الامتحان أن وقع عزل الأمير صاحب دوباروى مع وقوفنا فضاق بنا الحال والجأنا تضايق الأمور إلى سرعة الارتحال» فما كان منهم إلاّ العزم بغير صحب ولا دليل متوكلين على الله ويحثهم على السرعة علمهم بوصول مندوب من قبل الإمام إلى (سواكن) ليأخذ لهم الأمان من باشتها بالمرور من مسوع، وهكذا كان عزمهم في تلك المفازة الخطيرة وقد علم بهم جماعة من بدو النصارى فحاولوا أن يتقطعوا لهم في الطريق «وقد طمعوا فينا لما بلغهم انفرادنا» أما أصحابنا فلم يعقهم هذا عن مواصلة السّير متوكلين على الله وقد بعثوا قبلهم رسولاً يعلم حاكم مسوع مما انتهى أمر أولئك البدو. حتى إذا حاذوا الموضع الذي ينتظرهم فيه أولئك، يقول «فلما بلغنا ذلك المحل الذي بلغنا أنهم راصدون فيه رأينا القوم قد اجتمعوا حول «مصرام» لهم كبير جمعاً كثيراً، وقد كنا أرسلنا إليهم رجلاً من المصاحبين لنا من أهل الحبشة يخادعهم في القول ويطمعهم بشيء من المال ويكلمهم أن يصحبنا منهم جماعة من كبارهم إلى المحل الذي نريد النزول فيه تلك الليلة. . ومرادنا بذلك إطماعهم ومطاولة الحديث حتى يرجع لنا الجواب من أمير مسوع».

وكادت مساعي رحالتنا تنجح في إطفاء غضب أولئك البدو وكفّهم عنهم لولا أنه وقع من بعض أصحاب الحيمي ما هيّج سورة أحدهم فثارت حفائظهم، وهنا اندلعت معركة حقيقية بين المسافرين وأولئك وهو أصعب موقف واجه رحالتنا في رحلته كلها ولنترك صاحبنا يصف ما جرى:

«رجعوا على ما كانوا عزموا عليه من العدوان فتركونا حتى تولّينا عنهم قليلاً ثم صرخ صارخهم واحتملوا علينا من جهة اليمين والشمال ونظرنا ما حولنا من الجبال فإذا هي تسيل بالرّجال فلما اتصل أوائلهم يتذامرون ويتعادون كأنهم السباع الضارية فرمونا بالحراب من أيديهم

ودفعوها دفعاً تعدّى حد تعديهم فأصابوا منا رجلاً ووقع في فرس من خيلنا حربتان فرمت عليهم البنادق وبأيديهم أتراس متسعة تستر جميع أبـدانهم فهم يظنّون أنها تدفع عنهم رمي البنادق فوقعت رمية في أحدهم فحرقت ترسه وأصابته في شقه الأيسر حتى خرقته فألقته على جانبه وأثرت فيه تأثيراً هائلاً أرهبهم وأرعبهم فانكسرت سورتهم ومالوا عنا حتى لذنا بأكمة عالية وجمعنا فيها أثقالنا ثم أمر العسكر أن يقفـوا بالبنـادق على أطـراف تلك الأكمة، وقد أحاطوا بنا من كل جانب».

وهكذا هدأ الموقف قليلاً وبينما هم محيطون بهم من كل جانب رأى رئيس البعثة رحالتنا الحيمي أن يستعمل الطرق السلمية حيث أن القوة لا تنفع هنا لكثرة العدو «فإنهم قد بلغوا نحو الخمسمئة رجل أو يزيدون على ذلك سوى من جاء إليهم من آخر ذلك اليوم فإنهم بلغوا جيشاً عظيـماً وعدداً كثيراً» ورأى أن يتصرف بلباقة فاستعان بالمندوب الذي فاوضهم أول مرّة وخاطبهم بأنهم إذا كان مرادهم شيئاً من المال فلا بأس بذلك، وقال له «أخبرهم عنّا أن الموت ليس بيسير وأن الهالك منهم العدد الكثير» وأخيراً اتفق الرَّأي على أن ينزل أصحابنا إلى بلدهم وأن يأخـذوا عليهم عهداً بعدم العدوان، وهناك يقع الإصلاح ويتم تسليم المال إليهم يقول «فرجعنا معهم إلى بلدهم ونحن مع ذلك غير واثقين، وجاء إلينا كبارهم يخوضون معنا حتى أصبح الله بالصّباح ونحن نحاورهم ونجاهد مشقّة السهـر مع خوف الغدر فإنهم مع ذلك قد أحاطوا بنـا من جميع الجـوانب وأشعلوا النار».

وبينما هم في ذلك الحال الذي لا يحسد عليه يأتيهم أخيراً فرج الله ويبعث أمير (مسوع) بالنَّجدة «وخرجت العسكر نحو مئة نفر فيها خمسون بندقاً» فلما علم أولئك البدو بما انتهى إليه الحال بدّد الله شملهم وتفرقوا عنهم، وكان هذا من الفرج بعد الشدة ومما زادهم تخاذلاً أن وصلهم جماعة

من أعدائهم فوقعت بينهم معركة «فاقتتلوا قتالاً شديداً ثم كانت الدائرة على الباغين علينا».

وبعد وصول العسكر تهدأ النفوس ويطمئن الجميع وقد أمنوا من الشّرور فيذهب الجميع متوجّهين إلى (مسوع) «فسرنا بقية يومنا ذلك وفي اليوم الثاني دخلنا بندر مسوع وقت انتصاف النهار فتلقانا النّائب بأحسن كرامة».

وفي (مسوع) يمكث الجميع نحو ثمانية أيام ريثما تهيأ أمر السفر بالبحر ثُم يستقلون بعد ذلك ثلاث سفن تتجه بهم إلى ساحل اللّحية من بلاد اليمن وفي الطَّريق يمرُّون على جزيرة دهلك فينتظرون بها ثلاثة أيام حتى تتيسر لهم الرِّيح المواتية «ثم بعد ذلك تيسرت الريح المناسبة فتوجهت الجلاب «السفن» قاطعة عرض البحر من جهة المغرب إلى جهة المشرق» وهناك في البحر تنتظرهم مفاجأة حيث يتغير عليهم البحر ويشرفون على الموت ولنترك رحَّالتنا يصف هذا الأمر المهول «عزم ربان الجلبة على السفر ليلاً ونهاراً ومع الاقتداء بالنجوم التي يهتدى بها في ظلمات البحر والبر فسافرنا ذلك اليوم واللَّيلة التي تليها واليوم الثاني إلى وقت العصر، ثم طلع علينا من أمامنا من جهة (اللحية) سحاب متراكم وثار مع ذلك الريح العاصف المهيج موج البحر المتلاطم، فما زال يقرب منا فإذا البحر قد اضطربت أمواجه وماجت جوانبه وأمطرت السَّماء بما شاء الله أن تمطر فاجتمع هول المطر مع هول ذلك الريح الذي صرنا معه إلى أعظم الخطر وأهل الجلبة يعالجون أعمالها ويتفقدون أحوالها، وهم ينتظرون انفراج تلك الشدة في أقرب مدّة حتى ضعفت قواهم وتفاقم الأمر وعظم الحادث فصارت الألسنة بالدّعاء إلى الله عزّ وجلّ والتوسل بكل ذي حق عليه أن يفرج عنَّا ذلك الهول الأهول، ودام علينا ذلك المطر تلك الليلة مع اليوم التالي لها مع الليلة التي تليه فكان دوامه ليلتين ويوماً».

ومع هذه الشدة التي لا ينساها مؤلف الرحلة رحمه الله تقع لهم

حادثة تزيد من الموقف صعوبة، فقد أراد ربّان المركب أن يخلص السّفينة من زورق ملحق بها، وقد امتلأ بالماء فلما «وثب منها إلى الـزورق رسب الزورق في البحر وتعلق الربّان بجانب السفينة وصرخ بصوته إلى أصحابه يستنقذونه فلم يجبه أحد لما نزل بهم من الأهوال وأصابهم من ذلك الحادث الذي سلبهم الحركة فوثب إلى ذلك الربان رجل من أصحابنا فتناوله إليه وأطلعه وقد أشرفت السفينة على الغرق بسبب جذب ذلـك الزورق لهـا فأخذ ذلك الرجل من أصحابنا سيفه وقطع حبل الـزورق فانفصـل عن السفينة وذهب في البحر» وهكذا أنقذ الربّان والموقف ذلك الرجل المقدام من أصحاب رحالتنا الحيمي، في حين وجم مساعدو الربان وتخاذلوا عنه. ولما وصل الربّان المذكور إلى السّفينة أمر ركـاب السفينة بـأن يخففوا من أثقالهم «فألقوا في البحر ما وقعت أيديهم فيه حتى حصل التخفيف» ولم يبقَ أمام الركاب وهم في هذا الحال إلاّ اللجوء إلى الله «ففزعنا إلى الـدّعاء والتوسل إلى العلي الأعلى، وقد بلغ بنا الحال إلى ما يعلمه إلا ذو الجلال والإكرام. . . حتى انفرجت عنّا الشدة وقد أيقنا بحصول البأس وضاقت النفوس حتى كادت تخلد إلى اليأس» ثم تمشي بهم السفينة في ريح رخاء مقدار يومين حتى يصلوا مرسى اللحية والحمد لله على السلامة والألطاف.

العيدروس في مصر

لم يعرف لأهل اليمن الرحلة في شيء مثل ما عرف لهم الرّحلة في طلب العلم ونشر الإسلام. وكان أجدادهم الأوائل يفخرون بنشر الإسلام في أصقاع المعمورة وطلبهم للعلم والأخذ عن الشيوخ ومنهم من يـذكر لـه المثاغرة والرباط في سبيل الله وهذا معروف مشهور.

وإنما عرفت لهم رحلات أخرى يمكن أن يُطلق عليها اسم الرحلات الأدبية كان أشهرها رحلة عمارة اليمني وأخرى ليست بالمكانة والشهرة هي رحلة العلامة الأديب عبد الرحمن بن مصطفى العيدروس وقـد دوّنها في ديوان شعري أطلق عليه اسم «تنميق السفر» وقد أتى خبر الرحلة متفرقاً هنا وهناك في ذلك السّفر الكبير.

العيدروس

ولد الأديب العلامة الصوفي الكبير عبد الرحمن بن مصطفى بن شيخ العيدروس بمدينة تريم من حضرموت سنة ١١٣٥ هـ وتخرج على جلة علماء عصره في ذلك الوقت وسار مع والده إلى الهند سنة ١١٥٣ هـ ونزلا أولاً ببندر الشحر فأخذ عن السّيد عبدالله بن عمر المحضار العيدروس وأجازه إجازة مطلقة ووصلا بندر (سورة) ومدينة بروج من الهند فزار العلامة أحمد ابن شيخ العيدروس وبعض علماء الهند كالعلامة محمد فاخر العباس وغلام حيدر الحسيني وغيرهما ثم رجع إلى اليمن فدخل تريم وسار منها إلى مكة للحج وأخذ عن الشيخ محمد حيوة السندي وأبي الحسن السندي والسيد

جعفر بن محمد البيتي وغيرهم وزار الطَّائف واجتمع فيها بالشيخ عبدالله الميرغني وفي سنة ١١٥٨ سار إلى مصر فهرعت إليه الأكابر والعلماء ثم عاد إلى مكة سنة ١١٥٩ وسكن الطائف ثم رجع إلى مصر سنة ١١٦٢ فمكث بها عاماً ثم عاد إلى الطائف، وفي سنة ١١٧٤ عاد بأولاده إلى مصر فاستقر بها ثم رحل إلى دمشق سنة ١١٨٢ ونزل بدار المولى حسين المرادي فأكرمه، يقول صاحب سلك الدرر وكانت أيامه بدمشق مواسم أفراح ولم يلبث إلاّ قليلاً، وعاد إلى مصر سنة ١١٩١ وارتحل إلى الدِّيار الرومية فدخل قسطنطينية، وصار له هناك اعتبار وإقبال ورتب له بعض المرتّبات بمصر وغيرها، وعاد فخرج إلى ساحل (صيدا) واستقبله واليها الوزير أحمد باشا الجزار إذْ ذاك ورجع إلى مصر، يقول في وصفه مؤرّخ مصر العلامة عبد الرحمن الجبرتي «شيخنا الإمام القطب أبو المراحم نزيل مصر هرعت إليه الفضلاء للأخذ والتلقي، وصار أوحد وقته وخضعت له أكابر الأمراء، وصار مقبول الشفاعة عندهم وطار صيته في المشرق والمغرب، وتعددت له رحلات وكان مدة مكثه في الهند عشرة أعوام وحج سبع عشرة مرة. وسافر من الحجاز إلى مصر ثلاث مرَّات والى الصعيد ست مرات ودمياط ثمان مرات. توفي رحمه الله سنة ١١٩٣هـ.

كتابه تنميق السفر

مما تقدم في ترجمته نعلم أننا أمام رحَّالة من الدَّرجة الأولى فقد مارس الأسفار منذ نعومة أظفاره وطاف بالأقطار شرقاً وغرباً حتى حق له أن يطلق اسم الرَّحالة المحترف، وهذا الدِّيوان الذي أطلق عليه اسم «تنميق السفر فيما جرى له بمصر» ثمرة من ثمرات تلك الأسفار التي غَذَّاها بالمساجلات والمطارحات الأدبية حتى أتى ما حواه مادة دسمة تستحق الإفراد بالتأليف، فكان هذا الكتاب وقد صدّره بمقدمة قال فيها «لما كان العبد تقلّبه يد الرحمن حيث شاء لا حيث يشاء وهو تحت حكمه في جميع أحوال الإقامة

والممشى وحدا بنا حادي السرى من أم القرى إلى الديار المصرية والأماكن التي هي بالفيوضات حرية لتتشرف الأشباح الحسية بالأرواح القدسية. وركبت إليها الفلك معتمداً على مالك الملك، أردت وهو المريد أن أنمق الأسفار ببعض ما أجراه الولي عن ولي في هذه الأسفار وذلك لا على سبيل التطويل والإكثار وأكثر ذلك من النَّظم الذي فيه راح نظم الأرواح المنثور على نظم هذه الأشباح» فهذه المقدمة توحي لنا أننا أمام نمط آخر من الرَّحلات يعتمد في الأساس على الحوار والمساجلة الشعرية وهذا ما نجده في كتابه هذا. على أنه قد أفرد شيئاً مما جرى له في أسفاره غير سفره إلى الديار المصرية بديوان آخر طبع سنة ١٣٠٤ مع كتابه تنميق السفر نستطيع أن نستعلم منه أنه في نفس موضوع الدِّيوان المذكور حيث جعله فيما جرى له في أسفاره من أخبار أدبية شعرية يقول في أوله «فإنه لما رماني البين بسهام الاغتراب وفارق بيني وبين الأهل والأحباب، ففارقت أوطاني وغصن الصّبا إذ ذاك طالع وحنيني لها حنين الطفل وقد حرمت عليه المراضع وقد قيل أهنى العيش ما كان في الوطن والنعيم المقيم إنما يكون في الأهل والسكن».

وقد أثار فيه عامل الغربة لواعج الحنين إلى وطنه فهو لا يفتى يذكر أيامه الأولى. ومرابع خلاته في العديد من أنماطه النثرية والشعرية يقول في بعضها وقد ذكر مربع أحبابه بلد تريم الغنا «كيف تلك الروضة الغنا والحديقة التي صدح بها بلبل سعدى وغنا أول أرض مسّ جلدي ترابها وغذاني بدر الآداب والعلوم أترابها. . . ذات النَّخيل الباسقة، والمياه الجارية والحور والولدان الباهية والأهوية العذبة والسادة والأحبة. . . وحيث تركني البين عنهم مشتتاً. وصار حالي لفراقهم كحال العاري وقت الشتا» فهذا حاله في غربته وحنينه إلى وطنه وقد جعل من التدوين تسلية يمنّي بها نفسه عن شوقه وهيامه يقول «وعند الضرورة يعتاض تمايل الأغصان بالنسيم عن الهيف ويقتنع لفقد محيّا الحبيب بالبدر على ما فيه من كلف

أردت أن أسلي قلبي المذبذب وأروح روحي المعذب بتنميق الأسفار عما حضرني الآن فيما جرى في هذه الأسفار مع إخوان الأدب الذين اجتمعنا بهم في هذا الارتحال».

فكتابة الرحلة عنده ثمرة من ثمرات الحنين إلى الوطن يتسلّى بها عن الشوق إلى الأهل والمرابع فكان هذا الخلط والجمع بين الأدب والرحلة إذ أنت لا تقف على رحلة تتوفر فيها شروط هذا الفن وإنما هي نتف هنا وهناك يرصد فيها ما جرى له مع الإخوان وإن كان الغالب عليه طابع الجمع الشعري البحت.

نعلم من رحلته إلى الهند قوله «لما كنت في بندر سورت المحروس بمظهر القطب العيدروس أنشأت قصيدة رائية في بعض مراسلاتي لبعض مشائخي «الأقطاب» الخ. وفي الهند أنشده لنفسه هذين البيتين العلامة الهندي يوسف السورتي:

جـرى الحـب في مـجـرى دمـي ... وجـردت عـني بـذاك الحـبـيـب
فـما كـان بي صـار يـعـزى إلـيـه ... فـمالي سـوى الإسم مني نـصـيـب

يقول «وأشار إلي سلمه الله وأدامه في عافية أن أقول قصيدة تكون مثلها من البحر والقافية فقلت:

بـروحـي فـرد لـعـوب ربـيـب ... مـليـح التثني كـغـصـن رطيـب
محـيّـاه والـقـد مـع ردفـه ... كـبـدر عـلى بـانـة مـن كـثـيـب
وحـسـن الـثـنـايـا وظـلم الـلّمـى ... لآلي الـبـحـار وخمـر الـزبـيـب
يـغـني فـنـدعـوه يـا بـلـبـلا ... ولمـا تمـايـل قـلـنـا قـضـيـب

إلى آخرها.

واتفق له في أسفاره هذه شيء غريب لو سمعناه من غيره لقلنا مما نسبه إليه محبّوه فكيف وهو القائل به والراوي عن نفسه، فقد ذكر أنه كان

في حضرة سماع فغلب عليه الحال مع حضور بعض أهل الإنكار «فاستغثت وأكلت ثلاثة من القناديل وشيئاً من النار» وتلك حادثة غريبة حقاً فكتب إليه زميله الصوفي عبدالله بن إبراهيم ميرغني منكراً عليه إظهار هذه لكرامة إذ مذهبهم إخفاء أمثال هذه الأشياء:

ماذا التَّلاعب للوجيه ... النَّار يأكلها بفيه
وكذا الزّجاج وأكله ... يا ذا الصفا لا خير فيه
ليس الكرامة عندهم ... غير استقامة يا نبيه
فأصخ لنصح قد أتى ... من ذي وداد في أخيه

فكتب إليه صاحبنا معتذراً:

مولاي تسفيه السَّفيه ... قد أوقع العبد الوجيه
حتى جرى منه الذي ... أهل العلا ما ترتضيه
والعفو من مولى العطا ... يرجوه في ما قد لقيه

وقد جرت له بالطائف أشياء من هذا القبيل تجدها في ديوانه.

في مصر

حُظيت مصر بالجليل من أدب رحالتنا العيدروس فهو من المعجبين بها بدليل كثرة تردده عليها وإقامته فيها حتى أدركته المنيّة، وقد كان همه الأول من رحلته إلى مصر زيارة المشاهد والتبرك بآثار الصَّالحين، ومن الطّريف أنه استقل في السفر إليها مركباً كثر فيه البق والقمل كما هي عادة المراكب في ذلك الوقت حسب قوله، وقد أنشأ وهو في المركب متضجّراً من ذلك القمل:

أيهذا القمل كدّرت المعاش ... كم لنا منك امتعاض وارتعاش
فإلى الرحمن ربي ذي العلا ... قد شكاك الجسم منا والقماش

كم فضـــول فيـك يــأخـــذن الخنـــا ذقـت تشريــداً وقتــلاً وتــلاش (؟)
يـــا لحـــاك الله مـــن جـنس ردى نقشــه في الجسم شرّ الإنتقــاش (؟)
يـــا عـــدو الـدّين والــدنيـا معـــاً انــتزح عـــنــا فــهاذا الاحــتراش
راع قـــومــاً راعـهـم مـــوج طـمـى وأرحنــا منــك يــا بعض القشــاش

وما يكاد يصل بندرُ السويس حتى يسأل عن مشاهدها الصُّوفية فيدل على قبر عبدالله الغريب، وهناك يلقي قصيدة بائية يقول «ولما وصلنا بندر السويس تشرفت بزيارة الولي الكبير عبدالله الغريب وأنشأت بأفواه المحابر والقلم هذه القصيدة:

هــذه دارهـــم وهـــذا الـكـثـيـــب فـعـــلام البـكــاء وهذا الـنـحـيـب
أمـــع الأنس لـــلبـكـــاء مجـــال أم مـــع الصّفـو للخـطـوب خـطـيب
لا تـضيـــع وقـت الـتـهـــاني فـفـيــه حضرت علـوة وغـــاب الـرقـيـب

الــخ.

وفي هذه القصيدة يذكر البحر وتجشمه لمشاق السّفر فيقول:

ركـب الـبـحـــر والــبراري ولـكـــن من عنـــا البحــر جّـن قلب الـلبيب
لـست ممـن يـعــود فـيـــه وإن هـم حسّنـــوا أقـــوالهم وقـــالـــوا ركـــوب
إن في الــبر لــلمـســافــر بــر قـــد تجـلّى اســمـــه المــحـبـــوب
وســبـــوح كـــرًّا وفـــرًّا ســبـوق يستـوي السهـل عنـدهـا والصّعـوب
بـــين كـفـي لجــامــهـــا وهـي تمشي طـوع حكمي فيها الـوطـا مصحـوب
هـي أولى من مــركـب فــوق بحــر خيـفــة مـنـــه يــرهـب المــرهـــوب
قـــلت لمـــا ركـبـتـــه يـــا ابـــن ودي مـــا لجـام لـــه فـقـــال الهـــبـــوب
هـــل تـــراني فـيـــه سـليـمان حـتى كـــل ريـــح أرومــه يـسـتـجـيـب
إن أقـــل يـــا شـمال روح يجـبـني أو أرد ضـــده يجـبـني الجـــنـــوب
لـكـن الحـــمـــد لـلطيـف بـحـــالي حصـــل اللطف زال عنـــا الكـــروب

ومن هذه المقطوعة نفهم أنه لقي مشقة كبيرة في البحر جعلته يفضل البر عليه ويرى فيه الأمان التام للمسافر، ولا يجب أن نستغرب هذا التذمر

والخوف من البحر إذا علمنا حالة المراكب في ذلك الوقت وما يتعرض له المسافر من أخطار رهيبة مرّ بنا بعضها في أثناء حديثنا عن هذه الرحلات وسيأتي الكثير من ذكرها فيما بعد.

وبعد التوجّه من السّويس يصل إلى مصر ويشهد فيها زيارة ضريح الإمام الشافعي ويلقي عنده قصيدة دالية أولها:

بدت طلعة الإقبال من حضرة السعد   وأبدت من الإجلال ما لم يكن عندي

يقول في وصف مشهد الشافعي «وقد اعتنى الدَّهر بهذا المشهد وصار ولله الحمد من أحسن عمارات مصر وعلى التربة رباط في غاية المحاسن. وله زيارة عظيمة في كل ثلاثاء يحضرها غالب أهل مصر من الخاص والعام، ويجعلون هناك حضرات عظيمة من الذكر والإنشادات لأن الضّريح الشريف مبني حوله مسجد عظيم متسع بحيث لا يزور الزّائر ذلك الضّريح حتى يدخل ذلك المسجد وذلك المسجد معروف بالحسنين وفيه جمع من العلماء مشتغلون بالتَّدريس».

وكان لأهل مصر عقيدة في الأولياء والصَّالحين وقد ذكر أنه وقع زواج عند صاحب البيت الذي يسكن فيه «وهو زواج لولده ولم يكن عنده غيره فتوجّه علي بنفسه وبغيره أن أحضر ذلك وأزور سيدي أحمد البدوي في بلاد طنده بعد ذلك ويكون هو صحبي وفي خدمتي وقال مرادي التبرك بحضوركم عندي».

وفي رمضان يتوجّه إلى طنطا «طنده» لزيارة البدوي يقول «وحصل منه القبول والإقبال نفع الله به في الحال والمآل وبالجملة فإنه يحصل للزائر له دهشة وأنس مع هيبة لما يرى على ضريحه من أنوار الجلال والجمال» ثم يتوجه إلى دسوق لزيارة سيدي ابراهيم الدسوقي، وكأن الذاهب إلى بلدته لا يتوجه إليها إلا عن طريق النيل يقول «وزرنا في بلاد دسوق حضرة سيدي القطب سيدي إبراهيم الدسوقي نفع الله به ورأيته رضي الله عنه في

المنام وأنا متوجه في المراكب على بحر النيل لزيارته والحمد لله على ذلك وكأنه لابس جوخاً أخضر فلما زرته وجدت الخرقة التي على ضريحه من جوخ أخضر» الخ.

ثم زار جملة من المشاهد والمآثر كمشهد الحسين والسيدة زينب والسيدة نفيسه يقول «وبالجملة فقد تشرفت بزيارة أولئك الأكابر رضي الله عنهم، وممن تشرفت بزيارته ورؤية ذاته العلية في تلك الديار ولي الله بالإجماع وشيخ مصر بلا نزاع سيدي أبي التخصيص عبد الخالق الوفائي فإنه لما سمع بقدومي شرّفني بوصوله إلى عندي ثم عزمني إلى بيته وكان له شفقة علي جدًّا وله ملاحظة لي ومزيد اعتناء وألبسني خرقتهم».

ومشائخ الصوفية لهم مكانة كبيرة في مصر في ذلك الوقت وهم يمثلون طرقاً صوفية حسب اعتقادهم، وقد زاره جلّهم يقول «ثم جاء إلينا بعد ذلك غيره من أرباب السّجاجيد. وغالب علماء الأزهر أو كلهم وغالب رؤساء مصر وصناجكها[1] وكبارها وتجارها وغالب المذكورين أو كلهم عزموا إلى بيوتهم فلم نتوقف لما يجب من جبر الخواطر».

---

(١) جمع صنجك وهم أصحاب الألوية.

مع الأديب أحمد بن محمد الحيمي في بلاد الشرف

لم تكن للأديب العلامة أحمد بن محمد الحيمي رحلة طويلة خارج بلده اليمن يستحق من أجلها أن يطلق عليه اسم رحالة ولكنه لما أراد أن يخوض في هذا الفن ـ وكان قد شارك في سائر الأنواع الآدبية لم يمنعه هذا أن يدوّن رحلة قام بها من صنعاء إلى بـلاد الشرف كتب فيها بـأسلوبه البديعي التجنيسي ما سمح به قلمه وقريحته الأدبية اللمّاحة.

وفي الواقع إننا إذا قارنا المشاق والصعوبة التي يـلاقيها مسـافر في العصور الماضية من بلد إلى آخر مهما قربا وبين ما يجده المسافر الآن في العصر الحاضر مهما بعدت الشقة، لما كانت هناك مناسبة من حيث صعوبة الرحلة في الماضي وسهولتها في الحاضر لذا فإن العنا الـذي لاقاه أديبنـا الحيمي في رحلته يستحق لأجله أن يطلق عليه رحالة. بل ويستحق جهده التدوين والنشر.

أحمد بن محمد الحيمي

هو الأديب الكبير أحمد بن محمد بن الحسن بن أحمد بن صالح بن دغيش بن محمد بن حمزة الحيمي أصلاً الكوكباني مولداً ومحلاً ومقعداً، وهو حفيد صاحب «سيرة الحبشة» المار ذكره قبل قليل. ولد بشبام كوكبان سنة ١٠٧٣ ونشأ في حجر والده وتخرج عليه، وحقق العلوم على علماء عصره بمدينة شبام وحفظ الأدب ومهر في الإنشاء والترسل، وبرع في ذلك، وتولى الخطابة للعسكر ورحل مع الأديب المولى محمد بن الحسين بن عبد القادر

إلى (الجنات) من عمران في بعض الحروب وقد افتتح خطبته محرّضاً العسكر «الحمد لله الذي جعل الجنات مأوى للمجاهدين»، ثم استمر خطيباً بصنعاء مع المنصور الحسين بن المتوكل من سنة ١١٤٨ حتى آخر عمره وكان من الأثيرين عند أعيان عصره بما أوتي من قوة حافظة وفصاحة لسان يقول الحوثي «له اقتدار عظيم على إنشاء الرسائل المطولة واستعمال البديع في خطبه» وله المؤلفات أنافت على الأربعين ومن شعره في عارض القصيدة الحائية لابن النحاس:

طيّ ذاك النشر للمشتاق نفح ... فلذا كان له في القلب لفح
ألف أهلاً بنسيم طيّه ... لأحاديث الحمى والبان شرح

الخ.

وتوفي بصنعاء سنة ١١٥١ ولما مات قال في رثائه العلامة محمد بن إسماعيل الأمير وقد ارتقى المنبر بعده «إن خطيبكم الذي طالما قام على أعواد هذه المنابر أو طالما هدرت شفتاه بالكلمات الزواجر عبرة للمعتبرين وموعظة للمتعظين على أن حاله اليوم أعظم موعظة من مقال الأمس وأبلغ في العبرة والاتعاظ لمن تفكر في مآله بالرمس» الخ.

تحقيق من عرف[١] في الرحلة إلى الشرف

هذا المخطوط من نوادر المؤلف الكثيرة المفقودة وهو رسالة مختصرة، وعلى أغلب الظن أنه توفي دون أن يكمله لأن جميع مخطوطاته تنتهي عند الحديث عن هجرة المفتاح، دون أن يوحي كلام المؤلف بانتهاء الكتاب وختامه. وكان سبب الرحلة ما أورده في كتابه هذا من أنه كان مع المولى علم الإسلام القاسم بن الحسين بن القاسم في بلاد الظاهر «نواحي حاشد» وقد مكث عنده نحو خمسة شهور «ثم إنه عوّل علي بالنفوذ إلى جهات الشرف لافتقاد أمور مهمة يجهلها من جهل ويعرفها من عرف،

(١) أعارني مخطوطتها الفريدة الاستاذ مرتضى زيد المحطوري فجزاه الله خيراً.

وذلك لما سلك في البلاد بعض العمال طريق الجور وتعدّى في حقّ ضعفاء الرعيّة الطور». إذاً فالمؤلف أوكل بالقيام بمهمة إدارية تتعلق بحال العُمَّال وما يلاقيه الرّعية منهم من جبروت وظلم وقد وافقت هذه المهمة هوى في نفس المؤلف لما جبل عليه من إصلاح ودعوة إلى الإنصاف كما نجد ذلك في سائر مؤلفاته وقد بيّن رحّالتنا حاله والرحلات فقال في مقدمة كتابه هذا معرِّفاً بنفسه:

«قال من أوثقه قيله، وصار على كاهله من الوزر ثقيله أحمد بن محمد الحيمي أصلاً والكوكباني مولداً ومنشأ فما ألف غير ربع كوكبان وبقاعه أصلاً لم أكن فيه غير حليف وعظ وخطابة وعكوف في زاويته على تقييد شوارد العلوم والآداب والدَّرس والكتابة. حتى أفضى بي الزَّمن إلى نفوذ ما كتب في اللّوح، فضاق بي ربع داري بعد رحابته، وتقلص علي منه ممدود كنف وسوح فخرجت التقط بعد رطب النخل من قشه ودرجت كما يدرج الفرخ بعد إحسان الطّيران من عشه، وجرى ما صيَّر الانتقال علي فرضاً وأوجب الحركة وإن كنت بها لا أرضى». فالمؤلف خرج من بلده مكرهاً غير راضٍ بالرحلة والانتقال وهو مما يألف البلد الذي نشأ فيه ويكره مفارقة الأوطان والخلاّن. وكان خروجه من بلده عن ضرورة ونحن طالما سمعناه يتشوق إلى موطنه الأول بلد كوكبان في أكثر من أثر أدبي كتبه، أسمعه يبكي بلده في هذه المقطوعة التي أوردها في كتابه «شكر من وهب»:

«شبام عندي من أرحب المساكن وأجل الأماكن باردة النسيم نضرة الأزهار المتفتحة من «النّعيم» مخضرَّة الأكناف جامعة الأصناف باسقة الدّوح متسعة الفنا والسوح معتدلة الهوى البارد الرّطب مستوية الأرض والمعقل الرحب».

ويعقب كلامه هذا بالاعتذار عن شوقه إلى موطنه فيقول «وما هذا من باب التَّعصب للأوطان المألوفة التي من شأن كل كريم نصرتها على

غيرها في المحاسن الموصوفة على سائر البقاع وإنما قلت كلمة الحق ونطقت بما يعد من أكمل الصدق».

وكذا كان أديبنا الحيدي وفيًّا لأهله وأوطانه وعندما قام بالرِّحلة إلى بلاد (الشرف) كان وفيًّا لها لأنها جزء من بلده فلا فرق عنده بين كوكبان وحجور.

يقول بعد إصدار الأوامر إليه بالتوجه «فامتثلت ما به أمر... ونفذت إلى تلك الجهات نفوذ سهم، وتحقَّقت إلى منازلها تحقق من له فهم». وقد أفادته رحلته معرفة أسماء قرى وبلدان تلك الجهة والاختلاط بأهلها وسبر أحوالها «وعرفت أسماء بقاعها بلداً بلداً وميّزت من أهلها طارفاً وتلداً».

وقبل الدّخول في الرحلة وذكر البلدان التي زارها يعطينا شيئاً عن كتابته وعقده النيّة على تدوين ما شاهده إلى غير ذلك يقول بعبارة مسجّعة «واتفقت لي فيها نكت أدبية وسبكت البديهة على نار الغربة أقراط حلي ذهبيّة... فأحببت أن أجمع في أوراق مستقلة قضّي وقضيضي وأزبر في سطور تقوم بنفسها ما نظمته مدة إقامتي هناك وبعد رجوعي من قريضي وأصف ما اتّفق لي من تلك الدِّيار، وما جرى وأملأ من الناظر من هذه الأوراق موقاً ومحجراً، فنسجت هذه البرد الحبير وأنبأتك أيها اللبيب على أسماء تلك البلاد ولا ينبئك مثل خبير ووضعت هذه النّبذة المسطورة وغرست هذه الرَّوضة الممطورة، وأشرت في أثناء فقرها إلى أسماء رجال هناك ومحلات معروفة يتنبه للإشارة إليها من كانت له خبرة بالبلاد، ومن كانت له فطنة». كذا تكون عبارة المؤلف رحمه الله وهي بليغة ومتماسكة لولا ما يعيبها من تكلف ملحوظ للسّجع الذي يكاد تضيع بين طياته المعاني والأفكار، وهو يقول فيما سبق أنه أحب أن يكتب ما اتفق له في رحلته هذه وقد جرت له نكت صهرتها نار الغربة سطوراً كالأقراط الذهبية أنابت عنه في وصف حاله مدة إقامته هناك.

بداية الرحلة

وما لنا نعيد ما قاله وهو ليس من الرِّحلة وإنما رحلته تبدأ بعد فقرات الديباجة وذكر العنوان. يقول «كان خروجنا من محل (خمر) عن أمر ذكرناه. في شهر صفر ففيه أنشأنا السّفر، وهو أحد شهور سنة ١١٢٠».

وقد خرج مع جماعة من الأتباع والخدم فسلك طريق (القصيرة)، ومرّ على بلاد (غربان) ثم قطع وادي (عصمان) وفي (شظب) تريّث قليلاً وقد «سكنت منا موجبات الغضب فإن السّفر من النَّار قطعة» ثم ينزل بيت (ذبيان) ويلتقي هناك بحاكمها وخطيبها «فتم لنا الأنس بها إلى الصباح حتى قال المؤذن حي على الفلاح» فيشد الدواب هو ومن معه ويسلك طريق بلاد «نيسا» فيجدها خاوية «وما زلت في السير أدأب وأجوب» وهو ممطياً ظهر جواده فيقطع «أودية عميقة الغور» حتى يصل إلى وادي «ثعلان» وفي هذا الوادي تجد الدواب مشقة في قطعه فيضطرون إلى سوقها سوقاً عنيفاً، حتى يصلون إلى وادي (حوصان) وهو مخصب كثير الأشجار والأحراج «شقق لكثرة شجره ثياب من أناخ به قلوصه... قد اشتبكت من أغصانه الرّماح العواسل، وخافته الوحوش والأسود فهي زوائر».

وينتهي من اجتياز هذا الوادي فيصل إلى «سعدان الجبر» وهو جبل يقول «رأينا سعدان الجبر فوقه قد أطل وهو في ذروة يتحلّى بالنجوم منه العطل كأنه وكر نسر السّماء الواقع والطائر وكأنه شنف معلق على أذن الفلك الدائر» وبينما هم في عقبة (حجرة) تتلبد السماء بالغيوم وتعلن بالإبراق والإرعاد يقول «وتواردت هي والليل المظلم فكأنما كانا على ميعاد فخشينا من ظلمة اللَّيل والغيم وكل منّا يتعثر في ذيل والغيث بصيبه هامع، وطرف الأفق بالقطر دافع، وزعزعة العواصف كالرّعود» وبينما هم كذلك بين ظلام وأمطار يحثّون السير حتى يصلون إلى (شريم) وهي قرية يندب المؤلف حالها بقوله «حتى بلغنا شريم وقد اتشح بالبرق وتسربل بالغيم وطفحت بالماء مناهله وثقلت من أيادي السحاب كواهله، وإذا بيوته خاوية

وحيطانه هاوية ووحشته ظاوية وسوقه خراب وجامعه قد أفرخ فيه البوم والغراب».

فيبعث رحّالتنا من يبحث له عن أنيس في هذه البلدة المهجورة «فدعا فلم يجب فازداد من الوحشة والعجب ورأى البيوت مطينة محرورة وقد عمّ الخلا من ذلك دوره فرجع مرعوباً» ولم يكن أمام أصحابنا وقد خلت البلدة من الصّاحب والرفيق إلاّ أن يعتمدوا على أنفسهم في إعداد الزّاد، فيدعوهم رحّالتنا أن يجمعوا الحطب ويهيّئوا لأنفسهم طعاماً، يقول في عبارته الأدبية المسجعة «فقلت للزّمرة والأتباع بعد أن قصر منهم الباع عليكم بقدح الزّند من الحجر، وجمع الحطب من هذا الشجر، فقد حوى زنداً، وجمعوا غضاً ورنداً، واذكوا لهم جمراً، واطرحوا زيداً وعمراً، فاحتدمت النار وأضاء ما حولنا وأنار، واصطنعوا لنا طعاماً مأدوماً فأوجدوا في الحال ما كان معدوماً» وأمسى القوم والنّار حولهم والوحوش من حولهم حائمه متربّصة «ولم تزل النّار من حولنا تضطرم وتضطرب والوحوش من مقامنا تبتعد وتقترب، فسامرنا النّجوم المعتمة وغازلنا الآفاق المقتمة، ونصبنا من اللّهب أعلامه الحمر، ودفعناها من الأخشاب على رماح سمر».

في بلاد حجر

ويصبح الصّباح فيتأهّب القوم لمواصلة الرِّحلة ويمرون على قرى صغيرة يجدونها في الغالب خالية من السكان لخروج البلد من حرب ضروس مع العثمانيين وتناوب الأوبئة والمجاعات فلم تترك في البلد سامراً ولا أنيساً وقد مرّوا على «بني أعتب» يقول «فلم نجد من يلومه اللاّئم إذا أعتب، ولم نظفر في (ظفر) بشيء يفرح أو يسر» وهكذا يمرون على (بني عويد) و(المشاف) و(الملاطع) يقول «فإذا دليل خلوها دليل قاطع» وكذا «المرخام» و«الشناظيف» و«الجنة» و«قارية» يقول «لم نجد بها قار فيها ولا قارئة» ثم «المروق» و«القاهر» و«الرجالة» و«قلعة العماج» وكل هذه القرى

والمواضع مرّ بها فلم يعجبه حالها لما هي فيه من هجر النَّاس لها وصعوبة الحياة فيها إلاّ أنه يثني على قرى حَجْر بكثرة الخصب فيقول «وفي قرى حجر المذكور على العموم من حضائر العنب ما تزول به الهموم لأن إحياء تلك الأرض معدود عند أهل الشرف من الفرض».

إلى بني كعب الحجارية

ثم يتوجّه إلى «بني كعب الحجارية» وقد أعجبه المقام فيه ويصفه بقوله «هو محلّ يستحسن الطرف نضارته الحجارية» وهناك يقصدون منزل عبدالله العنان، فيستضيفهم ويكرمهم «وأطلقنا من قصده العنان حتى دخلنا في بيت عبدالله الملقب بالعنان وهو عنان يصرف كل عنان كيف يشا، وكريم يؤقر الظهر ممن قصده ويملأ الحشا فأوقد لنا نار القرى واصلاً ولم يمسك عنانه بلجامه عن الأكل أصلاً، تلقانا بما يتلقّى الكريم الضَّيف».

وبعد هذه الوليمة ينحدرون إلى «بني أسد» ويجدون في حي حلوان العنب اللذيذ فيمكثون به برهة ثم يتّجهون إلى «الهجرة» ويصلون بعد ذلك إلى «العارضة» وهي من القرى المعروفة وكذا يمرون على «الرضعة» ومنها إلى «الحسوة» ويعرجون إلى «المحطور» فيجدونه خراباً بلقعاً بعد قيام صاحبها المعروف بالمحطورى بالثورة المشهورة في التاريخ اليمني، وفي «المحاريق» يلتقون بالسيد إبراهيم بن يحيى الشرفي، أحد العلماء في عصره فيصحبهم حتى يصلون إلى «بيت ناصر الجمري» وهناك يفارقهم السَّيد المذكور، وكان اليوم شديد البرد وقد أثّر في صاحبنا الأديب الحيمي فراق صاحبه وشِدّة البرد ومقابلة الجَمري، فيصف حالته تلك في بيتي شعر يقول:

مضى إبراهيم فاستوحشت (م) حتى حرت في أمري
وسار وكان في برد وأسلمني إلى الجَمْري

وهذا من سرعة بديهة أديبنا رحمه الله وفي بيت الجمري يستريح من وعثا السفر وينزل عنده في ديوانه الفسيح وقد علا على ما حوله وأطل على مروج ورياض يقول:

«وقلت لما استقر أمري وثلج صدري في «بيت الجمري» وألقيت عصى المسير من ديوانه وهو ديوان يستضعف كسرى عنده أمر إيوانه، فقد أطل من ربوة وأثار من حسنه الصَّبوة تفتح طيقانه إلى رياض قد تخلَّلتها النّهور المتدفقة في حياض».

الرِّحلة إلى المحابشة

ثم يصل إلى المحابشة حيث يلتقيه عاملها بالتَّرحيب والإكرام، وهو يثني على المحابشة بقوله «ثم بكرنا بدخول (المحابشة) العامرة سقتها النّهور الجارية والغمامة الهامرة فأقمنا بها يومين وتلقَّانا عامل البلاد أحسن تلقي».

ومن المحابشة ينزل إلى «بني جل» فوجد أكثر أهلها قد هجروها ثم منها إلى (الظهران) و(الخفقة) ثم (المغنية) و(الحمامى) و(الكولة) و(سوق الجمعة) و(الصنعاني) و(الحبيلة) ثم (العميرية) وهذه قرى ومحلات (بني جل) التي نزلها وقد ختم حديثه عنها بقوله:

مررنا (بني جل) وقد مَدّ فوقنا	ضحى من عظيم الدّوح بارده الظل
وقد رصَّع التِّيجان منه بدره	يخيط ندى بالصبح يعرف بالطل
وخالط ذاك الدّر ياقوت بُنِّه	فغصن النّقا عرس تزف إلى البعل

ثم ينفذ من (بني جل) إلى (بني خولي) فيجده عبارة عن طلول مقفرة ويمر فيه على (الدار) و(الظهر) ثم (القاهرة) يقول عنها «بالإقفار مقهورة وسائل نهورها بعد الورود منهورة» وهذه القرى هاله حالها ولم يجد فيها ما يستوقفه «فحثثنا عنها الرَّكائب ولم يعقل بمعقلها النَّجائب ومررنا

مرور سهم مرسل فما سألنا فيها عن شي ولا آوينا من ظل جدرانها إلى في».

ولا يُعـرّج على شيء حتى يصـل «بني مديخـة» ويمر عـلى «الجبـل» و«المعمر» وبلد «قارية» و«بيت القلاع» و«الهيجه» يصفها بأنها ذات ضوء ومسجدها وقبتها ساطعة النور ثم «العوى» يقول «وفي أهلها بعض وسامة منهم من جرد عن طرفه حسامه لذا إني ملت ونهضت إلى (اللطيفة) الخ».

إلى شمر

ويتجه إلى شمر وهي قرى ومحلاّت كثيرة يذكرها المؤلف بأسمائها لا غير منها «الوجبة» و«السهلة» و«العـزامية» و«المبنى» و«القـواعد» و«المسرة» و«القينية» و«العاشبة» و«المعلاة» و«مورع» و«الهضبة» و«العزب» و«المقاطع» و«القطف» و«الحصن» و«القفل» و«قرهم» و«الطّوف» و«الساعد» و«الغارب» و«الحدب» و«العرض».

ثم يصل إلى حصن «يفوز» يقول: «دخلناه بسلام ولبثنا فيه خالين عن الصوارف والعوائق وله أبواب محكمة بالحديد فيها لمن به باس شديد» وكان شيخه في ذلك الوقت الشيخ الهادي بن شمس الدين الشمري يشكو من ألم، «فأمر أولاده بإكرامنا وألزمهم وحثّهم على صيد مـا سنح من آرامنا فأوسعوا علينا برّهم الغامر».

ثم يتـوجّه إلى «نـاشر» ثم إلى «عزّان» و«القـاهـرة» و«المحـدة» ثم «الأحـداث» و«الحـدب» و«القـادر» و«بيت عيسى» و«الشـما» و«الحصـين» و«المباني» و«القزعة» وكل هذه قرى ومحلات صغيرة لم يتوقف عندها رحّالتنا كثيراً، أما في «بيت المريخ» فإنه يحط ركابه بها ريثما يستريح قليلاً ثم يتوجه إلى «الجيد» وفيه يقول صاحبنا:

ألا يا حبذا اسمك قد أهاج الوجد كالجمر
وذكرني بجيد الشادن الراتع في البرِّ

الخ.

وفي «الشربة» يقابلهم علي بن صلاح النَّاشري ويقسم عليهم بالنّزول عنده «فعل لنا من الجميل فعل الغيث بالرّوض وسقى جنبات حدائقنا بأحوضيه وأكرم به من حوض» الخ.

في حجور

ثم ينفذ إلى حجور فيتّجه إلى «الجبل» ثم إلى «البداح» فـ«المنقم» و«الشّنة» و«السَّقف» وفي هذه المواضع يعترف بأنه «مهَّد للعدل فرشاً ورفعنا في تلك الدِّيار للشّريعة عرشاً ونجح لنا المرام بين قوم لئام وقوم كرام» وبعد قيامه بالمهمّة الموكل بها يعود إلى «ناشر».

في الشاهل

ثم يتوجّه بعد ذلك إلى ناحية «الشاهل» ويصل فيه إلى «بيت الجبل والصَّاية» ثم «بنو جيش» و«المرواح» ثم قلعة «القحوط» و«العرامية» و«العروش» و«سعدان» و«المنصورة» و«المجمع» و«العصره» و«الورك» و«قيدان» و«قبائل» و«الجرير» و«العوالي» ثم «الجاهلي» وفيه يلتقي بأحد الأولياء الصالحين وهو الفقيه محمد الفاضل وهو مقصداً للناس في قبول الدعاء، وقد باتوا عنده «في أرحب فنا وقد طفح من إكرامنا لديه الإنا فهو إذ ذاك يقصد للزّيارة من الأقطار فتنجح للزّوار من أدعيته المتصلة جزيل الأوطار وصلّينا في جامعه الذي يسدّ الإنسان عند وصف الجوامع ما عداه مسامعه».

وعندما يصل إلى «هجرة القويعة» يعجب بها كثيراً وينزل هو وصحبه في سوحها أياماً يقول في وصفها «وهذه القويعة من أرحب السّفوح ومن

أجل البقاع التي مسك ترابها يفوح قد حفّت بها حدائق الأعناب وضربت بخيام كرومها الأطناب. وبها دور شامخة وقصور أقدامها تحت الأرض راسخة، أشبه شي بدور الأوساط من صنعاء اليمن».

ويصف مشاهدها وآثارها وطلبة العلم بها فيقول: «وأما مشاهدها وقبّتها ومساجدها فما أقول إلاّ أنه يحار في وصفها مشاهدها لأنه للعلم مثوى ولطلبة التحقيق مأوى قد عمرت بالدّرس وأينع بالفوائد منها الغرس».

وقد وجد فيها من جنسه من طلبة العلم والفقهاء ما جعله يسر بوجودهم. وهو لا ينسى أيامه بها ويذكرها بالخير يقول «مرّت لنا في هذه الهجرة أوقات حلوة وتمت لنا فيها المسرّة الجلوة».

ويذكرها بالشّعر فيقول:

زمان تقَضَّى حين طاب لنا نبعا ... لقد ظلّ من بعد الفوات لنا ينعا
تقضَّى بربع للقويعة قد زها ... فلله ذاك الرّبع أكرم به ربعا

إلى آخره وهي طويلة.

في بني بدر

يقول هي بلاد عظيمة الرتبة منها «بني مناوس» ثم «الصر» و«المهدم» و«المصحل» و«القمعة» و«الملحا» و«المكبس» و«الحرف» ثم «الأمرور» و«الدرب» و«النجد» و«سعدان» و«القرو» و«الحازة» و«المعمر» و«الحسكا» و«الحرسا» و«المعرض» و«المسجر» و«دار فريع» و«العطارفه» ثم يصعد أديبنا الحيمي بمن معه إلى «جبل حرام» يقول فيه «ونلنا من ارتفاعه غاية المرام وإذا المخزان تحت جبله مملوء بالذّخائر وإذ أعقابه في الجو يعجز عن صعودها العقاب فارتقينا من جهة المخزان وطلعنا في كنفه كما تطلع إحدى

كفي الميزان وحلقنا فيه تحليق النّسر في الجو، وسمعنا حفو الرّياح في جنباته كدوي السِّيل».

وفي هذا الجبل شجر القات، وقد عمَّت خضرته الأرجاء، وهناك قبة الإمام جعفر حيث يستريح القوم في فيئها يقول «وقِلنا في طلاله البارد وشممنا من ترابها رائحة المسك الأذفر وهي قبة عالية في غاية الكبر وعلى تابوته فيها نفائس الحبر، وطفنا حوله طواف القدوم ونال كل منا من التلمس ما يروم وعليه من الجلالة ما يهاب».

وبعد هذه القيلولة والإستراحة ينحدر الجميع إلى «الدَّاخن» ثم إلى «بني أسد» و«الشجعة» و«بيت العكش» وفي هذه البلدة تشاهد كثرة الأعناب يقول «ورأينا في هذه من الأعناب ظلاًّ ممدوداً ورأينا على جنباتها عِقداً منضوداً، من عنب كأنّه قطع الذّهب أو صفرة اللهب، وهي بلدة متسعة ربوعها على المحابشة مرتفعة» وينزل في هذه البلد بجامع آل المرتضى وبني صلاح وقد وجد فيه العلامة الحسين بن ناصر المهلا يدرس في بعض العلوم.

ثم يتجه إلى «بني مجيع» ثم «الحدب» و«مذروح» و«السَّاحة» و«القد» و«بني كعب» و«علكمة» و«بيت الملاهي» و«طهنته» ثم «المخريف» و«الجميمة» يقول «فبتنا فيها على حالة ذميمة ممقوتة لخلوّها عن السكان وعدم قدرة من بقي من أهلها عن التلقي بالأمكنة والإمكان» فهم في حالة من الفقر والحاجة ثم يسير إلى «قارية» يقول: «رأيناها عن الحسن عاريه سوى وجود رجل جليل الترتيل للقرآن» ويستغل أديبنا الجناس بين تسمية هذه القرية وهذا القاري فيقول شعراً:

لقد سمعت أذني بقارئة فتى غدا قارئاً حتى عدمت وقاريه
تلا لي آيا أوجبت كرب مهجتي فيا طول أشجاني بقار وقارئه

وأظن «قارئه» نفس المار ذكرها فيما مضى، ثم يصل إلى عزّان فيطيب

المقام له فيها «وفيه رجل يقال له القطف جاءنا بشيء من العنب فقلنا في التورية:

قـد قطف القـطف لنا مـا حـلا مـن عنـب ينـعم بـالـوطـف
نـاديـت إذ أطفـيـت حـرّى بـه يـا حـبـذا فـاكـهـة الـقـطف

الرحلة إلى الجاهلي

وفي «الجاهلي» يصل إلى «الدرب» ثم «الحلة» و«سعدان» و«بلد المعازى» ثم «غارب السعد» و«العضة» و«القاعدة» و«الحدبي» و«حدب المردمة» و«الخوتع» و«النيد» و«المصنعة» و«بيت محرم» و«العلاه» و«مغربة بني عثمان» و«درب المضحى» و«الحوالم» وفيها يجد الفقيه الهادي بن محمد المهاب يقول «وهو رجل ظريف وله شعر كما أملاني لطيف، فقد نقلت من عنده أدباً ونقل من عندي، وقد مرت لنا في بيته ليلة زهرا أجرينا فيه خلال حديقة العلم والمذاكرة نهراً فيا لتلك الليلة ما آنسها أشرفت علينا فيها بالمراجعة نجوم سمائها مما كان عن البدور والنّجوم الحقيقة أغناها، فعل لنا من الصَّنيع ما يدلّ على أنه رقا من المروءة حصنها المنيع، أوسع في إكرامنا بالقرى والقراءة، وسمع من «الأنفال» و«الأعراف» بما يدلّ على أن له من اللؤم والشح «براءة». وتلا لي أحد أولاده قصيدة له في مدح المصطفى ﷺ».

وبعد هذه الليلة الأدبيّة المليئة بالمذاكرة يصبح الصّباح، ويتّجه إلى «أقصر» فيمكث فيه يومان لحسن هوائه «فإنه من أحسن البقاع سفحاً وأطيب المساكن التي تتضوع نفحاً».

وبعد ذلك يتّجه إلى «الجبر» ويدخل «هجرة الشعارية» ثم «بني عيشان» ويستوقفه فيها «جامعها العجيب ومطرف زخرفته القشيب، وقد أعنى غاية العناية وقامت مقام التَّصريح في وصفه الكناية» ثم ينزل إلى

«القرى» يقول «لم يحسن أهلها لضيفها القرى وهم إذ ذاك في أضيق عيش من العيش قد استفزّهم لنزولنا القلق والطّيش مع خلو أكثر البلد عن السكن، فمنهم من مات ومنهم من ظعن» ثم يصل إلى «الجنة» ثم «العرق» فلم يجد لإكرامه نبضاً يقول:

أظن الجود مات فقد أرانا المدّ والقبضا
لمست العرق منه فلم نجد في لمسه نبضا

ثم «المركع» و«بنو محرم» و«الشبكة» و«الغرب»، وفي «القزعة» أكرمه أهلها بالإضافة والنزول «فقد نفت عن الغريب جزعه وفزعه، زال بها النَّصب»، وفيها التقى بالفقيه عبدالله بن علي عجلان، الذي سُرَّ بقدوم أديبنا الحيمي إليه «وأقسم لا نكون إلاّ ضيفانه فانزع خوانه وملأ جفانه وآنسنا غاية التأنيس وجنس ما بين القرى أحسن تجنيس» ولما كان على علم بمكانة رحالتنا العلمية، فإنه اغتنم فرصة وجوده في منزله وأخذ يذاكره في مسائل نحوية تشغل باله، يقول الحيمي «ثم أخذ يذاكرنا في علم النّحو وطلب لما رسم في صحيفة خاطره من الإشكال الحك والمحو، فنقعنا غلته وشفينا ولا أقول من الجهل علته، وأجبنا عليه في غامض من المسائل فجعل ذلك إلى الإكرام من أعظم الوسائل، وبتنا عنده ألذّ مبيت، وأحيينا الليلة بالمذاكرة، وإذا كان الغير لها بالنّوم يميت» وفي الصّباح يتجه إلى «القشفة» ثم إلى «المغراب» ثم «الطواف» و«بني موهب» و«المرارين» و«المنفه» و«القلعة» و«الشباك»، يقول فيها «وهي محكمة الصنعة قوية الحباك فرأينا بها غادة من ذوات الحجال فقلت في ذلك على طريقة البديهة والارتجال:

في الشباك الأعلى رأينا غزالا يترك الطرف في المحبة باكي
قلت لما رأيتها وهي تمشي يا لها الله ظبية في «الشباك»

ثم يصل «بني الشماخ» و«الوجبة» وقد وجدها «طللاً بالي ورأيت من

أقفارها وخلوها ما لم يصل إلى بالي»، وينحدر إلى «هجرة بني زيد» التي بقابلها قرية يقال لها «بني عمرو» فلا تفوت أديبنا هذه المناسبة فيقول:

إذا أنت قد أدركت في النحو بلغة   وميَّزت بين الرفع والنصب والجر
فذلك منه غاية القصد فالتفت   إلى الفقه واشغل فيه حافظة الفكر
ولازم بنيه فارتحل في طلابه   وخل «بني زيد» وخل «بني عمرو»

ومن بني زيد يقصد «سعدان» ثم «الرحبة» وقد انشرح خاطره فيها لولا حثّ الركب له «وهي ربوة عالية، بعض رسومها بالية، أعجبني سفحها، وشاقني وحيّرني عن سرعة الرحيل وعاقني، لما أدركت فيها من الرَّوح وطيب المسكن وتفتح السوح».

وبهذه البلدة تم له عمل بلاد الجبر «بعد أن نشرنا على أعطافه من الشريعة مطرز الحبر، وأزلنا ما حقه أن يزال وأظهرنا فيه العدل ما يرعى به مع الأسد الغزال» ثم ينحدر إلى «حصن مَدْوَم» وهو من الحصون الشامخة يصف علوه فيقول «هو بسموه يغازل من النجوم طرف أحوم، وهو جبل مناف سامي المحل رفيع الأكناف فوقه في رأسه شموع النجوم ولا تأمن ملائكة السّماء من سكانه الهجوم، قد تعلق بأذياله الغمامة ووضع من السِّحاب على رأسه الغمامة». ومن قراه «ضهيان» و«الطوف» و«الدرب» و«رابض» و«الكولة» و«السن» ويختم حديثه عن «مدوم» فيقول «وما زلنا في مَدْوم وإفضال أهله من الغيث أدوم، لما رقينا «شادخه» وركبنا من غاربه باذخه طاب لنا فيه الوقت وتلقَّانا سكانه الأجلاّء من الإكرام ما يجل عن المقت» ثم يعود إلى وصف هذا الحصن ويذكر موقعه، فيقول «وهذا الحصن من أنفس الحصون قد رصّع تاجه الشّهب المصون، أشرف على وادي «جفنة» وهو واد يملأ أهله للنَّازل من الثريد جفنه. وأشرف أيضاً على «قاوية» وهو واد جنباته للرِّياض مساوية».

في نوسان

وبعد هذا الوصف لحصن (مَذْوَم) ينحدر إلى لاد «نوسان» ويتّجه إلى جبل «البراز» و«المرتام» و«الكراوى» و«عزان» و«النشمى» فإلى «الرجا» وهي هجرة لم يعجبه حالها فقال يصفها «وأما هجرة الرحا فقد خلق قميص سفحها وتعرَّى جامعها مهجور، وبحر ماء دموعها مسجور، وطرقها معشبة وبقيّة بيوتها عن الفضلاء مجدبة. وأبرّ من بقي فيها من أهلها بالممكن من البر» وبهذه القرية تنتهي أعمال (نوسان) ثم يخرج إلى بني داود ولا يذكر من قراها سوى هجرة «المفتاح» ثم تنقطع النسخة كما أسلفنا.

وهكذا نكون قد أتينا على قرى ومحلاَّت بلاد (الشرف) طائفين بها مع رحَّالتنا الأديب الشاعر العلامة أحمد بن محمد الحيمي، نكون تارة معه في هرولة وأخرى في تأنٍّ، وذلك حسب اقتضاء المقام والحال.

يحيى بن المطهر ورحلته بلغة المرام

في أوائل القرن الثالث عشر كان النّاس على فترة من الهدوء - نسبياً - نشط خلالها جماعة من العلماء للبحث والتفرغ للعلم، فظهرت مؤلفات العلامة محمد بن علي الشوكاني وما أحدثته بعد ذلك من نهضة فكرية ظهرت آثارها في تلامذته. وكان من أهم ما جاء به الشوكاني إحياء رسوم الاجتهاد والعودة إلى العلوم الأولى اقتفاء بشيخيه الأمير والمقبلي، ومن حذا حذوهما كالجلال ويحيى بن الحسين بن القاسم وغيرهم.

وفي استطلاع أثر الشوكاني على عصره نجد ذلك متمثّلاً في تلميذه وزميله العلامة النّابغ يحيى بن المطهّر بن إسماعيل، وهو من أكثر تلامذة الشوكاني اقتفاء به ومحاكاة له في أسلوبه مع اختصاص تميز به علاّمتنا في البعد عن الدَّولة والتعلق بأذيالها وقد مكّنه هذا من الجهر بالحق والصراحة في الإصلاح، دون خوف أو وجل.

العلامة يحيى بن مطهر

هو يحيى بن المطهر بن إسماعيل بن يحيى بن الحسين صاحب أنباء الزَّمن وغيره ولد سنة ١١٩٠ هـ ونشأ في حجر والده وأخذ الفقه عن سعيد ابن إسماعيل الرَّشيدي وفي علوم الآله «النحو وغيره» عن علي بن عبدالله الجلال، ومن أبرز شيوخه العلامة محمد بن علي الشوكاني واشتغل بالدّرس والتدريس حتى تبحَّر في العلوم ونظر واجتهد وحقَّق ودقق. يقول المؤرخ زبارة «وكان لا يخرج من بيته غالباً إلاّ لصلاة الجمعة وبيته مأوى لأهل

العلم وله وجاهة عظيمة، وحج مرَّتين وأقام مدّة بحصن كوكبان ثم عاد إلى صنعاء، ومن مؤلفاته (شرح على سنن النسائي) و(عقد اللآل شرح منظومة ايساغوجي للسيد علي بن عبدالله الجلال) و(الزبدة) حاشية على العمدة وحلية النحور و(العطايا والمنن ذيل أبناء الزَّمن) و(العنبر الهندي في سيرة الإمام المهدي) وغيره من الكتب النَّفيسة.

يقول شيخه العلامة محمد بن علي الشوكاني «له سماعات كثيرة وشغلة تامة بالعلم وتقيد بالدَّليل ومحبّة للإنصاف، وهو على منهج سلفه في البعد عن أعمال الدَّولة والتكفّي بما تركوه له، وهو الكثير الطَّيب وفيه علو همة ومكارم أخلاق».

توفي رحمه الله سنة ١٢٦٨.

كتابه بلغة المرام في الرحلة إلى بيت الله الحرام

هذا الكتاب من نوادر المخطوطات وأنفسها في مجال الرحلات التي تركها أهل اليمن ويتميّز بالدّقة في الوصف، والاستيعاب لأمور الرِّحلة والمشاهدات وقد وقفنا على مخطوطته الوحيدة بخط المؤلف وهي بمثابة مسودة يكثر فيها الإصلاحات والإضافات.

وهو عبارة عن رحلة قام بها لأداء فريضة الحج، ذكر في المقدمة أنه عزم سنة ١٢١١ وأنه كان في بداية الأمر متردّداً في سلوك أي الطّرق: البرية أم البحرية وأيّها أنسب، ويسأل النَّاس المجربين مثل هذه الأشياء يقول: «فتشعَّبت الأخبار والآراء»، يقول: «إنه لم يتمكّن أحد من طريق الحجاز المعتادة بل عزم بعض الحجاج من طريق السّاحل» أي عن طريق البر المحاذي للبحر «والبعض الآخر من طريق البحر» واختار مؤلفنا الطّريق الأخر وقد تهيّأ للمؤلف بعد العودة أن يرصد ما عنّ له في رحلته هذه، وذلك بعد فراغه من الدرس في كتابي «سبل السلام» و«بلوغ المرام» يقول:

«ومـا زلت أخيط الأمور الـدقيقة والجليلة في خـطى متفرقـة، فلما فرغت من «سبل السلام» وتمّ لي بحمد الله «بلوغ المرام»[1] رأيت نَظْم ذلك في سمط الطّروس وذلك بذكر بعض من نذكره من الأعلام بما تشتاقه النّفوس اقتداء بمن فعل منهم كذلك وإن كنت لست أهلاً لذلك».

فهو قد صنّف رحلته اقتداء ببعض من دوّن رحلاته من الأعـلام السابقين[2].

بداية الرحلة

كان خروجه من مدينة صنعاء يوم الخميس «لعلّه حادي عشر من شهر شوال من سنة ١٢١١ هـ وفي السَّاعة الثالثة»، وقد كان سفرهم في البر «سفراً لم يشـاب بسوء» لكن أدركهم وهم في «أطـراف حراز بعض تشويش بسبب أنه بلغ انتهاب جماعة ممن تقدّم من الحجاج» فتطوّع جماعة لحـراستهم مقابـل شيء من المال، يقـول المؤلف «ولا حاجـة تجب ذكـر المراحل» أي لم يعدد المراحل التي مرّ بها من سفره من صنعاء حتى وصوله إلى (الحديدة) وسيمرّ على القارئ ذكر هذه المراحل في كلامنا عن رحلة جغمان ومحسن بن عبد الكريم «أنظرهما» يقول «وبالجملة لم نزل نتـرحّل حتى انتهينا إلى محل يقال له «شجينة» وكان ذلك يوم الخميس لعلّه ثامن عشر الشهر المذكور بعد شروق الشمس» يقول وهي آخر مرحلة ينزل فيها الركب وقد وصف «شجينة» المذكـورة «محلة مناسبـة وفيها مسجـد بعدة دعائم» وباتوا في محل يقال له الجرين بالقـرب من «شجينة» والسَّبب في عدم الوصول إلى البلدة «نزول المطر ولقد رأيت حال نزول ذلك المطر ما يقرب من النَّهر كأفواه القرب مع عواصف تستميل ما مرّت به حتى يكاد يقع على الأرض، ولقد مضت بعض دوابنا من باب العشة حتى صارت لدينا

(١) لعله أراد بها كناية أو تورية عن السلامة والله أعلم.

(٢) وغالبهم من أهل المغرب فقد رأيناه يرجع في رحلته هذه الى رحلة العبدري.

بغير اختيار وإنما هو من جهة الإلقاء، وما كان بأقرب ما جرفت ما فوقنا، ومرّ السيل من تحتنا وبتنا في أشد ليلة» ولحسن الحظ أنه لم تظهر سيول كبيرة بسبب الرِّمال يقول «مع أنه لو وقع في أرض صلبة لاشتد ضرره» ثم يرتحل الجميع من «شجينة» أوان الغروب، وهنا يدرك المؤلف رطوبة البحر، وهو لم يكن له بها عهد يقول «ولما أتينا من المسافة على قرب الثلث أدركنا رائحة تشبه النِّيل ومن قرب الثلث الثاني سمعنا وجبات «كذا» ومن قريب الثلث الثالث أدركنا لين حتى كأن ما علينا من الثِّياب مغسولة لشدّة الخضرة «الرّطوبة» وجعل على الدّقيق ونحوه ما يقي كالأنطاع ونحوها فسألت عن ذلك فقيل هو من أثر البحر» وقد هاله هذا الحادث الذي لمسه من البحر فقال لنفسه «إذا كان هذا في البعد عنه كيف في القرب منه، وإذا أثره عند القرب منه أهون من ذلك» وهذا من لطف الله.

في الحديدة

يصل الجميع إلى «الحديدة» ويمكثون فيها اثني عشر يوماً لاقتضاء الحال إلى ذلك وقد طاف الرّحالة بهذه البلدة ووصفها بقوله: «رأيته بندراً نفيساً بيوته الغالبة عشاش وفيه بِنًى «أبنيه» يسير كالقلعة والمساجد والخانات وأشياء أخرى وثمة بيوت محدثة حال التاريخ».

والعامل على بندر الحديدة أثناء وجود الرَّحالة سندروس المنصور أحد الموالي وفي حال قدومه كان المذكور مشغولاً ببناء دار له يقول «قارب الفراغ من بناء دار في غاية الاتّساع والارتفاع وفيها تقدمة متصلة بالبحر رأيتها في غاية الأناقة بينها وبين القلعة الأصلية مسافة قريبة».

وبحسّ المؤرخ القدير يحدثنا رحّالتنا عن هذا البندر ويعقد مقارنة بينه وبين ميناء المخاء الذي بدأت حالته تتناقص يقول «وهذا البندر لا يزال ينمو ويزداد قوّة والأغراب يثنون عليه ويرغّبون إليه لحسن حال أهله وتلقّيهم الواردين وعاقبة ذلك محمودة فكانت، هذه الخصال مع زيادة مقاصد

في وجوه الخير، كتقارير القساطة (؟) ونحوها من شأن بندر المخا المحروس وقد بلغ من التَّناهي بسبب ذلك ما لا يخفى وحال التاريخ تغيّر ذلك بسبب تغيير العادات» ونفهم من عبارة المؤلف عل غموضها أن بندر المخاء يتناقص حاله بسبب منافسة الحديدة له والله أعلم.

وكان الحاكم في البندر في ذلك الوقت الفقيه القاضي أحمد بن إسماعيل حنش والكاتب صالح بن يحيى العلفي وأمير البحر الفقيه عبدالله بن أحمد الخولاني، وهذا الأخير يثني عليه رحالتنا ثناءً كثيراً، ويقول في حقه «اعتنى في تحصيل ما نحتاجه، مع مشارفة تامة على سائر الحجاج والوفّاد، ولقد كان لوصوله إلينا وسؤاله عمّا نحتاج إليه واستمراره على ذلك مع ما نحن عليه من الغربة ومشقة السفر أثراً عظيماً أزال شظف العيش وتعب الطَّريق».

وما زال هذا الوالي يعتني بشأن أصحابنا ويهيء لهم الأمور حتى «استنجز ركوبنا وذلك قريب ثلث ليلة الخميس لعله ثاني عشر شهر القعدة».

ذكر المركب وحديث البحر

حصل المركب الذي سافر فيه أصحابنا، وكانوا قد دخلوه أول مرَّة في ليلة سابقة، ثم عادوا منه لأسباب لا ندريها يقول: «وكان في ذلك خير فإني لما وصلت المركب حصل معي بعض تغير زال بالرّجوع إلى البر».

وقبل دخوله المركب للمرة الأخيرة يعطينا وصفاً دقيقاً لتلك المراكب التي ترسوا على الميناء، وهو وصف تاريخي علمي يذكرنا صاحبنا فيه بتلك التحقيقات العلمية التي كان يقوم بها في سائر مؤلفاته الفقهية والتاريخية يقول «وقد عنَّ لي تحقيق المراكب ونحوها لمن اشرأب إلى ذلك ممن لم يعرفها فالصِّغار تسمى «داوات طلائع» و«غرابات»، و«نقائل« و«دجيات»

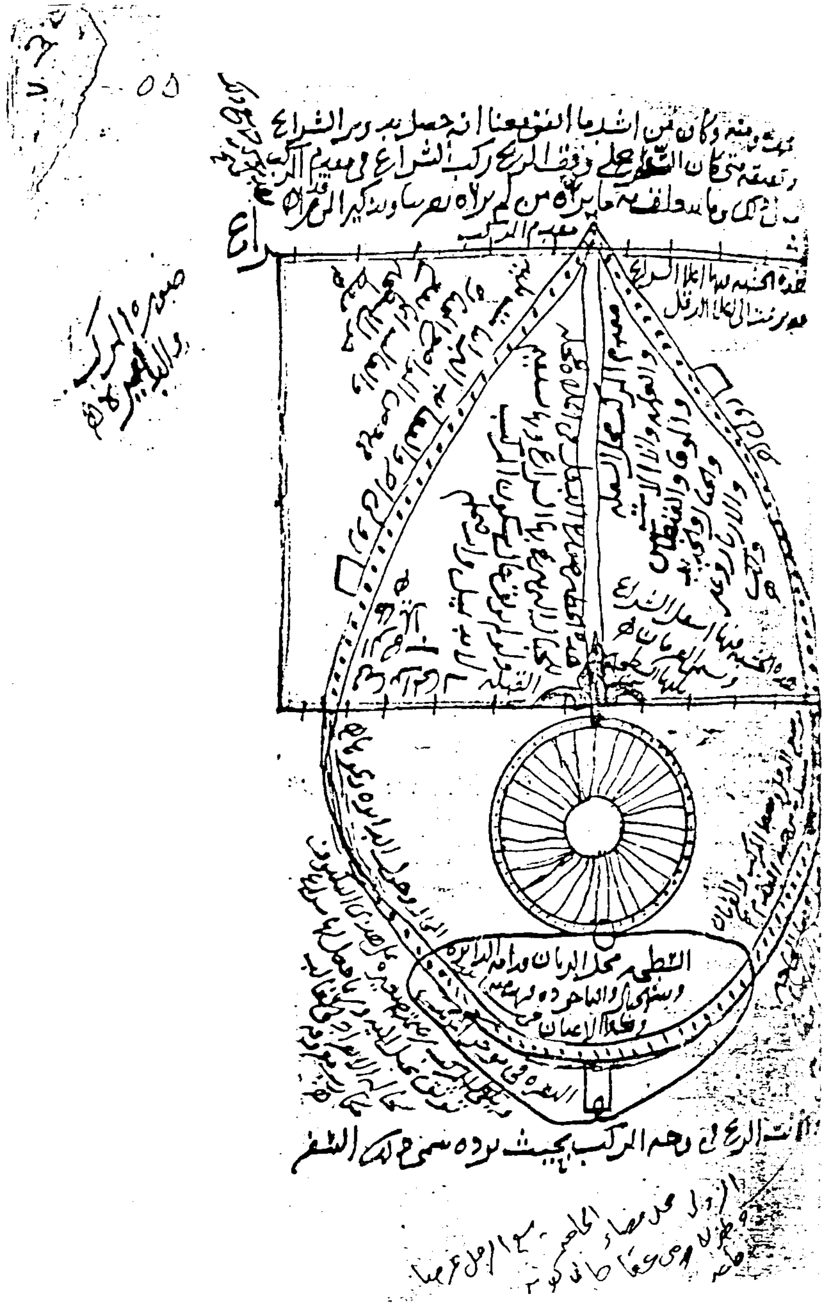
و«طرادات» و«سواعي» و«سنابيق» و«زعائم» و«ماشوباه» و«نمصات» على هذا التَّرتيب أولها أكبرها، وآخرها أصغرها، اسم لما كان مشتمل واحد. وأما الكبار فتسمى مراكب وقد تلقب، فيقال «كنجاوديكي» و«فتح جنك» و«فتح إسلام» إلى غير ذلك من الأعلام يشتمل واحدها على ثلاثة أدقال، وحبال ورجال وأثقال عديدة. والدّقل متفاوت يبلغ البليغ فيما قيل خمسة عشر باعاً ومن زيادة ونقص يسير، وله حبال تجاذبه من جميع جوانبه معها يستقيم تسمى المقدم وهو «الجوشن» والبراني و«الدومان» وغير ذلك وقد يحتاج إلى نقل شيء منها إذا كان السّفر مجاوشه لا سيّما عند التّدوير إلى محل آخر فيحتاج تثبّت وربما اجتمع جماعة من سائر الركاب لمزاولة ذلك فإذا أريد السّفر فقد أعدّوا هناك خشبتين كبيرتين في طرفي الشِّراع خيوط وثيقة فيوثق أحد جانبيه إلى الأعلا ثم ينزع إلى إعلاء الدَّقل والآخر في الخشبة الأخرى الثانية في أصل المركب. وتلك الأدقال من آيات الله سبحانه فإن أصله وفصله في غاية الضخامة ومعلوم أنه يجر كثيراً فكيف أصله وكم حملته فسبحٰن القادر».

وهو يعجب من ضخامة هذا الدقل الذي يتصدّر المركب وقد سمع من النَّاس «أنها تجعل جالات (؟) في مجال نباتها ثم يجعل ذلك العود النابت في إبان شبابه في تلك المغارة فتنبت وتعظم ولولا ذلك لم تستقم تلك الاستقامة والعلم عند الله» أي أن هذه الأخشاب الكبيرة «دقل الساريه» تستنبت في شيء أشبه بالقالب مستقيماً فينمو على هذه الاستقامة وهذا من طريف التَّصور الذي أخبر به.

ويعود إلى الحديث عن المراكب عموماً ويرى أن أكبرها ما كان مع الإفرنج والغرباء «فأكبر ما يوجد مع الأغراب والإفرنج ونحوهم وأكبر ما رأيت في مرسى جدّة مركباً فيه في كل جانب اثني عشرّ مدفعاً وفي سطحه اثنان وهو مستو جميعه بخلاف الصِّغار وفي أعلاه مفرج أنيق وفيه تصوير امرأة ليست بحسنا وفيه خلق كثير بحيث يسأل الرجل عن الآخر ويبحث

عنه، وفي مقدّمه حكم المطبخ فيه من الأمتعة والآلات والنحاس ونحوها ما يشبه الخانات الكبار، وآخر فيه بقرة وخنزير وقرد، أما الخنزير فيتخذه النّصارى كثيراً لما فيه من قبول التّأديب حتى يمكن الانتفاع به وهو من عجائب المخلوقات» كذا يعتقد المؤلف أن النصارى يتخذون الخنزير للانتفاع به وقد غاب عنه أنه من المأكول عندهم، وهو محرم في الشريعة الإسلامية، وعلى كل فإن رحالتنا قد اندهش كثيراً عند رؤية ذلك المركب الإفرنجي، وكأنه أوّل يمني تقع عيناه على مثل هذه المراكب الحديثة ووصفها لأبناء جنسه، وهو يعود مرة أخرى إلى ذكر هذا المركب ويصفه راسماً حقيقته فيقول «وطرف المركب شمسي وكان به رجل يفلّق حطباً، ومحل قضاء الحاجة أشبه بالأكشاك سعة، وفي عرضه درجات للطّلوع إليه بغير تكلّف وربما جعل في عرضها باب كما في السَّفينة بخلاف الصِّغار فليس بينها وبين «الزعيمة» إلاَّ كما بين الأرض والدَّابة الحقيرة لكن ركوبها بغير تكلف، وقد يأخذ بيد الرّجل الآخر، هذا أكبر ما رأيت ولم أدخله، ولكنه دخله بعض الأصحاب، وحدث بما ذكر وهو بمحل من الدّيانة وقد قيل إنه حقير، وإن من المراكب ما تبلغ مدافعه في كل جانب نحو أربعين مدفعاً وزيادة وما يلحق ذلك في الاتساع حتى أنه يزرع محلاً للنّبات ويحكون عجائباً وذلك شهير».

هذه المراكب الكبيرة استوقفت صاحبنا كثيراً وجعلته يتحدّث عنها مبهوراً وكأنها شيء من عالم آخر، وربما كان هذا أمراً معتاداً لشخص ألف مثل هذه المخترعات إلا أنه في ذلك الوقت كان من العجائب الغريبة، على أنه عندما نظر إلى مراكب الميناء في الحديدة ووجدها تتفاوت يقول «ثم المراكب مع ما هي عليه من التَّفاوت فيما بينها يستغرق منها بين الماء قياس الثلثين ويظهر فوق الماء نحو قامة ونصف ودون ذلك من الصِّغار حتى لقد أخبرني بعض الحجاج أنه قد غسل يده في البحر من جانب المركب وغالب المراكب البندرية هكذا إلى ثلاثة أنواع، وأما الكبار فتزيد على ذلك وفيها دقلين أو ثلاثة».



هيكل السفينة كما رسمه المؤلف.

وهو لا يزال في الاستفاضة عن هذه المراكب ومحاولة تقريب تصورها إلى أذهاننا فيحدثنا عن الأدقال «السواري» وموضع المراقبة منها إلى غير ذلك يقول «وربما فعلوا في أحد أدقال المراكب الكبار دواراً، في وسطه يبقى فيه الذي عليه التَّصرف ومحله في سائر المراكب التي ليس فيها دوراً في السّطحة قريب من مؤخر المركب وعنده قِبْلة «بوصلة» وهي دائرة فيها خطوط من النقطة إلى منتهاها ومقابل كل خط اسم نجم والقبلة في جهة والمصرف «القائد» في مركب الفرنج فرنجي وفي مراكب الهنود هندي».

وهؤلاء يستطيعون السّفر إلى أي بلد شاؤا إلا اليمن فإنه لا يتأتّى لهم معرفة مداخلها إلاّ برجل من أهلها وهذا يدل على قدرة أهل اليمن الملاحية يقول «يسافرون حيث يريدون لا يمنعهم شيء إلاً وصول البنادر اليمنية فإنه لا يتم لهم الوصول إليها إلاً برجل من أهلها وهذه من الألطاف كفى الله سبحانه بها شر من يخشى شرّه فلا يهم الدّخول إلى مرسى جدّة واللحية ونحوهما ولا الخروج إلاّ برجل من أهل اليمن بل الظاهر أنه لا يتم لهم السفر من جدة إلى المخاء على جهة الاستقلال ولا الوصول إلى محل في مرسى جدة بحيث إذا رسى أصاب كذلك إذا قد صار لا يتم له الخروج منه على جهة المفاوته ويقال إنها قد هلكت في مرسى جدّة بسبب ذلك عدة مراكب» وهذا ما يعرف عند أهل الملاحة بالشعب المرجانية وهي عبارة عن أحجار إذا مرّ عليها المركب تحطَّم فلا يستطيع تجنبها إلا أناس لهم خبرة بمواضعها وهم غالباً من أهل اليمن.

ثم يعود إلى الحديث عن قيادة السفينة ودائرتها والشراع فيعطينا معلومات مهمة عن السّفن في ذلك الوقت يقول «ويعوّل الجميع على تلك الدَّائرة وعليها الاعتماد بمعنى أنه يكون السير في المحل الفلاني مقابلاً للنّجم الفلاني والمتصرف يقال له «ربّان» وعنده حبل عقد بعمود في مؤخر المركب يسمون ذلك بالنقرة من جهة اليمين والشمال فإذا أراد العكس فالعكس وتأثير ذلك آية عظيمة مع ما هو مشتمل عليه من ذاته. فيكون السفر حيناً

شرقاً وحيناً غرباً، أظن ذلك بحسب اقتضاء الحال وظنّي أنهم يرون الطرقات كما هي في البر، وهذا إنما هو في الصِّغار، إذ مرورها بالقرب من البرية أشبه بالدّواب الضعيفة القاصرة عن حمل الأثقال بجانب الطرقات الشاقة. وأما المراكب الكبار فلها مسرح آخر عمق القعر».

وهذه المراكب، الكبيرة منها يتحير الإنسان كيف يكون إدخالها إلى البحر بعد الفراغ من بنائها، وقد خطر هذا السؤال على ذهن رحالتنا يقول «ولما رأيت المراكب وما هي عليها من الكبر عجبت كيف يقع إدخالها إلى البحر فإن الكثير من الناس لا ينفعون في ذلك وإن بلغوا في الكثرة إلى حد يتعذّر معه الإحصاء حتى رأيت مركباً يُعمل وإذا هو يعمل بالقرب الكلي من البحر فإذا كمل عملها حفر الطِّين حتى يصل الماء إليه ويعينه الناس حتى يصير في البحر».

ثم يعود إلى شرح بقية أجزاء المركب ومم يتكوَّن «هذا وفي مؤخر المقدمة محلاً مسقوفاً على القامة فيه طاقات تسمى بالدّبوسة يختص ذلك بالحريم وبابه يسمى باب «الخارى» يبقى فيه بعض الركاب عند الحاجة إذ هو منفصل وأشرف المركب سطح ذلك ومن ثم يسمى بالسطحة يبقى فيه أعيان الناس والناخوذة والرّبان، والناخوذة عبارة عن صاحب المركب».

وكان هذا الوصف عاماً في سائر مراكب عصره، أما المركب التي أقلوها فهي لناخوذة يسمَّى إسماعيل درويش «والمركب لأولاد أخيه القاصرين ولهم عبد فيه ثبات وحسن قيام وله الأمر والنَّهي إلاَّ أنه عزل نفسه عن مرتبته المعتادة له قصداً منه ولذلك سبب اقتضى سقوطه» مؤدى هذا السقوط حسب قول مؤلفنا أنه زاد في شحنة المركب فوق المعتاد فشكاه المسافرون «وسائر الحجاج وضبط بالقيد عن أمر عامل الحديدة وأمر بالتخفيف إلى الحد المعتاد».

أما ربان السفينة فهو «يسمى خضر، رجل فيه كمال وتحافة وأناة».

ثم ينقلنا إلى أجزاء المركب التي يقلها ويذكر لنا مصطلحات أهل البحر في تسمية تلك الأجزاء وهذا مهم لمن يعتني بتاريخ هـذه الأشياء فالسطح - يعني سطح المركب «ربما سقف فيسمى ذلك شتري ولكن إنما يكون ذلك في كبار المراكب البندرية. ومحل قضاء الحاجة يسمى «زولي» وهو مضلع عيدان ثم يستَّر عليه بِسَتْرٍ يشبه الشبابيك يسع الرجل والدخول إليه من أعلاه فإذا صار الرجل فيه لا يراه أحد ممن في المركب يوثق بجانب المركب مما يلي البحر ولا خطر في ذلك أصلاً».

وينقل إلى المركب شيء من المثقلات ومحتاجات المسافرين من طعام أو بن أو بز. أما موضع جلوس الركاب «وجه المركب الظَّاهر وربما بقي في النَّادر ناس فوق شحنة المركب وكلما قرب من السطحة فهـو أشرف من مقدم المركب محلّ السّفلة والبحارين».

ثم يتجه إلى موضع الطبخ في المركب ويسمّيه «الموقد» يقول «وهو ما يصنع فيه الطَّعام لأهل البحر وعامة الناس وأما أفراد فيأخذون مواقد أو ما يحتاجونه ويصنعون في محالهم».

وكذا موضع الشرب يسمَّى «الفنطاس» يقول «وهو ما يجعل الماء فيه شيء يشبه القبّة يتسع لشيء كثير وكلما وردوا على محل ماء استقوا بقدر ما قد ينقص منه خشية الضياع ويفرق أهل المركب منه للرّكاب عموماً بقدر معلوم ويتفاوت كبر الفنـطاس وسائـر الآلات بحسب كبر المـركب وكثرة الناس وصغره وأكثر ما يحصل التشكي من أرباب المـراكب الشح بـالماء وأعيان الناس وأهل الغنى يأخذون أزياراً أشبه بالأدواح المعـروفة يتَّسـع الكبـير منها لنحـو عشر قرب بحسب تمكن صـاحبه وحـاجته وأصحـابه فيستأجرون ذلك بأجرة معلومة ويتفاوت ذلك وثمن الماء بحسب اقتضاء الحال وحسن الماء وقرب المنهل وإذا كان الاستقاء من جزيرة في البحر اتّجه على صاحب المركب حمل الماء بجعل وهم يأتون به في الزّعائم وكذلك سائر المحتاجات».

وبعد هذا الوصف الدّقيق للمركب وما يحتاج إليه المسافرون يعطينا شيئاً عن ثقافة البحارين ومعلوماتهم المتعلقة بالبحر ومخلوقاته، يقول «أخبرني ربّان المركب وغيره بأخبار ننقل ممنها وقال: أن معارفهم يأخذونها عن كتب من جملتها كتاب يسمى «الرحماني» في ورقات» وكتاب آخر بيّض المؤلف لاسمه ـ لعله غاب عنه اسمه ـ وقد حدثه ذلك الربّان عن النارجيل البحري يقول «حكى فائدة جليلة أصلاً في مأخذ النّارجيل البحري هي أنه لم يكن يعرف محلّه وما يخرج وما يوجد بأيدي الناس فإنما هو مما يطفوا على الماء ويوجد في الجزائر فكان إلى بعض السنين وبينما رجل من أهل المراكب الكبار يسافر إذ تغيّرت عليهم الريح، ووقع بهم المطر واشتد بهم الحال واستمر.

وفي ذلك المركب كتاب يحكي صفات البحر والجزائر، والأعلام والأوقات والمعادن من الكتب التي يعتمدونها لكنهم لشدة المصادرة غفلوا عنه وانتهوا إلى محل لا يعلمون أين هم فأرسلوا ميزانهم لمعرفة العمق، فوجدوه يمكن الإرساء فيه مع مشقة وآلة الإرساء عمود حديد كالخشبة، وفي أسفله خطاطيف في غاية الضّخامة ولكل مركب بحسبه ويعرف باليمن قصى؟ فأرسلوا تلك الآلة وجعلت الريح تضرب المركب يميناً وشمالاً حتى إذا كان الغد وقد سكن الحال نظروا في حالتهم ونظر الربّان في ذلك الكتاب فلم يعلم المحل إلاّ بعد تحذق كبير، فأرادوا تشهير الشّراع وأمرت العملة بنزع آلة الإرسى فحاولوها بكل ممكن فلم يمكن حتى أنهم ركبوا الشراع في مؤخر المركب من موضوعه قصداً أن يعينهم الرِّيح واجتمع غالب من في المركب يجذبون تلك الحبال المتصلة بالحديد المرسى، فبعد جهد جهيد ومشقة عظيمة خلص المركب عن شجرة هائلة أصولها وفروعها من شجر النّارجيل اشتملت على عدّة ظروف فرخص ثمنه بسبب ذلك وعرف محلّه فحرّر في كتبهم حتى أن من أناف إليه قصد ذلك المحل. وقال ـ أي الربان ـ إن ذلك في أيام مولانا الإمام المهدي العباس بن الحسين».

ويوثّق رحالتنا هذه الحكاية التي رواها له ذلك الربّان عن نارجيل البحر - وهو زيد البحر - برواية أخرى ذكرها له بحار آخر في ميناء المخاء يقول «وأخبرني بعض من قد كتب في المخاء بمعنى ذلك وأنه كان قبيل ذلك يبلغ ثمناً كبيراً جدًّا من ذلك ظرف شري بثلاث ماءة قرش وقيل بزيادة» وبعد هذه المعلومات عن البحارة والسفن وغير ذلك يشرع في الرحلة.

في جزيرة كمران

ويصل إلى جزيرة كمران يقول «وربما كان بعض الجزائر المجاورة للمراسي مأنوسة فيشرون محتاجاتهم من أهلها وقد يخرج الحجاج» وكان خروجه من بندر الحديدة في ثلث ليلة الخميس فينزل كمران بعد الشروق، وهذا من التوفيق لأن كثيراً من الناس لا يقطعون غبّتها إلا بمشقة يقول «وصلنا كمران وهذا من تيسير الله سبحانه لأنه وقع قطع الغبّة المسماة ببطن جابر وبعضهم يسمي ذلك المحل بحر القدوم - في ليلة ويحكى أنه قد يحصل البقاء فيه أياماً، وأنه اتفق لبعض الواردين أن انتهى إلى محل قرب الحديدة بحيث يراها فبقي نحو ستة أيام والريح تردّه». وفي كمران يرى بعض معالمها ويقول إن «أهلها في مشقة ويشكون الجور، ومعاشهم يجلبون الماء والتمر إلى بندر اللحية» أي أن معاشهم يكون عن طريق جلب الماء والتمر إلى اللحية وتعتبر من أعمالها ولا طريق لها عن طريق البر نهائياً ومساحتها في سعة مشي يوم عرضاً وطولاً «فيما أرى وبيوتهم عشاش وفيه ماء حلو في حفائر معمورة فوق القامة، وفيه نخل عجيب» وسبب تسمية البحر الذي أمامها ببحر القدّوم «أن بعض أهل المراكب مرّ بمركبه وفي ذلك المركب يبحر فوقع القدّوم من يده في البحر، حتى إذا كان السنة الآتية مرّ بذلك المحل وإذا بهاتف يقول: يا صاحب القدّوم الآن وصل قدومك يعني قعر البحر مبالغة في بعده» يقول عند ذكر مثل هذه الأساطير «وأمثال هذا مما لا صحّة له، وأمَّا بُعْد قعر البحر فمعلوم من حيث أنهم

يتخذون للوزن «القياس» حبالاً بالغة ويرسلون طرفها جوزة حديداً نحو عشرة أرطال يعرفون قدر العمق فقد يتفق أنهم يرسلون جميع ما أعدّوه للوزن «القياس» فلا يصل بل هذا هو الغالب في سائر البحر اليمني الماء مفاض ويمكن أن يقال مع كون الماء جسم ليس كسائر المياه العذبة يحتمل أنه بقي في خلاله أو أنه تلقاه شيء من هوام البحر وفي تمام العام صادف خلاصته من بطنه» هذا هو تعليل حكاية القدّوم وقد أفادنا كيفية قياس البحر عند بحارة اليمن.

في جزيرة حمضة

ومن جزيرة كمران يتوجه إلى جزيرة مجاورة هي جزيرة «حمضة» التي يعجبه المقام فيها بما وجد فيها من نعم وأطايب «اتفق لنا أيضاً خروج جزيرة «حمضة» محلة مأنوسة ماؤها حلو وترابها يضرب إلى الحمرة، واتفق لنا موافقة بعض الحجاج أهل الساحل وأهلها في نعمة ظاهرة جاؤا بالعسل والسمن الواسع ولهم من البقر والغنم والإبل شيء كثير قد أعدوا لها رباطات حبال طويلة بالقرب من عشاشهم وجعلوا في تلك الحبال غوائن[1] على قدر رقبتها، وعند رواحها من السوم تأتي إلى ذلك المرباط فيجعلون رقابها في محالها» يقول وهذا المحل بالقرب من جازان «محل الأشراف آل أبي عريش» والمغبّة المنسوبة إليه شهيرة «ولونها في غاية السّواد».

ذكر الغوص

وهذه المغبة معروفة باللؤلؤ فنجد رحالتنا يذكر الغوص لأجله وهو أول من وصفه من أهل اليمن يقول «يعبرون أناس على خشبات يصيدون وآخرون يغوصون قيل ولشدة الغياصة وطولها ترى أجسام أهل هذا الشأن في غاية البياض وأنه ربما بقي أياماً» وهذه خرافات عنده لا يعتبر صحتها

(١) جمع غائنة انشوطة كالعقدة.

«لأنه لا يستمسك اليوم الواحد كضم نفسه والصبر عن الزَّاد والماء ويلزم ترك الصَّلاة فالله أعلم بالصِّحة، ولا يصح أن يُقال إنه باعتبار التمرن قد اكتسب حكم ذوات الماء كالحوت ونحوه لأن الله تعالى قد جعله لمخلوقاته الكائنة فيه كما جعل لنا الهواء نستنشقه».

ويقول إنه رأى البحارة يستطيعون الصَّبر عن التنفس مقدار قراءة سورة يس «وقد رأيت البحارين في إزالة أوساخ المركب من أسفله يغيبون قدر تلاوة يس ثم يبدؤون وهكذا لعدم الغنية عن الهوى».

خبر الحوت

ولا يزال مع المؤلف في وصف عجائب البحر التي رآها وكان يتحسَّر على عدم رؤية الحيتان الكِبيرة فسأل «الربّان لِمَ لم أرها» فأخبره أن ينتظر إلى صبح اليوم الثاني «وجاء وإذا ثمة حوتاً صغيرة وحولها طيور كثيرة على وجه الماء تلتقط شيئاً وفي خلال هذا التأمّل رأينا سقوط ماء وحوت وطيور وارتفاع ماء آخر فسألت عن ذلك فقيل ثمة حوتاً كبيراً انفتح فاه بإلهام من الله تعالى يتلقَّى الحوت الصِّغار والطيور فتعود من أجله ثم بعد برهة تجلَّى جانباً منه مثل أعلاء الأكمة بالغ بعضهم فقال هو شدقه ولعلّه ظهره وغير بعيد صحّة المبالغة»، هذا هو الحوت الكبير لعله ما يعرف بالعنبر وربما غيره كالبتان والبال ونحوه. يقول «وبالجملة ففي البحر عجائب لا يستطاع حصرها».

ويذكر من آلة الصيد وطريقتهم في ذلك فيقول «وآلة الصَّيد شيء تشبه الشبكة يسمونه بذلك وفي أطرافه خطاطيف يجعل فيها ما يأكله الحوت بخطافه فيقع في جانب منه فيجذب به والكبار تحتاج إلى مزاولة وقد أعدوا لذلك رماحاً وموت الكبار بطيء».

وطعم الصَّغير منه يشبه لحم الدجاج «إلاّ أنه أسرع نضاجاً ويتفتت»

ويلاحظ ملاحظة أخرى هي أن المسابح (جمع مسبحة معروف) التي يقال لها صدف ربما تستخرج من أعين الحوت ويقرن ذلك بواقعة حال رآها في القنفذة «اتَّفق وأنا في بندر القنفذة أن أخذت عيني حوتين وفقأتهما فوجدت في كل واحدة منهما حبّة ليّنة تشبه ذلك ثم عن قريب تصلّبت واشتد تصلبها حتى تحجرت فلعلّ هذا من فوائد الحوت ولم أقف على علم ذلك».

في القنفذة

وهذه القنفذة كان قد نزلها رحّالتنا مع صحبه بقصد التزوّد «وفيه الحاج محمد جمال فيه رغبة إلى أهل اليمن خصوصاً الحجاج منهم ما هي إلاّ غريزته وله عناية بهم بقينا لديه في حالة حسنة» وفي القنفذة يلتقي بواليها ويصفه بالمعرفة والعلم وقد سأله عن مسائل أجاب عنها وكذا سأل صاحبنا «وأفاد من النصح ما أفاد في بقية السفر ومن جملة ما أشار به عدم الحج من جانب البحر وحرَّض في ذلك وذكر أنه يحصل من أهل تلك المحلات تربّشات تعود بالنقص».

الليث

ثم يصل إلى الليث بعد تأخر في البحر أزعج المسافرين «وكاد أن يضجّ أكثر الناس ويخشون من فوات الحج فلما وصل إلى ذلك المحل خرج منه جماعة وخرجت في الجملة» وكان نزوله بقصد التنزه ومعرفة هذا البلد فما يكاد يصل إلى البر حتى يقابله جماعة من الجمالة «بجمال عديدة وحصل منهم من الترغيب ما لا مزيد عليه» وكاد أن يركن إلى ترغيبهم في السّفر بالبر لولا أنه قد أودع مشورة الوالي السابق ذكره أذناً واعية فواصل سفره في البحر «وبالجملة فقد سافرنا سفراً عجيباً مناسباً وإن كانت الريح متهيئة ففي الأناة راحة» وفي هذا السير لم يحدث إلاّ تدوير الشراع وذلك لمعاكسته اتجاه الريح يقول «وتحقيقه متى كان السَّفر وفق الرِّيح ركب الشراع في

مقدم المركب، فإذا كانت الرِّيح في وجه المركب بحيث تردّه يسمّى ذلك السفر مجاوشة حيناً يميناً وحيناً شمالاً بمعنى أنه يركب الشراع في أحد جانبي المركب ويمشي من جهة ما بين المشرق والقبلة برهة، ثم ينقل جهة ما بين المغرب والقبلة أخرى إذا كان السّفر إلى جهة القبلة وإن كان إلى جهة العدن(١) فالعكس إلى غير ذلك فإذا تحوّلت الرِّيح احتج إلى فعل الشراع حلّت الجبال ونقلت إلى محال تليق ويحتاج ذلك إلى تثبت».

وقد حدث أن نقلوا الشراع فوقع المحذور وتفلّت من أيديهم، وهنا وقع النَّاس في أمر مريج نترك صاحبنا يرويه بأسلوبه الرّصين يقول «فلما انحلّوا الدومان(٢) وأرادوا نقله إلى المقدم ذهب من أيديهم لشدّة الريح فتعثر المركب وسكن في مشيه وتعثّر في حركته واشتد في ذلك وحصلت ضجّة عظيمة وفزع جميع من في المركب وما يعتاد من الحجاج بالتثبّت وحصل من الشرك بالله والهتف بالأولياء» وبلغ الحال أشده بعد أن حاول البحارة الهرب يقول «وهم البحارون بإنجاء أنفسهم في الزعيمة وذهلوا حتى أنه ثمة صحفة فيها عجين خميرة من طعامهم فكان الرجل منهم يمر بسرعة فيدسع(٣) فيها ثم الآخر، وهم لا يشعرون والشراع ينزل قليلاً بحيث لا يمكن أن يظفر به ثم يرتفع والمركب على ما هو عليه من التعثر وظن الأكثر عدم السلامة».

وبينما النَّاس في هذا الهرج والخوف والوجل كان صاحبنا في غاية من الثبات ورباطة الجأش جهلاً منه رحمه الله بما قد يترتّب عليه الأمر، وربما كان لصغر سن رحالتنا في ذلك الوقت ـ حيث لم يتجاوز الثانية والعشرين ـ أثر في عدم تقدير العواقب كما هو الحال عند من هو في مثل هذا العمر يقول راوياً عن نفسه «وأما كاتب الأحرف فلم يداخله روع بحمد الله

(١) أي جهة الجنوب المحاذية لمدينة عدن

(٢) هو العمود الذي يحمل الشراع وانحلوا هنا بمعنى «حلّوا»

(٣) يد حق برجله.

جهلاً بقَدْر المتفقه حتى أني عند شدة الضجّة رأيت رجلاً من أصحابي وقد غطّى على وجهه فقلت له: قل سلامات فكان يقول والتفت الناس إلينا ونظروا ما هنالك وصرخوا ثم كذلك».

وبينما هم مستيقنون الغرق إذ بهم أمام مركب آخر «وكان عقبنا مركباً وهم يسمون كلا من المترافقين سنداً، ولكنه لا يساير ما نحن فيه لاشتهاره بالمشي فلم نشعر إلاّ وهو قريب منا وقد طرح الشّراع قطعاً منه بالهلاك ليسلم من أمكن حتى أظفر الله سبحانه بما ذهب على يد صبي من عبيد الحضارم وثب إلى الهوا كالطّائر فنقله حتى تمكنوا منه وأثبتوه».

ومع توفّر النّجاة لا يزال رحالتنا في حيرته عن سبب هذه الضجّة والخوف والمركب لا يزال راسٍ في البحر فيجيبه أحدهم أنه إذا استمر هكذا بدون شراع ربما قلبه الريح أو ما هذا معناه يقول «ولما استقر الحال سألت عن موجب شدّة الفزع وأنه وإن ذهب ـ يعني الشِّراع ـ فالمركب بحاله ساكن فقالوا: بل إن قوة الريح وثقل المركب تتجاذبا فكل منهما يجر إليه بشدّة فلما انفلت أحدهما عن الآخر كان المؤمل «المتوقّع» فيما يقع كذلك أن يصعد الشراع ويرسب المركب فنغرق».

الوصول إلى جدة

وأخيراً حطّ المركب مرساته على ميناء جدّة فيمكث في المركب ليلة «كان وصولنا مرسى جدّة آخر نهار الأحد والخروج صبح يوم الاثنين ثالث شهر الحجة الحرام» وقد وجد جدّة في حالة يُرثى لها من الإهمال والفوضى يقول «فإن هذه المحلة أخذت من كآبة الدنيا بأوفر نصيب ولا أقدر أصف شيئاً مما هي مشتملة عليه» وكان أول ما فاجأه هو حرَّها الشَّديد «فإن كانت النَّار في السّماء فهي فوقها أو في الأرض فهي تحتها» ثم ينظر إلى جدة فيجدها مدينة ظلمها الإهمال وجبروت الحكام وإن كان فيها من آثار الماضي ما ينبىء بالأمجاد والعظمة «مع أن عليها مخائل التَّأسيس والقوّة

والدور الشامخة ودائرها قد صار متهدّماً وثمة في الفرضة مدافعاً على اختلاف في الكبر متروكة هملاً، ومثله من الأدراك ينبغي أن تلحظ بعين الصّلاح لا سيما مع ما بلغ من خبر الإفرنج وكذلك سائر بنادر اليمن» وهذا إنذار يوجّهه إلى الحكام لليقظة والانتباه في حفظ البلد مع تزايد خطر الأوروبيين خلال القرن الثالث عشر، وكأن المؤلف ينظر إلى ما وراء الغيب وما سينتهي إليه الحال من استعمار عدن وسائر البلاد العربية.

وفي جدة يجد قبراً مستطيلاً «طويلاً عريضاً إلى غاية يقولون هو قبر حوا والله أعلم بالصحة».

في الميناء والرّحلة إلى مكة المكرمة

ساءه كثيراً معاملة جنود الشريف لحجاج اليمن، ومع أنه يحمل رسالة من عامل الحديدة إلى باشا جدّة في التوصية بهم إلاّ أن هذا لم يجد بالنّسبة للآخرين يقول:

«أظهر بعض عناية وأرسل لنا أمير بحر بسنبوق ومعه جماعة من أهل محله فجعلوا يأخذون في أعراض الحجاج أهل اليمن ويفحشون عليهم في القول حتى سمعت من يقول: يا أهل اليمن ما يدخل بكم الحرمين الشَّريفين تنجسونهما يا أنجاس يا أرجاس وغير ذلك ما يسوّد صحائفهم، ثم بعد ذلك استباحة أموالهم حتى كأن لا حرمة لهم» هذا وقع أمام المؤلف وسمعه وبصره، ثم يقول «وما وقع من التجليل إنما هو تكلف وعلى الجملة فالأغراب يلاقون منهم ملاقاة عظيمة، وأما إذا توفى الله أحدهم ولو خادماً أو غريباً كانت ذريعة واضحة في أخذ مال غيره ويكفي كون الجميع من اليمن أو من العجم».

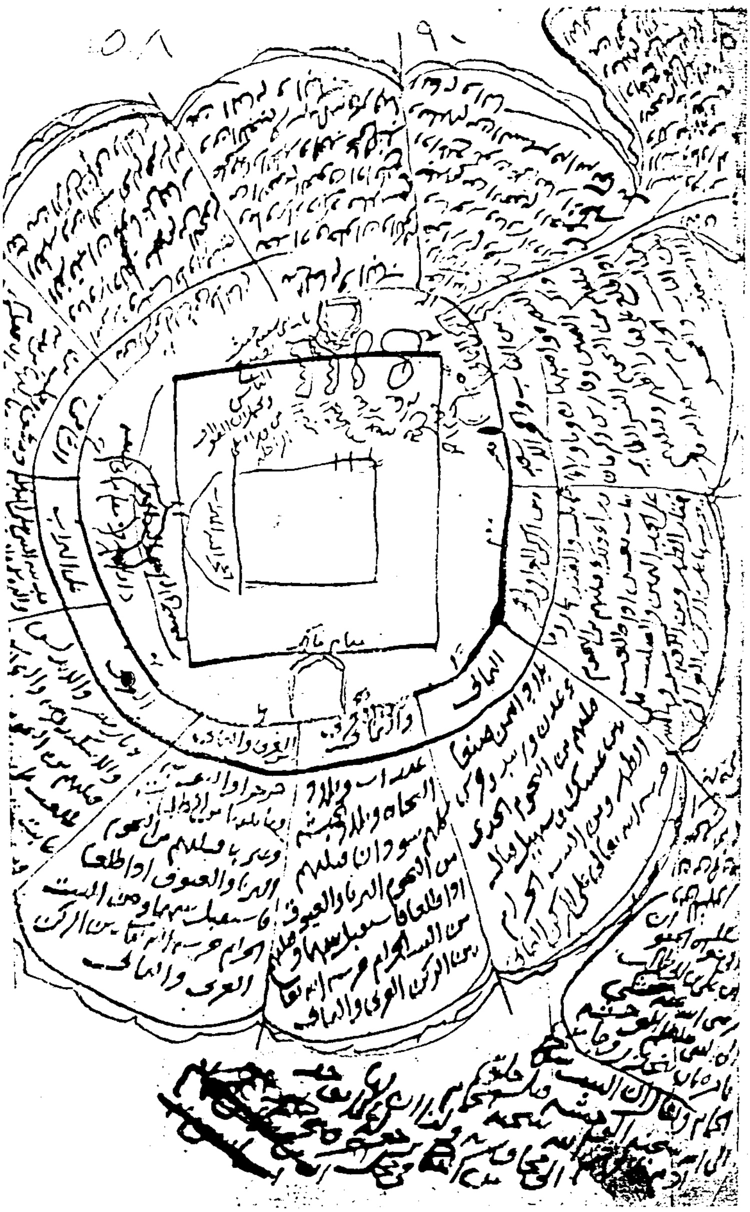
ثم جاءه رسول من باشة جدة يخبره بأنه عيَّن له بيتاً في جدّة فيرفض عرضه موثراً العزم مع رفقته إلى مكة المكرمة «فاعتذرت محبّة العزم آخر

ذلك اليوم والمدة بين جدّة ومكة يـومان» ويـرى في الطريق النَّـاس وقد أنهكهم الجور «وقد اعترى أهلها بما قد اعتراها فإذا أطلقت أنت إلى مكة في ليلة واحدة كأنمـا أطلق من أقفاص» كـذا عبارة المؤلف وفيهـا بعض الغموض «وكان خروجنا منها آخر يوم الاثنين ثالث الشهر. وصلنا جدّة آخر الليل فأقلنا بها إلى آخر يوم الثلاثاء الرَّابع وعزمنا ووصلنا محروس مكة المشرفة قريب الثلث الأخير وأتينا باب إبراهيم لوضع الأمتعة إذ كان البيت بالقرب منه وأتينا الحرم الشريف».

وصف الكعبة المشرفة

كان وصوله مكة ليلاً وقد تهيَّأ للقدوم واستقبال الكعبة المشرفة فكان لذلك مهابة في نفسه لا توصف يقول: «وأما حالة القدوم ومشاهدة البيت الحرام فهو أمر عظيم يأخذ بمجامع القلوب جلالة ومهابة يظن الرائي كأن الجنة سيما إذا كان القدوم ليلاً فأمر لا يقاس بجلاله وعظمته، أما البيت فكـما صوّر في الأوراق[1] وطـول الكعبة سبعـة وعشرين ذراعاً والكسـوة معروفة يتبرك بوضع قطع منها على الموتى وعليها حزام وخمار وتشمر الكسوة للصِّيانة فوق القامة أيام الموسم إلى حد لا تنالها الأيـدي والأجسام وإلاّ لزّقها الازدحام، وعليه أولاً صَرْح حاجز ثمن صرح جامع صنعاء مصلول مرمر، وعليه دائرة دعائم من نحاس قيل هي المدافع التي أخذت عـلى أبرهة الحبشي ولم يكن عليها سقف إلا أن ثمة أعمدة حديد توضع عليها القناديل بين الدَّعامتين نحو سبعة قناديل الجميع نحو مائتي قنديل تضيء، والمدافع نحو عشرين مدفعاً وفي سائـر الحرم من القنـاديل مـا يقوم بـه وصوامع الحرم سبع ومن وراء الصرح المذكور صرحاً كبيراً بعضه مصلول وبعضه خالي. والحمام يبقى به لا يداخلهن روع بل ربّما نحّاهن الرجل عن الطريق برجله ويفتقرن من الطعام إلى شيء واسع قد وقف الناس في جميع

(١) أنظر الصورة كما رسمها المؤلف.



الكعبة المشرفة كما رسمها صاحب الرحلة.

الجهات لهن شيئاً واسعاً من ذلك في أرض اليمن ويصل لذلك جماعة من الأغوات (وهو وقف مقرر في دولة سنان الذي وضعه في حفظ الأوقاف يأتي في جزئين ضخمين، وقد أجاد لأنه شامل لأوقاف المساجد والعلماء والمتعلمين وغير ذلك على تفاصيل متقنة) ومن جهة الشام من ذلك محلّه بئر زمزم بينها وبين الكعبة ثمان وثلاثون ذراعاً عليها دوّار نحو القامة تقوم السّقاة عليه وعليها بناء مربع». وقد تعجَّب من مزاحمة السّقاة والباعة للحجاج في الحرم فقال «والسقاة وغيرهم يستطرقون الحرم من كل جهة بقربهم، ويدخلون دوابهم إلى أثنائه قيل وفي غير أيام الموسم «انتهاك» حرمته أزيد ويرون حل البيع والشراء والخصام وهذه مسائل يتوجَّه الكلام عليها والنكير».

ثم يعود إلى وصف الحرم ويشير إلى أبوابه «له أبواب عديدة في الجهة الثمانية والعشرة المجموع ثمانية وثلاثون باباً منها باب السلام وباب إبراهيم. وباب النّبي وباب العباس، وباب علي، وباب النعوش، وباب الصّفا، وباب جياد، وباب دار السعادة، وباب الحاكم، وباب حرورة، وباب الداؤدية، وباب العمرة، وباب الحسن، وباب الباسطية، وباب القطبي، وباب المحكمة، وباب الدّرسة، وباب الوداع وغير ذلك وسطح بئر زمزم عليه مقام الشّافعي من جهة الشرق ومقام الحنفي من جهة الشمال، ومن جهة اليمن مقام المالكي ومن جهة الغرب مقام الحنبلي وأقوى المذاهب المذهب الحنفي وهو مذهب سلطان الإسلام وفي اجتماع النَّاس مع من صلًى أول الوقت تلك الصلاة أكثر ويتلوه الشافعي ثم المالكي وأما الحنبلي فقد صار لا تقام فيه صلاة أصلاً والطواشية باقين فيه ولعلً قد انقطع مقلّدوه» وقد اعتبر المؤلف هذه المقامات من البدع الداعية إلى تفريق المسلمين يقول «وهذا مما يدعو النَّاس إلى التفرق المنهي عنه وتعدّد الجماعات خصوصاً في المغرب بدعة مجمع على كراهيتها بل تحريمها».

ومن الطريف ما ذكره المؤلف أن أحدهم «سأل رجلاً من أهل اليمن

عن مقام الزيدية أين يكون فقال له لا أعلم ولكن إن رأيت تستأجر لنا مقام الحنبلي».

وبعد فراغه من وصف الحرم المكي وقيامه بالمناسك يعود إلى أصحابه ويذكر أنه «حجّ هذا العام خلق كثير ومن أهل اليمن جماعة وصحبني الحاج الفاضل حسن بن ناصر الحميري الرَّوضي من أهل الديانة والأمانة، والحاج أحمد الحضُوري، والحاج سعد السنحاني والفقيه الكامل محمد بن حامد شاكر، والفقيه الفاضل التقي صالح بن محسن الجبرتي، والفقيه صالح الأسدي، والحاج زيد بركات، وممن حج هذا العام من الأعيان القاضي العلامة محمد بن أحمد مشحم[1] كان هو وجماعة من الفقهاء الفضلاء بني سهيل ولعله لم يصف الحال بينهم اتفقت أنا وهم في الحديدة».

ويصف موسم تلك السنة التي حجها كما جرت عادة الحجاج في كل سنة فيقول «وكان الموسم في هذا العام في قوة فإن نقلة المحمل المصري نحو ثمان ساعات والحال أنه دون الشامي باعتبار انضمام المغربي إليه. كان مروره من وسط مكة من باب إبراهيم وكان لنا مبيتاً بالقرب منه وغالب أهل اليمن يبقون ثمة والآخرون في محل سهل المونة بعريم شعب جياد فكان أول مرور أصحابه عند الشّروق، أولاً جمال عليها جرايات كبار ثم جمال عليها ركّاب وبندقين كبيرتين من نحو خمسة عشر قفلة إلى ثلاثين وخلق كثير، وهم يرمون مراسلة والجمّال لا يتأثر من ذلك بشيء» ويمضي في وصف الحجاج وما شاهده في حجه هذا وهو لا يزال في وصف الحاج المصري يقول «ثم بعد ذلك ركاب على جمال مزينة بمطارح الخيل ونحوها،

---

(١) وقد وقفنا على رحلته إلى مكة المكرمة وهي عبارة ثلاث ورقات ذكر فيها العلماء الذين قابلهم ولم يصف المشاهد ولا المراحل يقول في أولها: «من مواهب ذي الجلال والإكرام تيسير الحج إلى بيته الحرام للعبد الفقير محمد بن أحمد مشحم في سنة ١٢١١ وجرت من الألطاف الظاهرة والخفية ما يعجز عن حصره البرية» الخ.

ثم على بغال ثم على خيل ثم شباري[1] ثم شقاديف كل جنس شيئاً كثيراً بحيث يقع الإزقام[2] في الطريق عند التعارض، وثلاثة تخوت وبعد مرور طائفة مشتملة على جميع الأجناس المذكورة ما يظن أنه الباشا وعليه ظلة صغيرة وفي خلال ذلك يظهر شيء يسمونه المحمل أشبه بقبة صغيرة رأيته مستوراً ومجرداً فحال سيره الحالة المذكورة عليه كسوة حمراء مدبّجة بالذّهب أشبه بمطارح الخيل الفاخرة وحال كونه مجرداً أصله مضلّع فضة وأعلاه خوذة كذلك والحاشية وعامة النّاس حوله يظن أن به ملك وداخله يقولون مصحف يهدى من جناب السُّلطان إلى الحرم الشريف في كل عام وفيه الوقفية» هذا موكب المحمل المبعوث من مصر أما موكب الباشا «حاكم مكة» فله شأن آخر يقول «وعقب ذلك الباشة على هيئة جميلة وعليه ظلة أكبر وأفخر من اللذين تقدمتا وهو يرد التحية على من بالطريق بالإشارة اللطيفة يميناً وشمالاً، وهم يجيبونه بتجليل ويضعون أيديهم فوق رؤوسهم، ولم ينقطع آخرهم إلاّ قريب ضحوة ذلك اليوم. وثمة جمال عليها شداد وخيام ومدافع ما ينعد حصره ومع هذا فمن تقدم وتأخر بحاله، ويعتدّون الجم الغفير من الإبل والتّخوت تحملها البغال العظيمة وثمة مرايا فربّما مرّ الباشا أيام منى على الجمار وهو به فمتى حاذى إحداهن فتح له إحدى المرايا فيرمي ثم يغلق، وقد قيل أنهم متى أرادوا سقي دوابهم حفروا حفيرة ثم اغترفوا إليها فيسقون منها ويبقى مورداً لأقرب محلة».

وهذا هو الموسم كما رآه وشاهده رحالتنا وقد هاله كثرة الناس واختلاطهم، وفي هذا العام وصلتهم أخبار عن دخول الفرنج الدِّيار المصرية يقول «بلغت أخبار من شأن الفرنج، ودخولهم مصر والسبب قيل أنه حصل بينهم وبين متولي مصر من بني بويه[3] مفاوتة وقد أقدم ابن

(١) سرر تحملها الجمال ونحوها
(٢) التماسك.
(٣) لعله يعني بهم المماليك.

بارتوه[1] الفرنجي وانتهب ما أجلب به من التّجارة وقيل إنه عن تسليط من السلطان لتمرّد بني بويه عن طاعة أمره هكذا بلغ ولم تتضح الحقيقة».

ومما يهم النَّاس أيضاً في الحج أمر الطعام والأسعار ونحو ذلك يقول «أما أخبار الموسم فذكر أهل الاختبار أن البضائع ضعيفة قليلة وأما الطعام وغيره فموجود وأسعار مليحة القدح الحنطة بقرش والذّرة قدح ونصف بقرش فرانصي وإن كان القدح عندهم ليس المعروف بصنعاء، وإنما هو كيلات معلومة والقرش عندهم عبارة عن ربع قرش، وأما الفرانصي فهو ريال كذلك السّمن يأتي بالقرش الحجر أربعة أرطال والعسل خمسة أرطال والرأس الغنم بثمن قرش إلاّ قريب البحر فإنه ارتفع قليلاً وهذا خير كبير بالنسبة إلى القحط الشديد في هذا العام».

وكانت الحالة في صنعاء واليمن على غير ما هي عليه في موسم الحج في مكة فإنه ترك البلاد وهي في أشد الفاقة يقول «فإنا عزمنا وأهل اليمن في أشد حال قد اجتمع عليهم مشقة العدم وارتفاع الأسعار ارتفاعاً مجاوزاً بلغ القدح الحنطة خمسة قروش حجراً والقدح الطَّعام أربعة قروش وقد نضبت الآبار والغيول وحصل موت كثير وكثر موت الدَّواب في الطرقات من الجوع فربما رأى رجل رجلاً منهم فظن أنه قد مات فإذا طعم لقمات وسقي قليلاً من الماء أفاق وقام في الحالة يمشي ويطلب الزّيادة ووقعت الرجفات والزَّلازل التي غارت بسببها الأنهار وظهرت حيوانات اعتقد بعض الناس أنها ذئاب وكان ظهورها في بلاد البستان وسنحان وهَمْدان والسر، وقاع صنعاء وما زالت تختلف في خلال هذه الجهات وتعدوا على السفر في الطّرقات حتى يخشى النَّاس منها وقتلت جماعة».

الطلوع إلى عرفات

كانت المواكب التي شاهدها رحالتنا المؤرخ يحيى بن المطهّر هي من

(١) هو نابليون.

مظاهر الحاج، أما الحج الحقيقي فإنه يبتدى بالطّلوع إلى جبل عرفات ولم تكن الطرق في ذلك الوقت سهلة ولا متقاربة كما هو الحال عليه الآن وإنما هي مشاق ومخاوف يقول «بتنا في مكة المشرفة وعزمنا طلوع عرفات ليلة الأحد المتردد في تاريخها ثامن أو تاسع الشَّهر. وفي هذه الليلة نهبوا جماعة من الحجاج قرب العلمين، ومن أهل صنعاء أفراد، وذلك أنا طلعنا الليلة المذكورة وكنت على ذلول سريع السير مع ما عليه من الأثقال فسلكنا عراض القافلة حتى أتينا على أولها وسبقنا قليلاً وبينما نحن كذلك، إذ بصراخ أناس وهم يمشون القهقرى حتى انتهوا إلينا وكنت وجماعة من الأصحاب وغيرهم، وبعض كان قد سبقوا بالمحمل فرأينا حشداً حتى وصلوا إلينا وبقينا على أهبة ولما علموا ذلك أسرجت المشاعيل والفوانيس وكانوا على أهبة من السلاح وحصل القدوم على السلامة».

وأخيراً وبعد هذه المخاوف من قبل بعض المتقطعين وغيرهم يصل إلى عرفات «وكان وصولنا عرفات منذ أذان الفجر الآخر وثمة كانت الصلاة فوصلنا وادٍ قد نصبت فيه خيام البوش والأتباع وبعض الناس طلع قبيل يوم التروية ومن بعد ذلك لم تزل الطريق متصلة المارين بها يأتون من كل فج عميق، وكان قدوم المحامل وجلّة الناس صبح يوم الاثنين المذكور وحجاج اليمن وصلوا يوم التروية كما هي عادتهم حتى قيل إنهم قد يتراخوا في الطائف ونحوه حتى يصلوا ذلك اليوم وهذا ليس بصواب فإن التمتع بالبيت من القرب والحسنة فيه مضاعفة».

وكان الوقوف يوم الأحد «احتياطاً والوقوف الأعظم يوم الاثنين وما أحسن من احتاط في مثل هذا المقام فإنه انكشف أن الوقوف حقًّا يوم الأحد لشهادة قامت في المدينة المشرفة ونحوها وأقيمت شهادة بمكة، ولم نعمل بها كذا قيل ولعله من التعمق في الشهادة والأمر في مثل هذا أهون إذ لا يقع فيه لأحد، وقد قبل النبي ﷺ شهادة الأعرابي في دخول رمضان ولم يسأله عن غير الشهادتين» وعلى الجملة فإن رحالتنا أمضى مناسك الحج

في أمن واطمئنان وقد أثنى على أهل مكة بالخير فقال «وأهل تلك الديار على حالة حسنة وفيهم من عليه ملابس التَّقوى والعرفان وفيهم الأعلام أهل التحقيق والواردون «القادمون» أكثر والسنة النبوية فيهم ظاهرة لولا جماعة من الطغام لا يفرّقون بين الناقة والجمل والأحوال المنكرة».

وقد كثر جماعة من أولئك الأغبياء والجهال حتى أصبحت أخبارهم حديث الناس يذكر عن أحدهم أنه أخبره «بأنه ورد رجل شامي إلى الحرم عليه كوديان يترشح بلبسه إلى التشبه بالعقلاء المتبوعين فجعل يتعدَّى النَّاس ومعه أعوان ممن على طريقته في الجهل فربما أمرهم بالإقدام إلى أحد فيفعلون حتى يغتر به الغني ويحشّمه ولعله يترقب الأوقات الخالية» وبينما هذا الرجل لا يزال في التمويه وإيهام النَّاس بأنه أحد الباشوات إذ به يكتشف على حقيقته من قبل أحد أصحابه يقول «إذا برجل شامي من أهل الاختبار فلما رآه أخذ نعلاً وأقدم به عليه وهو يقول له تغرّ الناس وتفتنهم بالتّشبه بالفندة أو بالفندية يا فاعل وتقدم إليه وهو يتحرزه ويقسم أن لا يعود إلى ذلك حتى عفى عنه وخلَّى سبيله».

ومن منكرات العوام التي شاهدها المؤلف أثناء حجّه هذا مفاسد كثيرة لعل أخطرها الشرك بالله يقول «ومن المفاسد التي اعتقدها العوام وسكت عنها العلماء الأعلام اعتقاد الأولياء والشغلة بهم والهتف بأصنامهم في تلك الديار وغيرها وهذا شرك، والله تعالى يقول ولا تدعوا مع الله أحداً» وقد وقعت لهم حادثة بسبب تلك العقائد الضَّالة يقول «هي أن دلالاً كان يتردّد إلينا ويأتي بما نحتاجه فاتفق أن أخذ علينا أعياناً وكذا على الخبرة وسائر النَّاس ولجأ إلى المحجوب ولي مشهور هنالك وكان آخر العهد به» فلما طلبوه وجدوه عند المحجوب «وكأنه ورد في الشريعة أنه يترك من لجأ إلى المحجوب» ولكنه لم يترك وأخذ ما سلبه.

وفي هذا الحج التقى رحالتنا بالعلامة الكبير إبراهيم بن محمد الأمير

«فهو باق بمكة المشرفة وبعض أهله وارتحاله من صنعاء لأسباب منها جفوة الزّمان وإلاّ فهو من عيون الأعيان».

وقد اجتمع بجماعة من علماء مكة ووجد فيهم الإنصاف والرجوع إليه ما بيّنه في رحلته هذه يقول «وما يقال إن أهل تلك الدِّيار يتعلّلون ويسألون عن المذهب ونحو ذلك فإنما هو من العوام وربما اعتقد بعض الأعلام في أهل هذه الدِّيار ما لا أصل له. أو شيء يتحدث به العامة أو شيء اطلع عليه من لم يعرف الحقائق ونقله». كذا حال العلماء على الحقيقة أما العوام «فيكفرون ويفسّقون من خالف ما هو الحق عندهم ولم يوافقهم ويعادون ويوالون كما يحصل بين مختلف الملل يظهر ذلك في صفحات وجوههم وفلتات ألسنتهم ولهم تعلُّلات وإن لم أرها، صار ذلك دَيْدنا ولا شك أن في أهل اليمن بل أهل الدنيا صلحاء وطلحاء ومنصفون ومتعصبون ولا يكاد يوجد مقيد بمذهب منصف أصلاً».

وفي عرفات والنَّاس مخيّمين يطلع والي مكة الشريف غالب بن مساعد بحاشيته وأعوانه «وكان وصل إلى العلمين في أبهة كبيرة ثم انعزل بخاصته وأصحابه وحاشيته وصلّوا على الأثر ولم أثبت الجميع إلاّ في الإفاضة وله بيت بعرفات ليس إلاّ هو. وكان موقفنا بالقرب من دار الشريف المذكور ومورد الماء وأهل اليمن لا يتعدّون ذلك الموقف حوالي أكمه هناك وموقف كاتب الأحرف «يعني الرحالة نفسه» ومرافقه أعلاها محل لم يتّسع لزيادة على الخيمة».

وفي هذا اليوم يوم الوقفة يصل الفقيه محمد النسري بحجة لأحدهم ومعه أخبار تتعلّق بحال الوطن فقد توفي القاضي العلامة علي بن محمد الشوكاني والعلامة عبدالله بن المنصور وفي آخر اليوم يتأهّب النَّاس للإفاضة و«خرج الشَّريف غالب عند إرادة الإفاضة قبيل الغروب في عصابة مليحة وهيئة حسنة وهو محرم متجرّد إلاّ ثوبي إحرامه وعليه قرع «صلع» ولم يكن قد استرسل «انتشر» وعليه ظلة أنيقة وليست بكبيرة وقد أعد لحملها رجلاً

من عبيده» ويرى مع الشّريف من يحمل قصبته غليون قيل هي للشريف يقول «ولا خشية عندهم في استعمال التتن يستعمله الشريف والوضيع كسائر المباحات وفي ديارنا «يعني اليمن» يختلف الحال فيه وفي نشقه فعند بعضهم حرام وبعضهم يتجنّبه تقشفاً وهو عنده مباح» أما المؤلف فيرى أن الطّبيعة السليمة بقبحه ولكن الدّليل الشرعي لا يثبت تحريمه يقول «والظاهر أنه مما يحكم العقل مقبحه لأنه لو نظره إنسان بديهة من دون تمرّن فرأى رجلاً قد جمع تلك الآلة، ثم أخذ شيئاً وجعل يمجّه إليه قليلاً، ثم تنتفخ أوداجه فيخرج منه دخان منتن ثم كذلك وسأل عنه فقيل هذه أشجار تجمع وتحرق لحكم بقبحه، وأما من جهة النّظر والاستدلال فثمة أدلة تقضي بالتحليل والتّحريم».

وهذا الشريف وخواصه يذكر عنه المؤلف الظلم والجبروت والإسراع في إزهاق الأرواح البريئة ويذكر في ذلك قصصاً سمع بها في أثناء حجه هذا لعل من الطريف أن نشير إلى شيء منها يقول «جيء بجماعة قيل اتهموا بسرقة فضبطهم الشريف غالب بالحديد وعند وصوله مكة أمر بضرب أعناقهم، وكانوا أربعة، وصلبوا على باب داره يمر بهم الخاص والعام للإرهاب».

وفي خروج الناس من عرفة للإفاضة يقع الإزدحام الشديد وهو مما يستنكره المؤلف ويراه من المنكرات القبيحة يقول «وهو أسلوب منكر ومسلك مستنكر كأنه ورد بذلك شرع لأنّه يجتمع من أهل الدنيا ما لا يحصى ويريدون الخروج من مثل ما بين الظهرين بعَدَنَيْ صنعاء فيحصل التَّزاحم والتراكم، حتى كأن باباً قبلهم مغلقاً، ووراءهم ما يهمهم فينفتح فينقضون بسرعة بجري وزعاق وصراخ كيوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وترى الناس سكارى فإذا وقع رجل أو دابة على الأرض هلك وهو مظنّة لذلك سيما كون الوقت أول اللّيل وفي المحمل القوي والضعيف

والرّجل والمرأة والصبي فما شأنهم عند أهل القراش[1] وعند التّعارض» وقد أخبره بعض مرافقيه أنه «وقع حماره في تلك الحال أو نحوها فهلك بالدوس، وربما ذهبت أسلحة وأمتعة كثيرة، فهذا الصَّنيع من المنكرات القبيحة تجل الشّريعة المطهرة أن تتضمن استحباب الإزدحام في ذلك الوقت فرضاً عن وجوبه، بل لا يبعد أن يشتمل على كراهته أو تحريمه» ويرى المؤلف أن الخروج من هذا الازدحام لا يتأتى إلاَّ بالتأني «فالسَّلامة إهمال هذا الأمر والتأخر حتى يمكن الخروج من المحل المخصوص، وصورته علمان مفترقان مقضّضان على رأس كل واحد منهما ثلاث شرافات قدر ما بينهما مثل جامع صنعاء مرّة ونصف أو مرّتين يقع المرور ما بينهما فالسلامة من هذه المصيبة المرور من أيمن ذلك وأيسره».

المبيت بمزدلفة

وبعد هذه الصّرخة الإصلاحية يعود المؤلف إلى سرد أخبار رحلته ويذكر المبيت بمزدلفة يقول «وكان المبيت بمزدلفة المعروفة من مأزمي[2] عرفة إلى مأزمي وادي محسر الليلة المذكورة وجمع العشائين بها تأخيراً، كان الوصول أوان العشاء وبتنا ثَمَّة، وهي محلّة تضيق عن الحجيج فإنا بتنا وكل واحد إلى جانب الآخر وأحببت مباشرة الرِّمال الطيبة ففارقت الرفقة وانفردت وآخر توجه إلى محل بين خلق لا أعرفهم فاستطبت ورفيقي ذلك المقام، ولم نُعلم الر..ة محلنا حتى ذهبوا بينما نحن بتنا على حال قد يتّصف بالازدحام».

وتأخذ صاحبينا سنة من النوم فينتبهان وقد ذهب عنهما رفقتهما، وهنا يأخذان في غمار الناس دون استعجال أو وجل «إذ انتبهنا وقد رحل الخلق ولم يبقَ من الناس إلاّ أفراد فذهبت ورفيقي نستبق والنَّاس يمشون

(١) الحيوانات.

(٢) مثنى مأزم: المضيق بين الجبلين أو الواديين.

إلى منى على نحو ما يقع بينهم بين العلمين من الصّنيع المنكر فعدلنا من أيسر الطَّريق من محل كثير الشجر وفيه آبار قريبة الماء عذبة وفي خلالها من الحجاج أفراد وصل كل بئر من تلك الآبار من البدو والحريم فيسقون من ورد عليهم» وهناك تُدركهما صلاة الفجر فيصلّي مع رفيقه «واستقينا ولم نزل نمشي ونحن في عامة ذلك السير منفردين عن الأنيس وكان ذلك أوان الشروق فمررنا بالمشعر وهو اسم شامل لمزدلفة».

في منى

يصل رفيقانا إلى منى فيجدان الناس مجتمعين به وهناك يتفقان بأصحابهما «لما وصلنا منى وجدناه قد غص بالخلق ونحن لا ندري أين رفقتنا ولا محلّهم، ولا نجد من يدلّ عليهم، ويكاد يمر المار من الصّبح إلى الغداة ولا تقع عينه إلاّ على أفراد. فبصرنا أشرف محل فقصدناه، فوجدنا أهل اليمن ـ وهذه لهم قاعدة ـ حاطِّين وكان الوصول بعد شروق الشّمس وههنا محطّ الرحل ومحل الانبساط» وأيام منى كلها سرور وبهجة حيث النعم المتوفرة والرّمي وغير ذلك، وفيها تتوفّر البضائع يقول «وفي خلال ذلك يشتغل النَّاس بالبيع والشراء، وتظهر البضائع المصرية والشامية وأهل الشام يعظّمون المحمل المصري فترى من القوّة ما يبهر الألباب. وسألت رجلاً شالاً فرمى إلي بربطة جميعها شالات وأخبرني من سأل جوخاً يعني أذرعاً ففتح له خاناً وبالجملة فهذا الموقف أعني بمنى لو ارتحل مرتحل من أجل النّظر إلى ما يقع في هذه اللّيالي والأيام لم يلام».

ومما شاهده من مظاهر الزِّينة في منى تلك القناديل المتنوعة والتسليات التي تبهر العقل يقول «وقد أعدوا أعواداً بالغة ينصبونها على أعجب ما يكون ويحطّون في خلالها قناديل كثيرة توقد في اللّيل حتى تبقى في حكم الشجرة وكل واحدة لا تشبه الأخرى، ولم أتحقق تفصيل ذلك الصنيع،

ويرسلون الفشاش[1] والطّلاعات وأشياء أخرى تشبه القمر محكمة التدبير، له ارتفاع وإنارة تستقر في السماء حيناً، ثم تبلى «تنتهي» وصورة أشجار بغصون مع تدوير الأطراف كالأزاهير من نار ترتفع ثم تبلى الأغصان حتى تكاد تقع على الأرض، ثم تقرح «تنفجر» كالبندقة، وبعد ذلك تبلى أطراف تلك الأغصان وتعود حتى تتصل بأصلها ثم تقرح كالمدفع ثم يتبعها نحو خمسين مدفعاً. فمثلاً أنه إذا وقع الشّروع من المحمل المصري فلا بد يعمل الجميع ذلك على هذا الأسلوب من الفشاش إلى المدافع ثم يتبعه الشّامي ثم الشّريف على هذا الرّأي ما يستميل القلوب».

وعلى الجملة فقد بهر الموقف المؤلف وأعجب به كثيراً وقد تعدّدت الأجناس وتباينت المشارب «وإذا مشى الإنسان في الأسواق رأى العجب فمن خيمة فيها من ملك من الهدي ما لا يحصر ومن أخرى فيها فضلاء قعدوا للقراءة ومن ثالثة فيها نسوة في مجمع متبرّجات بزينة إلى غير ذلك». وكان الكاتب قد نحر هَدْيَه مع كثرة من الهدي يقول «كادت الدّماء تسيل» وفي اليوم الرّابع انتهت أيام النّحر.

زيارة المدينة المنورة

بعد الفراغ من مناسك الحج يتوجّه العزم إلى الذّهاب إلى المدينة لزيارة الرسول ﷺ، وقد بدأ المؤلف يهيّء أمره لهذه الرّحلة الطويلة وكانت الوسيلة في السّفر ذلك الوقت هي الجمال وهي تجارة رابحة عند الجمّالين ومن يقوم بهذه الأمور، يقول «وصل أرباب الجمال، وقد حصل منهم نوع تغلّب وشكَوْا بعذر المحتاج إليه بين المدينتين «مكة ـ المدينة» وقصدهم زيادة على المعتاد وبعد ذلك فصل الخوض على أن حمل الشقدف[1] كراءه عشرون قرشاً والشبريه بأربعة عشر قرشاً وقيمة نفس الشّقدف ثلاثة قروش.

---

(١) جمع فاشوش وهو شيء كالبارود يلتهب عند مسّه النّار.

(٢) الشقدف قال في محيط المحيط «مركب معروف في الحجاز وهو أكبر من الهودج».

والشبرية قريب النِّصف من ذلك» وهذه وسائل التنقل قبل ظهور الآلات ويعتبر الجمل سيّد الموقف، حيث أنه يكاد الوسيلة الوحيدة في السّفر إلى الأماكن البعيدة، وسيجد القارىء غلاء الأسعار بالنّسبة لقيمة العُمْلة في ذلك الوقت، إذ يبلغ الواحد من تلك الأشياء مبلغاً كبيراً، وما ذاك إلاّ لصعوبة النقلة ومشقة الطريق.

على كل فإن المؤلف لم يتردد في الذّهاب إلى المدينة وعزم مع رفقته. وكان خروجهم من مكة، يوم الثلاثاء ١٩ من الحجة، إلى محل يقال له «الشيخ محمود» يقول «وكان السّفر منه وهو متفاوت ابتداؤه وانتهاؤه فحيناً من بعد الظهر وحيناً من بعد العصر إلى أثناء الثلث الثالث وحيناً إلى شروق الشَّمس باعتبار المراحل والجمال وهي ملك الجمّال» وتمضي بهم الجمال في هوادة وطمأنينة «حتى أن الرجل إذا أراد الركوب طأطأ الجمل رأسه فيضع الراكب رجله على عاتقه فيرفعه قليلاً قليلاً إلى مستقره والعكس» وكأن هذه الجمال من النّوع المدرّب لمثل هذه المراحل الطويلة، وقد أثنى مؤلفنا على سيره في طريق المدينة لولا بعض الحرّ يقول «والسفر في هذه الطّريق مناسب لولا شدة الحر لا سيّما هاجرة النّهار» ويحتاجون خياماً وزاداً فيجدون من يتلقّاهم بهذه الأشياء «وهم من قبيلة حرب يقال لهم بيت عيرار أهل الحسنية وكنّا في زمرتهم، وبيت ضيغم أهل الصفرا» وهو يثني على محلات هؤلاء ويصفها بطيب الهواء يقول «وما رأيت أحسن من هذين المحلّين في تلك الطريق وأما سائر المحلاّت فخبوت ورمال» وما يزال في مشيه حتى يقارب الوصول. وقبيل المدينة طلب أصحاب الجمال من الرِّكاب الترجّل عن الجمال في موضع معين يقول «وقد اعتاد الناس في ذلك المحل النّزول من على الجمال واللّعب في ذلك حتى كأنه من المشاعر يأخذ الرجل بيد الآخر فيلقيه على الأرض بسهولة وأهل الجمال يحاولون النّزول ويزعمون أن الركوب يشق على الجمال هنالك».

يقول «فلم نزل نترجّل حتى قاربنا الوصول وكان ذلك عند الفجر

الآخرة وقد اتصل نور تلك المدينة بنور الصباح والغالب أن يقع الوصول في ذلك الوقت».

في المسجد النبوي

وها هي تباشير النور النبوي مشرقة من مدينته ﷺ يقول «وعندئذٍ اشتد سير الجمال وظهر عليها النَّشاط. وكان وصولنا آخر ليلة الاثنين غرّة محرم سنة ١٢١٢ إلى رباط بالقرب من باب المدينة».

وفي الصَّباح يتوجّه الجميع إلى المسجد الحرام «أتينا الحرم الشريف للدّخول من باب السلام إلى محل المواجهة للزيارة المسنونة».

ثم يتّجه إلى وصف المسجد فيقول «والمدينة أنيقة غير أنها حقيرة[١] وطرقاتها مصلولة والعين الزرقا تجري في جانب الحرم، قد جعلت بزابيز[٢] حنفية وتمر أيضاً من محال إلى المصلَّى وعليها قبّة يخرج الماء منها. وقبّة النبي ﷺ في جانب الحرم، وقبره في جانب القبة ومحاذي لأرجليه الطّاهرتين بين رأس أبي بكر الصّديق رضي الله عنه. ومحاذي رجليه رأس عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأصل القبور عليهن الحوطة الأولى وعليها الأستار الفاخرة.. وعلى الحوطة المذكورة من وراء الأستار حمى آخر في عرض ثلاثة أذرع، ما بينه وبين الشّباك الذي هو جدار القبة، مصلول مرمر، والظّاهر الذي يتّصل به النّاس شباك مخرّم أنيق مكتوب بعضه وفيه ثلاثة أبواب من فضة أحدها إلى الروضة وآخر إلى محل المواجهة وآخر يلي مزار فاطمة عليها السلام، والحوطة المتوسطة سيبة صغيرة بليغة فيها مربد متكلِّف مقصّص بالأحجار النَّفيسة لا يكاد ينقطع وثمة عمود بمعرض به في سماء القبة ما بين الشباك والأستار وفيه أشخاص[٣] من عين الذهب مختلفة

---

(١) يعني صغيرة.

(٢) جمع بزبوز وهو القصبة يستقى منها الماء.

(٣) جمع مشخص القطعة من الذهب كالحلية.

الصنعة ألواح ومجامر وأكواز، من جملة ذلك شخص مكرور عليه الطراوة ظاهرة، قيل إنه أهدى في هذا العام من جناب السلطان وأنه لا بد يصل في كل عام مثله في الصورة غيره في الصنعة وبالجملة فالموجود شيء واسع بحيث لو وضع لوقع فيها أظن قبة عظيمة، وفي قرار تلك الحوطة أشخاص أخر قيل إنها ذهب معاشر[1] ومغارز[2] ولا يبعد ذلك. تسرج الشماع الواسعة منها في أوقات الصلاة وكل ذلك يرى من خلال الشباك والكساء قد ضرب من أعلا القبة إلى الأرض والغالب عليه الخضرة مكتوب على عاليه: لا إله إلا الله الملك الحق محمد رسول الله الصادق الوعد الأمين وجلالات وصلوات بعناية عظيمة... والقبة الشريفة ظاهرها رصاص واخضرّت من بعد وثمة حذاها قبتين أخريين باشرهن على شيخ الحرم صغيرتين فوق محل المقيم لونهما أخضر وأصلهن من الرّصاص» وبعد هذا الوصف المستفيض للحرم الشريف والروضة النبوية يذكر شيئاً عن ذرعهما يقول «وطول الحرم المدنى ثلاثمئة وخمسة وخمسون ذراعاً وعرضه مئة وخمسون ذراعاً وأبوابه أربعة وما بين القبر والمنبر وهي الروضة أربعة وعشرون ذراعاً وطول قبر النبي ﷺ أربعة وعشرون ذراعاً، والمنارات ثلاث».

وهو يثني على عناية القائمين بالحرم المدني ويقول «وفي الحرم المدني من حسن القيام والعناية والاحترام فوق ما يقدر وعند إرادة تسريجه «إشعال القناديل» يحضر خلق كثير من الخدم الطواشية وغيرهم من أهل المدينة فتسرج القناديل والشموع والنوارات ثم شمعتين كل منهما كالأسطوانة يخرجن بالعناية السلطانية كل عام، يوضعن في جانبي محراب الروضة وينقل بقية حق العام الماضي إلى جانبي محراب الرسول الباقي، ومع هذا كله فلا تأثير لذلك كله وظني أنه لو أسرج ذلك القدر بواد أو نحوه لظن به حريق لكنه منوّر بنوره الذي محا الظلام».

---

(١) جمع معشره صحن متسع.

(٢) جمع مغرز وهو الذي يوضع فيه الشمع كالشّمعدان.

ولا يزال في الحرم الشريف متأملاً واصفاً حتى كأنه يريد أن ينقلنا لرؤية ما يصفه، وهو هنا يذكر خبر الانتهاء من تحسينات الحرم الشريف من قبل سلطان الإسلام ويصف ما شاهده من ترميمات تلقى منه استحساناً من حيث الظاهر يقول «وفي هذا العام كمل عمل الحرم الشريف زاده الله شرفاً وتعظيماً عن أمر سلطان الإسلام أيده الله من الزخرفة الفاخرة قد ألبست الجدران ألواح من الصِّين وأخر خضر قيل هن من الأباذ زهرية وأظنها يشم مصبوغ، كذلك الأسطوانات والبنود ما بين اللَّوحين ذهب وجعلوا فوق القامة سطراً لطيفاً مكتوب عليه بذهب حقير وآخر فوقه جسيم يدلّ على عناية وسخاء وقدرة، وعليه فراش فاخر، وقد رفع ما بطن به كان فوق ذلك رأيت شيئاً منه في أمكنة الخدم، وفي كون كل ذلك مستحسن نظر والأظهر أن أكثر ذلك منكر فقد ورد النّهي النّبوي عن زخرفة المساجد، ولعله من أجل ذلك وقع الحريق لتطهيره من هذه البدع».

ويصف أهل المدينة بمكارم الأخلاق ويورد عنهم الكثير من المزايا «وأهل تلك المدينة غالباً فيهم من مكارم الأخلاق والتحافة وحسن التأديب واللّطافة ولين العريكة وصدق المودّة والسَّجايا العجيبة والشمائل النجيبة ما رقّ وراق وجاء كعرف المسك وفاق».

ثم يتحول إلى خارج المدينة ويذكر منتزهاتها ومشاهدها فيقول «وحوالي المدينة الشريفة منتزهات عجيبة ومشاهد ومآثر غريبة وقد طفت غالبها قبا وغيرها وفيها النخل العجيب من أشهره جني نخل العوالي من المدينة ومن المنتزهات ينبع النخل على أربعة أميال من المدينة فيه مئة وستون عيناً نابعة فهل هي إلاّ الجنة بها حيث القلوب حول محله العالي دور وقصور حفت بالأشجار والأنهار، ومن ورائها جبال شاهقة منها جبل أحد وغيره أقرب إلى المدينة منه، وفيه الغار إليه ينتهي مع الأمن بعض الزُّوار وفي الحضيض مقابر الشهداء وقبة الحمزة وإليه غيره من الآل وقبة الثنايا بالقرب منها وقبة الحمزة يقال إنه كان لا يمكن الخروج إليها ولا إلى

أقرب منها قبل باشوية يوسف[1] وعلى فرض فقلَّ أن تفتح القبة».

وهذه أهم معالم المدينة المنورة وقد فرغ من المشاهدة والزيارة فلم يبقَ إلاَّ الاستعداد للعودة إلى الوطن وتهيئة الأمور.

الخروج من المدينة

مكثوا في المدينة ثلاثة أيام آخرها يوم الخميس وكان السُّوَّاس «سائقو الجمال» يلحون عليهم في الإسراع «فحصل التلكؤ ووقع الخوض بالبقاء يوم الجمعة بجعل يصير إليهم وبعد البناء على ذلك صادف قدوم المحمل المصري فاقتضى الحال العزم للجعث الشديد وحقارة المدينة فكان الخروج كرهاً آخر يوم الخميس لعلَّه ثالث محرم من السنة المذكورة وكان آخر العهد الوداع ولولا ما سليت به النفس من العزم على العود لما برح الحزن وما برح الشوق».

ويرحل الجميع حتى يصلوا الحسينية «وبقينا فيها ثمة اليوم المعتاد» وكان الرأي أن يكون العزم في اليوم التالي فإذا الأخبار تصلهم بقدوم المحمل الشاميّ وصحبه الحاج المغربي فيتريثون في البلدة تفادياً للازدحام في الطريق «فكان أول من قدم المغاربة على جمال بيض وهم في غاية الكثرة ولم ينقطع آخرهم إلى قريب ضحوة ذلك اليوم يقصدون الزيارة المسنونة».

وبعد مرور الركب الشَّامي والمغربي «ترحلنا حتى بلغنا جدّة وذلك أثناء يوم الاثنين لعله رابع عشر شهر محرم» وبوصولهم المدينة يكون مجموع الأيام التي قضوها في السفر بين مكة والمدينة «دخولاً اثنى عشر وخروجاً تسعة أيام وما زاد أو نقص فإنما هو لموانع».

في جدّة مرَّة أخرى

يعود الركب إلى جدَّة مرة أخرى بعد قضاء مناسك الحج والزّيارة

(١) والي المدينة في أثناء حج المؤلف وكان يوصف بالعدل وحفظ الأمن في البلاد.

فينزلون بيتاً هناك كانوا قد استأجروه قبل مغـادرتهم البلدة ووضعوا فيـه محتاجاتهم التي لا يحتاجون إليها في مكة «تركنا لدى ربّ المنزل الذي أقمنا به ما لا حاجة لنا إليه من الأمتعة والنّحاس وآلات البحر وغيرها كما جرت بذلك عادة أهل الأثقال فأودعنا ما لا نحتاجه في مكة المشرفة في جدّة ولا ما نحتاجه بين المدينتين في «رابغ» فالمودع في «رابغ» بحاله لم يذهب منه شيء والمودع في جدّة وجدنا عليه الأمارات أنه بحاله فلم يفتش عنه إلاّ في البحر وعند التفتيش فقد بعض ما هنالك من «الرز» والأعيان ونحو ذلك» يقول: وقد منعهم عن متابعة المفتشين حال التفتيش هو انشغال البال في البحث عن مركب يمني يقلّهم يقول «والذي صدّ عن الاعتقاد المبالغة في تحصيل الرّكـوب فلم يتيسر إلاّ مركب «صـوري» وأهل اليمن يتجنَّبـون الركوب مع الأغراب لئلاّ يحصل منهم مخالفة وهم غير مدولين لا يخافون تبعة».

وكان رحالتنا خلافاً لحرص صحبـه ومن معه من المسـافرين يـرى الركوب في ذاك المركب الصُّوري على ما فيه من الخطر أهون من البقاء في جدة التي لم يعجبه المقام بها يقول «وليس بشيء فقد أودع الله سبحانه في القلوب رعاية الحجاج فرأيت في الركوب في ذلك المركب أهون من البقاء في جدّة».

في العودة

وأخيراً منّ الله عليهم بالمركب المطلوب «وتيسَّر مركب بندري» وكان سفراً هنيئاً لم يجدوا فيه مشقة «لقينا من الألطاف ما لا نَحْصي الثناء على الله سبحانه ولقد وجدنا راحة لقلة الركاب وخلو أكثر المحال وسافرنا بحمد الله سفـراً عجيباً ويسَّر الله سبحـانه الـريح المنـاسبـة حتى وصلنـا بنـدر القنفذة».

وفي القنفذة ينزل الركب فقد «أحب صاحب المركب شراء طعام من هناك فأوجب ذلك بقاءنا هنالك ثلاثة أيام».

وسبب تأخر الركب عن السّفر تبدّل حال البحر من هدوء إلى ثوران فلما كادوا يعودون إلى المركب ويمضي بهم قليلاً في البحر حتى «تغيَّر الريح واشتدت إلى غاية حتى أني كنت أسمع بعض البحارين يقول: هذا الروع لا ينصرف، واشتد الحال في اليومين الآخرين إلى غاية لا يمكن التعبير عنها من تمايل المركب والموجات العظيمة ترتفع الموجة كالأكمة وتأتي من جانب وأخرى من جانب آخر والمركب ما بينهما فلا نظنّ السلامة».

ويزداد الحال سوءًا وقد طغى الموج وأصبح المركب كالقشة في الماء «وأيما موجة سبقت الأخرى رفعته فنشأ عن ذلك شدة ومصافقة في البحر وربما اتصل الماء بالقعائد البرانيات اللَّواتي يربطهن في جانب المركب فوق البحر ويعظم ذلك في غبّة جازان».

ويسوء الحال أكثر عندما يضل الطريق ربَّان المركب وهذا أدهى وأمر حيث أن سلامة الأرواح متعلقة بمعرفة هذا الربّان بمسالك البحر وطرقه وإلاّ كيف تأتى له الدخول في شيء لا يحسنه يقول «وأما في آخر الأيام فحصل ما شوَّش الخواطر حيث أن من عليهم التَّسيير ضلُّوا ولم يعلموا أينهم وما زالوا يتعرفون أينهم بالنَّظر والصعود إلى أعلا الدّقل حتى غلبهم الظلام ثم تركوا المركب يذهب لشأنه وخطر ذلك عظيم فربما صادم جبلاً».

وأمسى الناس في خوف شديد والسّفينة تمشي لا يعلم أحد وجهتها وبينما هم في الظنون السوداء إذ يسفر الصباح عن مفاجأة سارة للجميع، يقول المؤلف واصفاً تلك الليلة وما انتهى إليه الحال «وبات النَّاس في ليلة شديدة الوحشة وأرق الأكثر حتى أضاء الصباح وإذا ببندر «اللحية» قد لاح وكانوا قد جعلوا شراعاً صغيراً غير المعتاد يسمى «خيم» واستمر السفر به وحصل من السرور بالسّلامة ما لا مزيد عليه».

وبعد هذه النجاة المحققة ينزلون إلى مرسى «اللحية» لمعاودة البر والاطمئنان على أرواحهم «وعزم الأكثر على الخروج من هنالك وكنت فيمن

عزم لذلك التغير ولله الحمد».

وبينما هم على وشك النزول والمركب متجه إلى «اللحية» يرون أثناء مرورهم حادثة مروّعة وهي حادثة انكسار مركب بمن فيه «وكأنه قد اعترى صاحبه كبرياء ما هو بالغيه حيث سافر بالشراع الكبير في تلك الريح العظيمة فبينا نحن كذلك إذ بالمركب اللاَّحق قد انكسر عود الشِّراع المسمَّى بالفرمان وانقلب المركب وعاد خالياً عن جميع ما فيه».

ثم ينزل «اللحية» وهناك يقابله مع صحبه عامل اللحية الفقيه عبد الملك العلفي وكان إذ ذاك على عزم إلى صنعاء ومعه نائبه علي بن يحيى العلفي والكاتب صالح بن عبدالله مولى عبد الملك المذكور والقاضي الأديب علي بن إسماعيل العواجي وقد أثنا عليهم جميعهم واستضافه العامل في بيته. ولا تزال حادثة المركب المكسور الذي شاهدوه قبيل ميناء اللحية أمام أعينهم وقد استفسروا عنه «فقيل إنه هلك بمن كان به سبعة أنفار منهم ابن صاحب المركب القادم به ووالده كان باقٍ في اللحية وسلم الباقون وتفصيل ذلك أنه بعد أن وقع استقر على أحد جانبيه، وظهر الآخر يقي الحجاج في ذلك الجانب وأعد البحارون الزّعيمة، وجعلوا يخرجون الركاب دفعات لعدم اتساعها إلى ساحل البحر يأتون منه إلى البندر وفي خلال ذلك وصلت سنبوقان من اللحية فيها ماء وتمر فدفعوا ذلك إليهم وبادروا لإخراج من بقي» وكان من النَّاجين الفقيه الفاضل عبدالله بن يحيى لم يعرف رحالتنا من أهل المركب الغارق سواه يقول «ولما سألته عند وصوله بكى بكاء شديداً يتعذَّر معه الكلام وحصل معنا جميعاً وحشة عظيمة ثم حدثنا أنه كان متأثراً وقد طعن في السِّن لا يطيق البقاء على وجه المركب فطلب محلاً تحت المحل المعتاد فوق شحنة المركب بقية الشمس فبقي في محل ينزل إليه من مضيق يحتاج بعض تكلف في دخوله وخروجه فبينا هو باقٍ فيه إذ لم يشعر إلاَّ بانقلابه من محل إلى آخر ثم ثانياً وثالثاً وغشيه الماء لكن من لطف الله أنه يحسن السباحة فجعل يسبح في خلاله يترقَّب

الخلوص من ذلك المضيق فكلّما صعد ردّه ما لاقاه ثم كذلك حتى اظفره الله فلشدّة ما لقي اندفع بقوة حتى خرج عن المركب إلى البحر فأرسب ثم صعد حتى ظهر من يملأ الماء ويسّره الله سبحانه بحبل متصل بالمركب فنظر وراءه إذا بالزّعيمة مملوءة رجالاً فظنّ ألا ينجو إلا أولئك فترك الحبل واندفع يناديهم يأخذوه معهم ورام أن يسبح حتى يصل إليهم وتلك الزّعيمة تمشي وهؤلاء لا يمكنهم العود له فجعلوا ينادونه خذ الحبل واصعد جانب المركب حتى نعود فكان قد ترك الحبل فهرول ما بين هذا وذا فلا ذا تأتي ولا ذا حصل، فأرسب ثانياً ثم صعد وقد غلب عليه الماء فابتلع قليلاً. ثم أظفره الله بالحبل ثانياً وتفطن فرأى المركب وإذا من سلم من الركاب في حالته فنجا من الجملة إلى أن رجعوا وخرجوا عن آخرهم».

هذه قصة المركب الغارق وخبر النّاجين منه كما رواه بفيهِ ومثل هذه الحوادث تكثر في ذلك الوقت حيث أن السفن لا تدفعها آلة منها وإنما هي تحت تصرف الرياح ويكون من شأنها تقلب الأمواج وتغيّر الاتّجاهات الى غير ذلك، وقد سلم الله رحالتنا لعناية إلهية تكلؤه فلم يقع في مثل هذه المآسي وإن كان الرحّالة بعد خروجه إلى اللحية وجدناه قد عقد مفاضلة بين البحر والبر فقد رأى أن البر على ما فيه من مشقة «آمن بأهله» واللحية التي نزلها يصفها بأنها «بندر آمن أنفس بنادر اليمن فيها علمت، فيه من حسن التّأسيس والدّور الشامخة ما يشهد بأنه نفيس غير أنه قد قل الواصل إليه وربما عجز أهله عن القيام بمحتاجاتهم عند خروج يام».

ويمكث رحالتنا في اللحية أربعة أيام «في أحسن حال وأنعم بال» وفي يوم الخيس سلخ شهر محرم سنة ١٢١٢ يتوجّه من اللحية «ولم تتهيّأ لنا الرّواحل فسُخر لنا بقدر الحاجة وسلّمت أجرة ذلك» وفي الطريق يقول المؤلف «حصل من الشر ما لا مزيد عليه فتأمينها مقصد لإصلاح البندر».

ولم يزل يترحل بجهد ومشقة حتى «وصلنا مدينة صنعاء المحروسة وذلك آخر نهار الخميس لعله عاشر صفر سنة ١٢١٢».

مشاهدات
مغترب يمني في الهند

لا تزال الأصول الأولى للأدب اليمني في حاجة إلى البحث والدراسة وكل الذين أرّخوا لهذا الأدب من المعاصرين يرجعون به إلى عصور قريبة تعود إلى زمن بيت حميد الدين «الإمام يحيى - ١٩٤٨ والإمام أحمد - ١٩٦٢».

وفي رأيي أن هذه البداية لا يجب أن نعتد بها كمنطلق حقيقي للأدب اليمني الحديث... وكان بإمكاننا أن نمد زمن هذه البداية إلى ما قبل آل حميد الدين بعشرات السنين لو أن أولئك الدارسين لم يكتفوا بدراسة الأدب اليمني في موطنه الأصلي ومدوا أنظارهم إلى بلدان حله وترحاله، ففي تلك المهاجر التي ارتادها اليمني في تلك البلدان ظهرت الأصول الحقيقية للأدب اليمني المعاصر[1].

وبأيدينا الآن عدة بدايات قديمة لهذا الأدب في صورته المعاصرة لعل أقدمها تلك التي عرفت عن المهاجر اليمني المغترب الأديب أحمد بن محمد ابن إبراهيم الشرواني.

وهذا الأديب سنحمله عدة أوليات في الأدب اليمني الحديث قاطبة فهو أول أديب يمني يطبع له كتاب في حياته وأول أديب يمني قام بتحقيق النصوص القديمة الإسلامية ونشرها وأول من عرف الثقافة في صورتها

(١) أنظر حديثنا عن الهجرة في أول الكتاب.

الحديثة إلى غير ذلك من أوليات متعددة تجعله الرائد الحقيقي للأدب اليمني المعاصر.

على أنه ما كان سيتسنى له كل ذلك لولا أنه احتك بالمستشرقين من الأوربيين واستفاد من مناهجهم في أصول البحث كما أنهم استفادوا منه عدة إفادات ووجدوا في تمرسه باللغة العربية وآدابها خير معوان لهم في بحوثهم الاستشراقية.

ولد الأديب أحمد بن محمد بن علي بن إبراهيم الشرواني بالحديدة سنة ١٢٠٠ هـ ١٧٨٥ م وأخذ عن علماء اليمن في ذلك الوقت ثم قدم إلى مكة وواصل فيها تعليمه..

أما رحلته إلى الهند فيبدو أنها كانت بقصد التجارة كما هي العادة المتبعة عند اليمنيين في هجراتهم إذ أنه لقي مكانة كبرى عند ملوك الهند نظراً لعلمه وسعة اطلاعه في الأدب فاستضافوه هناك وولوه المناصب العلمية الكبرى. وقد عهد إليه الإنجليز في ذلك الوقت الإشراف على كلية فورت وليم ١٧٩٩ - ١٨٣٦ التي أنشأتها شركة الهند الشرقية لتعليم طلاب الكلية الحربية اللغات العربية والفارسية، فتعاون هو ولمسدن ١٧٧٧ - ١٨٣٥ م على إخراج عدة كتب مطبوعة في مطبعة الكلية من أهمها مقامات الحريري سنة ١٨٠٩ وديوان المتنبي سنة ١٨١٤ ورسائل إخوان الصفا فكان الشرواني يشرف على إخراج المتن العربي في حين يقوم لمسدن بوضع الهوامش بالانجليزية.

على أن الشرواني لم تطل إقامته في الإشراف على كلية فورت وليم واتصل بملوك الهند المسلمين في شتى مقاطعات الهند فقدم إلى لكنو واتصل بسلطانها غازي الدين حيدر فمدحه وصنف له الكتاب الآتي ذكره في مناقبه ثم رحل إلى بهوبال في عهد السلطان جهانكير ووضع في مناقبه مصنفاً مستقلاً. وهكذا لقي الشرواني حظوة كبرى عند سلاطين الهند من المسلمين

الذين قدروا فيه علمه وأدبه. . توفي الشرواني سنة ١٢٥٣ هـ ـ ١٨٣٧ م.

أما مصنفاته الأدبية فقد وضعها جميعها وهو في الهند وطبعت كلها وهو على قيد الحياة ومن هذه الكتب.

١ ـ العجب العجاب. مؤلف كبير جمع فيه مختارات من الرسائل الأدبية الإنشائية وقد وضعه بإيعاز من ناظر كلية فورت وليم بكلكتا وطبع فيها سنة ١٨١٣ ثم أعيد طبعه في بومباي سنة ١٢٧٥ هـ.

ـ تحقيق شرح ديوان المتنبي للمحبِّي طبع كلكتا سنة ١٨١٤.

ـ نفحة اليمن فيما يزول بذكره الشجن. وهذا الكتاب من أشهر مؤلفات الشرواني وهو في الحكايات والنوادر الأدبية طبع لأول مرة في الهند سنة ١٨١١.

ـ الجوهر الوقاد شرح قصيدة بانت سعاد ـ كلكتا سنة ١٢٣١ هـ.

ـ حديقة الأفراح لإزالة الأتراح. مجموعة شعرية لأدباء من اليمن والحجاز ومصر والشام والعراق وغيرهم طبع سنة ١٢٨٢ هـ وله طبعة قبل هذه.

ـ بحر النفائس منه نسخة بالمكتبة الآصفية بالهند.

ـ منهج البيان.

ـ الشّافي في العروض والقوافي. . .

ـ جوارش التفريح «ديوان شعر».

ـ شمس الإقبال في مناقب بهوبال مخطوط بالمكتبة الأصفية.

ـ المناقب الحيدرية وهذا الكتاب وضعه في مناقب سلطان لكنو غازي الدين حيدر ودون فيه مشاهداته في الهند وهو أقرب إلى كتب الرحلات منه إلى الجانب التاريخي حيث لم نجد لهذا السلطان ذكر في الكتاب سوى

وصف لقصوره وأماكن متنزهاته. طبع هذا الكتاب في مدينة لكنـو سنة ١٢٣٤ هـ ويقع في نحو ٢٠٠ صفحة.

كتاب المناقب الحيدرية

ويفيدنا هذا الكتاب أشياء كثيرة من انطباعـات الشرواني في الهند ففي المقدمة يبين لنا المؤلف أسباب رحلته إلى هـذا السلطان من مدينـة كلكته ولقائه به يقول «لما تواترت البشائر من الجهات الأردية بأخبار المفاخر المعزوة إلى الشَّمائل الكريمة المحمدية. . . أبو الظفر غاز الدين حيدر خلد الله سلطانه عزمت على التوجّه والمسير من معمورة بندر كلكته الشهير إلى نحو حضرته فـركبت فالكي السـيرُ أول شعبان سنـة ١٢٣٠ هـ وغدوت سالكاً في البراري إلى معمورة السلطنة لكنو ثم أوصلني الطَّالع السعيد إلى حضرة الممدوح. فلما بلغت مقامه الجليل أديت ما يجب علي لشأنه بالتبجيل فقابل ثنائي بالقبول مد الله ظلاله وأدام عزه وأشار إلي بالجلوس وجاء لي بخلعة الإحترام الخ. . .

ثم يمضي المؤلف في وصف مشاهداته في الهند ويقف كثيراً عند قصور الملك وحدائقه وغيرها من الأمور التي أعجب بها فأخذ بشرحها بأسلوب نلمس فيه طابع الاستغراب والعجب.

عسكر السلطان

فمن ذلك وصفه لعسكر السلطان غاز الدين حيدر يقول:

«خرجت من أحد الأبواب راكباً على مركوب من الأخشاب (عربية) مكبراً من ازدحام العساكر الحجاب (الحرس) متشوقاً إلى ما هو العجب العجـاب فشاهـدت من الفيلة المضاهِيَـة بارتفـاع ظهورهـا رؤس الجبال الشَّاهقة ألوفاً ومن الخيول المزينة بعقود الجمان صنوفاً ومن المطايا الهندية ما

يفوق على النجائب العربية. وكان كل من العسكر جاعلاً من الكوافي السود العجمية المدورة على رأسه المشعر متقلداً بالجزاز الجوهر حاملاً على عاتقه بندق الموت الأحمر... وشاهدت أيضاً ألوفاً من الجند المتردّدين في طاعة الملك الأعظم بأيديهم عصي التِّبر «الذهب» النضار يعرف كل واحد منهم بالجويدار وهي كلمة فارسية ومعناها بالعربية حافظ العصا».

التماثيل والرسوم

ومن مشاهداته العجيبة تلك الرسوم والتماثيل الغريبة التي وقف عندها الشرواني مندهشاً لنسمعه يصفها لنا بعين الغريب الذي أتى من بلد لا يعرف شيئاً من ذلك بل نلمس في قوله التشوّف في بلوغ تلك النهضة التي وصلتها الهند في ذلك الوقت يقول «وعاينت من التصاوير أنواعاً وعجائب لا تعد ولا تحصى كان بعضها في المقام منصوباً وبعضها على الجدران مضروباً، أما الأشكال «التماثيل» الإنسانية من تصاوير ذلك المكان فليس بها من عيب ولا نقصان سوى عدم الروح، وأما الأشكال الحيوانية فعجيبة جداً والنَّاظر إليها من بعيد يقول هذه أسود مكبلة بالحديد وهذه خيول ترتعد هيبة من الضَّياغم «الأسود» وتميد فإذا دنا من ذلك المكان حصحص له الحق وبان وشاهد من التَّصاوير فيرجع ضاحكاً على نفسه متعوذاً من شيطان ظنه وحدسه».

الفيل العجيب

ومن أغرب ما وصفه في رحلته ذلك الفيل المتكلّم الذي يندب الحسين ويصيح بين الناس يقول «ثم إني مضيت في اليوم الخامس من شهر محرم الحرام سنة ١٢٣٤ هـ إلى مقام الملك فرأيت فيلاً في السوج يبكي ويتململ وينوح والناس حواليه ينظرون نظر المعجَّب إليه ثم إنه ضرب رأسه بخرطومه وأسمع الحاضرين نوحته البليغة من حلقومه وهي هذه:

واحسينا واحسينا

واحسينا واحسين

إن كربي هاج

مما قد جرى في كربلا

للحسين السيد المولى

إمام الأتقيا

إلى آخر ما قاله الشَّرواني في وصف هذا الفيل العجيب ولا يعدو أن يكون في الأمر حيلة انطلت على صاحبنا فصدّقها وإلاّ فما هنالك فيل يتكلم.

ويحدثنا عن القصور والمتنزّهات التي شاهدها فيبرع في ذلك حتى كأننا نحس معه ما يشاهده يقول: «للسّلطان مربع يسمى (فرح بخش) محكم الأساس والعرش تتلألأ أحجاره المهندمة بالجواهر ويتضوَّع مسك طينه فيفتخر بطيبه على العنابر والمباهر ويخجل عود البخور نشر أعواده وأحشائه إذا فاح من سقوفه... ولو عاينت أيها اللبيب نفائس مجلسه المفروشة بالمفارش الحريرية المنقوشة وما عليها من الوسائد المذهبة والمساند الفاخرة المرتبة وما هو معلّق في تلك الغرف بسلاسل عقيانية من البرم البلورية والثريّات البديعة اللندنية والمراوح التي تسر بها الأرواح وتنفس الهموم الخ...».

وصفه حوض في أحد القصور...

ويستمر الشرواني في وصف مشاهداته في الهند فيحدّثنا عن حوض عجيب رآه في أحد القصور يقول: «وقد أم ذلك المربع المنير حوض كبير مدعدع من العذب النمير في طوله طول لمن وافاه وفي عرضه ضروب من التحف لمن أمّه وأتاه وإذا هبَّ النسيم على مائه الوسيم تسلسل وقابله ببشره وأهله... وإذا ترنّمت البلابل على أكنافه تهيج نميره طرباً وتراقصت

حيتـانه فـأظهر عجبـاً وعن يمينه وشـماله أزهـار وأشجـار تجلو بخضرتهـا الأنظار.. وأعجب ما رأيت في ذلك الحوض بالتَّعميق لا بالخوض سموك «أسماك» صغار محمرة القشور فمن رآه تعجب وسبحل «أي قال سبحان الله» وكبر وهلل... هذا وفي وسط ذلك الحوض وحفافيه «حوافيه» تماثيل من الرخام على صور الآدميين قائمة قيام المماليك بين يدي مالكهم وحواليه فَوَّارات تلتذ الأسماع بخريـر ماءهـا الزّلال إذا انبعث من عيون رؤوسها وسال».

وهكذا يمضي بأسلوبه المسجع البليغ في وصف مشاهداته في أرض الهند فيكون بذلك أول مهاجر يمني يدون مذكراته في بلاد الغربة.

قد استتب بعون رب البريه * طبع هذا الكتاب المسمى
بالمناقب الحيدريه * فى المطبعة المباركة السلطانيه *
بدار الخلافة لكنو المحميه * نهار السابع والعشرين
من شهر ربيع الاول سنة الف ومائتين
وخمس وثلاثين من الهجرة
النبويه * على صاحبها
الف الف تحيه *
* *
*

الصحيفة الافتتاحية لكتاب «المناقب الحيدرية» المطبوع في لاكهنو
في عام ١٢٣٥هـ/ ١٨٢٠م.

محسن بن عبد الكريم إسحاق... والرحلة شعراً

كم هو جميل أن يتصدّى لموضوع الرحلة عالم متبحر في فنون العلم إذ لا يرضى فيما يكتبه بما دون السِّماك. وعندما انبرى العلامة اليمني الأديب محسن بن عبد الكريم إسحق لم يرضَ فيما كتبه عن رحلته من صنعاء اليمن إلى مكة المكرمة إلا أن يكون شعراً واعتبر النثر في هذا المجال دون مكانته وقدرته الأدبية الفائقة، وهو ممن تبحر في فنون النثر والشعر وكان واحداً من نحاة اليمن الكبار.

ذلك هو الأديب محسن بن عبد الكريم بن أحمد بن محمد بن إسحق ابن المهدي أحمد بن الحسن بن القاسم بن محمد من أسرة آل إسحق الشهيرة بعلمائها وأدبائها ورجالها. ولد في ربيع الأول سنة ١١٥١ هـ وأخذ العلم عن جماعة من شيوخ صنعاء وغيرها من المدن اليمنية منهم إبراهيم ابن عبد القادر والحسن بن أحمد السياغي ومحمد بن علي الشوكاني وغيرهم وقد ترجمه الأخير ووصفه وهو لا يزال في مبتدأ أمره بقوله:

«أتفق في سنين قديمة أني خرجت أنا وجماعة من شيوخي منهم شيخنا العلامة عبد القادر بن أحمد وجماعة من علماء الزمان وأعيان صنعاء اليمن وفيهم والد صاحب الترجمة وعمه. وفي الجماعة صبيان في العشر السنين وأقل وأكثر، ومنهم صاحب الترجمة وكان الصبيان يلعبون ويشتغلون بما يشتغل به أمثالهم والمذكور يصغي إلى ما يدور بين أولئك الأعلام من المراجعات العلمية والمطارحات الأدبية، ولا يلتفت إلى شيء مما الصّغار فيه فعجبت من حاله وأشرت إلى جماعة من العلماء ينظرون إليه فأخبرنا والده

بأن صاحب الترجمة قد صار له شعر في تلك السن كثير من الملحون الذي يسميه أهل اليمن الحميني وروى له شعراً فلم تمر إلا أيام قلائل بعد ذلك حتى ظهر له النظم الجيد وما زال ينمو نمو الهلال حتى بلغ أعلا المراتب».

هذا قول من عاصر المترجم الأديب محسن بن عبد الكريم من مبتدأ حياته حتى نضوجه العلمي فأغنانا عن التفصيل. توفي رحمه الله سنة ١٢٦٦ هـ.

أرجوزة الرحلة:

كان للأديب محسن بن عبد الكريم رحلة إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج قال عنها جامع ديوانه الأديب عبدالله بن أحمد العمّاري أنها كانت سنة ١٢٣٧ هـ وقد صاحبه في الرحلة رفقة من الأصدقاء يقول عنهم العماري السابق الذكر «قد ضمَّهم الولاء ونظمهم شمل الإخاء» وقد ورد نص الرحلة كاملاً في ديوان المؤلف المخطوط وهو يفتتح الأرجوزة بقوله:

بسم الهي تحسن البداية ... وتصلح الأعمال في النِّهاية

ثم يذكر أسباب الرحلة ودافع جمعه لها وأنه أراد بها تذكرة للأحباب وتحية للأصحاب:

وبعد ذا نهدي إلى الأحباب ... تحية تهزأ بالأطياب
النَّازلين في ربوع صنعا ... وحبّهم للكل صار طبعا
ونحوهم نهدي من الأخبار ... بعض الذي نراه في الأسفار

العزم من صنعاء:

ثم يشرع في ذكر الرحلة والخروج من صنعاء ميمماً طريق السفر وأنه كان في يوم الخميس ٢١ شوال من سنة ١٢٣٧ يقول:

كان خروجنا من الأوطان ... لقصد بيت الواحد المنّان
يوم الخميس وهو من شوّال ... إحدى وعشرين بلا مقال

ويسلسل مراحل الرِّحلة من خروجه من صنعاء فوصوله إلى (متنة) وما بعدها وكان اليوم يوم غيم أريج النَّسيم:

سرنا بحمد الله ذي الجلال ... كقولهم «سار غلام الوالي[1]»
ثم وقفنا يومنا في (متنة) ... وجاءنا الله بكل منة
بالغيم من قبل شروق الشمس ... فلم نجد لحرِّها من مس
ولا رأينا قط وعثاء السَّفر ... ولا أصابنا من الغيم مطر

وتلك بادرة حسنة تشجع على المضي في الرحلة فمن (متنة) إلى (بوعان) فمسجد (الحوضين) الخ...

بتنا بها وصبح يوم الجمعة ... سرنا على اسم الله نسعى جَمْعَة
حتى أتينا بالضُّحى بوعانا ... وذلك يوم السُّوق فيه كانا
وطابت القهوة في (بوعان) ... وجاءنا من (خوخة) نوعان
ثم مشينا نقطع الطريقا ... والغيم قد أظلَّنا رفيقا
حتى أتينا مسجد (الحوضين) ... فيه أقمنا الظُّهر ركعتين

ففي (بوعان) يبيت ليلة الخميس، ثم يتوجه مع رفقته يوم الجمعة قاصداً (بوعان) وقد صادف فيها قيام السوق بها وهو سوق أسبوعي يحضر إليه الناس للبيع والشراء في ذلك اليوم من كل صوب. وهناك تطيب الإقامة لصاحبنا ويعجبه فيها نوعين من أنواع القهوة أتت من الخوخة (مدينة بتهامة) ثم يتوجه إلى مسجد (الحوضين) وفيه يقصر الصَّلاة كما هو مقرر في كتب الفقه من قصر الصلاة للمسافر، وهناك يحسن الجو ويعطر النسيم حيث يغرد شحروره ويجري نهره إلى غير ذلك يقول:

والعصر مثله فطاب الحال ... وانتظم الموقف والمقال
تجري به من تحتنا الأنهار ... قد جاوبت تصفيقها الأطيار
والطير يشدو فوق أغصان الشجر ... والله نعم صاحب في ذا السفر

(١) من أبيات الملحة للحريري ص ٧.

وفي (الحوضين) تحدث مشاداة طريفة بين رفقة السفر حول اشتباه بعض الحمير عليهم، ولعل من بينهم من كان متعنتاً في هذه المسألة حيث يدعي بأن هناك من غالطه[1] في حماره يقول:

نعم وفي الحوضين بعض (الخبرة) أحال في بعض الأمور فكره
توهما بأن بعض الحمر غاوى به مسافرا و(سَمْسَرى)[2]
قيل له هل حجمه كحجمه قال نعم وجسمه كجسمه
وحين أكثروا عليه الكركرة قام إليه مسرعاً لينظره
وقاس بعد طوله وعرضه وقال قد عرفته بالغرضة[3]
قيل له فاجعل له علامة وقس على قولي تكن علاَّمة

هكذا تنتهي مشكلة صاحبهم بأن عرف حماره بعلامات مميزه، وسنجده يستعمل في هذه المقطوعة وغيرها عبارات دارجة وذلك إمعاناً منه في المفاكهة والمباسطة وإلا فالرجل لغويّ كبير.

مضى رفقه الرحلة في رحلته، ويجدّ بهم السير حتى يصلوا إلى (العجز) موضع هناك، وقد بدا على القوم آثار الإعياء فيميلون إلى الراحة والنوم بعد أن يلذعهم هجير الشمس من عدم وجود الغيم (الهجوة).

ثم قصدنا (العجز) بعد القهوة وفي الطِّباع راحة ونشوة
وفيه دبَّت في الجسوم الرخوة لأننا عدمنا فيه (الهجوة)
ولم تطب لنا فيه القهاوي فالقوم بين عاطش وراوي

إن حر الشمس يلاحقهم في هذه المنطقة فيستقر رأيهم على مواصلة

(١) غالط.
(٢) أي صاحب سمسرة وهي مكان متسع يقصده المسافرون.
(٣) السير يربط به السرج.

السير والمبيت في أكمة ابن مهدي:

فأجمع الراي بغير لعثمة إن المساء مستحسن في الأكمة
أكمة تنسب لابن مهدي رابية في القاع مثل النّهد

وكان وصولهم إلى أكمة ابن مهدي حين صلاة الظهر فيتوجّهون بأجمعهم إلى مسجد القرية ويمكثون فيه برهة من الزمان مستكنّين فيه من حر الهجير، وهناك يستضيفهم أحدهم وينزلهم ديواناً فخماً يصف شاعرنا ما فيه من أثاث حتى أخشاب سقفه يحصيها بالعد:

كان وصولنا بها بعد الغدا ثم دخلنا في رباها مسجدا
قِلْنا إلى بعد صلاة الظهر حتى استرحنا من سموم الحر
ثم صعدنا بعده ديوانا كاد يكون في البناء إيوانا
أخشابه في سقفه إحدى عشر وقاعة مفروشة فيها حصر
فطاب فيه جمع شمل الخبرة قد حسن المدكا[1] به والسَّمرة

وما يكاد يستقر بهم الوضع على أحسن حال حتى يثور صاحب الحمار مرة أخرى ليثير بينهم مشكلته ثانية وكأنه موكل بإثارة مثل هذه القضايا يقول شاعرنا:

وعاد إشكال الحمار ثانياً أشد ما يكون قبل باديا
فبعضهم أنَّث بعض الحمر وضنه البغله غير ممترى
وبعضهم قال بأن (الصارما) غاوى الخطام بالحمار جازما
وجزموا بأنه المغاوي كقولهم (وراكب بجاوى)[2]

هكذا يتَّضح للركب بأن الصارم (اسْم الرجل) هو الذي يبحث عن المغالطة والمشاجرة بين إخوانه وقد أخذ خطام بغلته ووضعه على بعض

(١) المدكى: المتكى معروف.

(٢) من أمثلة الملحة (السابقة) يقول في باب حروف الجر:

وتارة تضمر بعد الواو كقولهم وراكب بجَاوى

الحمير حتى يظن أنه حماره، وهذه القضايا تثار دائماً بين المسافرين عند طول المسافة وضيق الخواطر على أثر الاجهاد والتّعب، على أن بعض الناس قد جعل من الرِّحلة متجراً يعرض فيه بضاعته على المسافرين وغيرهم ومن أصحابنا هنا من قطع عمامته وباعها مآزراً (فوطاً) أو العكس:

وصار بعض النَّاس فيه تاجراً ... مقطِّعاً لشاشه مآزراً
يأخذ بالمتر منهم شاشا ... أو ما خلا أو ما عدى أو حاشى

ثم يسفر فجر اليوم الثاني، وقد أخذوا أهبتهم وشدّوا الحمير للتوجّه إلى (الشجة):

وقبل وقت الفجر يوم الأحد ... كان الشِّداد للحمير عن يد
ثم أقمنا الفجر بعد الدّلجة ... وبعده المسير نحو (الشجة)

ويهمنا هنا أن نتابع سير الرحلة موضعاً موضعاً حتى نعرف مراحل الحاج اليمني في رحلته الخالدة عبر مئات السنين، فبعد أن يصلوا المواضع المقصودة يتوجهون بعد ذلك إلى بيت في (الشجة) هو بيت مهدي الزبيري، وقد استقبلهم بحفاوة بالغة أنستهم عناء الرحلة:

فلم نزل نرقى عليها صعدا ... حتى بلغنا رأسها بعد الغدا
ثم سرحنا بعد ذاك الهجرة ... بزفة مضمرة و(مَحْجرة)
حتى وصلنا بيت مهدي الزبير ... كافاه عنا ربنا بكل خير

فقد قابلهم المذكور بفرح باد تحيط بهم الطبول والزَّغاريد (المحجرة) ولم يكتف بذلك بل أكرمهم بأنواع الضّيافة كما يقول الشاعر فيما يلي:

نزلنا في (منظرة) رحيبة ... مجدّداً ريحانه وطيبه
فلم يزل يبذل من إكرامه ... للكل ما يعجز عن نظامه
وكل من يحضر من وفوده ... لا بد أن يتحفنا من عوده
وبعضهم يتحفنا بعطر ... حتى سرى في الجو طيب النَّشر

وهكذا كانت عادة أهل الشّجة في إكرام الحاج لأنه ضيف الله وقد أنساهم ذلك الكرم مشقة الرحلة، ويقول رحالتنا لولا قصد الحج لأقاموا عشرة أيام:

وهـذه قـاعـدة مـسـتـحـسـنـة — مـا قـد رأينـا مثلهـا في الأمكنـة
لـولا المـقـام لأقـمـنـا عشرى — لمـا رأيـنـا كـل مـا قـد سرا
لـكنهـا الأشـواق نـحـو الحـرم — يحـثـنـا عـلى السرى في الـظلم

وكان كرم الرجل عليهم فائقاً حتى أنساهم الأهل والوطن كما يقول رحالتنا:

مـا زال يـولينـا الجميـل فـضـلاً — بـجـوده صـار الـعـسـير سـهـلا
ويـوم الاثـنـين أقـمـنـا قـسـراً — إكـرامـه أضـعـاف مـا قـد مـرًا
إكـرامـه للضيف ينسيـه الـوطـن — لمـا يـرى مـن فعلهم كـل حسن

حتى يأتي يوم الثلاثاء فيتوجه الركب على مضض من صاحب الضيافة، وكان الجو لحسن الحظ غائماً فلم تؤثر فيه حرارة الشمس مما جعلهم يواصلون السير حتى وصلوا إلى (مطرح المراحض):

يـوم الـثـلاثـاء مـع طلوع الشمس — سرنـا ولم نـجـد لهـا مـن مس
لأنـه أظـلّنـا الـغـمام — وعـمَّـنـا مـن ربِّـنـا الإنـعـام
ولم يـزل يـدنـوا بـنـا الـنـقـيـل — نـقـطعـه وثـبـا ولا نـقـيـل
وقـد أظـلـنـا بـه الـغـمام — كـأنـه مـن فـوقـنـا خـيـام
فـلـم نـزل نـنـزل في ظـلالـه — والحـمـد لله عـلى إفـضـالـه
حتى بـلغـنـا (مـطرح المـراحض) — مـن دون مـانـع ولا مـعـارض

وفي (مطرح المراحض) تستقبلهم الأمطار، فيرطب الجو ويزيد النفوس بهجة وسروراً:

فـأنـزل الله بـه الأمـطارا — قـد بـرَّدت من سـوحـه أقـطارا

ثم تتوالى مراحل الرحلة فيصل الراكب إلى (لعسان) ومنها إلى (البحيح) فقلعة الشيخ علي حميد (باجل) وهكذا حتى يصلون الحديدة استعداداً للرِّحلة بحراً.

أنظره يصف هذه المراحل في المقطوعة الآتية:

ومن طلوع الشَّمس يوم الأربعا	سرنا إلى (لعسان) نمشى أجمعا
وفيه أدركنا الغداء والعشا	وبعده سرنا إلى وقت العِشا
وكان ممسانا (البحيح) فاستمد	للنوم فيه كل ماشٍ قد رقد
والصبح في يوم الخميس (باجلا)	سرنا إليه راكباً وراجلا
حتَّى بلغنا قلعة الشيخ علي	حميدة وهي أعز معقل
فجمَّل الله على حميدة	أفعاله صالحه حميدة
أنال كل وافد مراده	فما على إكرامه زيادة

في بندر الحديدة والتأهب للسفر بحراً

كانت نية الجماعة في هذه الرحلة اختصار المسافة وقطع بعض الطريق بحراً فلذا كانت وجهتهم إلى الحديدة والتأهب منها لركوب البحر، على تخوف كبير منهم كما سنفهم فيما بعد، إلاّ أننا سنقف أولاً هنا عند أصحابنا وهم في ميناء الحديدة حيث يستقبلهم عاملها يوسف وأظنه المترجم له في نيل الوطر للمؤرخ زباره (ج ٢ ص ٤٢٠) بأنواع الحفاوة والترحيب ولعل من بينهم من كان من رجال الدولة:

وليلة السبت حمدنا السير	عند الصباح إذ رأينا البحر
وجاءنا في بندر الحديده	(يوسف) في طلعته السعيده
أنسنا بالبشر من بعد القرا	فلا تسل من جوده عما جرى
وبعد جاءنا الأمير سامرا	مصلياً مسلماً (مجابرا)[1]

(١) مجابر: مؤانس.

ولعل الشيء الذي أعجب به شاعرنا من حفاوة ذلك الأمير هو قاته المنسوب إلى (يفوز) وكان صاحبنا مولعاً كبيراً:

قِـلْنـا وقُـلنـا لـلنفـوس فـوزي   بـقـاتـه المشـهـور بـالـيـفـوز

ولما كان رحالتنا ابن الجبل فهو يدهش عندما يرى البحر لأول مرة في حياته ويصوره بأرض تتحرك:

مـا كنت أدري قبل مـرآى البحـر   بـأنها تـوجـد أرض تجـري
أنـعـامـهـا سـاكـنـة لا تحـرك   وهـي بهـم جـاريـة لا تـبرك
سـاكـنـة بحـال وهـي سـالـكـة   تـطوي بـك البعيـد وهي بـاركـة
مـثـل الـزمـان لم يـزل بـأهـله   يجـري وهـم في غـفـلة مـن فـعـله

كذا يستخلص شاعرنا من حال البحر ومراكبه الراسية حكمة وعظمة يقيس بها أمر الدنيا وأهلها.

في البحر:

لم تطل الإقامة بأصحابنا في ميناء الحديدة ففي اليوم السادس من شهر ذي القعدة قرروا مغادرة البر وخوض البحر ومياهه ولما كانت السفن في ذلك الوقت شراعية فإن الـراكب لا يألف العيش بـه فيصاب بـالغثيان والقيء على أثر ميلانها المستمر وهذا ما وقع لحجاجنا وقد صور لنا الشاعر في أرجوزته هذا المشهد فقال:

(فصـل) بـه نفصـل خـوض الـبر   عن ذكـر مـا جـرى لنا في البحـر
في سـادس الشهـر هجـرنـا الـبرا   عصر الخميس وركـبنـا الـبحـرا
بـتـنـا بـه لـيـلتـنـا في المـرسى   ومـثـله أصـبـح ثـم أمسى
وصبـح يـوم السَّبت قـد نشرنـا   شراعـنـا نـعـطفـه وسرنـا
أول مـرسى كـان في (بـحـيص)   هـذا وحـال البحـر (حيص وبيص)

فبعضهم قد شغلته الدوخة حتى غدا منها يهم (الشخه)[1]
والبعض قد أطلقه الصلاق إن الخوص قد غدا مشتاق
فكم يرى من قاذف مقزز من الغداء والعشاء محترز
يدفع ما يأكله مفرطا سمّوه مما مسه (مزيرطا)

كذا كانت حالة أهل المركب ما بين مغشي عليه ودافع ما في بطنه، وقد زاد الأمر سوء هيجان البحر، وهم على هذا الحال حتى تطل عليه معالم جزيرة كمران:

وكمران كان فيه مرسى في سوحه أدرك كل أنس

فيستعيدون فيه قواهم وقد تمتعوا بمائه العذب، ومكثوا فيه ليلة ونصف نفضوا عنهم عناء السفر، ثم يشمرون لمواصلة الرحلة وتتابع عليهم المراسي (الحنة) و(البرك) و(حلي) حتى يصلون إلى مرسى (القنفذة). يقول شاعرنا في وصف السير على تلك المراسي:

يوماً وليلة به أقمنا وماؤه العذب به اغتسلنا
وبعده المرسى قبال (الحنه) والحمد لله العظيم المنه
فإنها جرت لنا ألطاف به أمِنَّا كل ما نخاف
بعض المراسي أرسل الله المطر لكنه ما نالنا منه ضرر
و(البرك) ليلة به مرسانا و(حلي) بعده به ممسانا

وبعد المعاناة الشديدة لأهوال البحر وأمطاره المتواصلة يستقر الرأي عندهم على مواصلة السير عن طريق البر، وترك البحر لمن هو مختبر بحاله فهم لم يألفوا ويلاته، فما كادوا يصلوا ساحل (القنفذة) حتى يتركوا البحر مهرولين سالمين منه بجلودهم:

---

(١) مفرد شخاخ: البول.

فـأجمـع الـرأي بـلا مجـادل على السلوك من طريق الساحل
بـه قصدنـا للخـروج (القنفـذة) وقد (زبلنا)[1] تعبا و(قلفده)[2]

حديث الجمال والسير براً:

ودع الركاب البحر غير آسفين: وأخذوا يعدون العدة لقطع الفيافي والرمال وكان لا بد لهم من سفن أخرى تقلهم هي سفن الصحراء (الجمال)، وكانت الجمال في تلك اللحظات من العملة الصعبة حيث يبلغ كراؤها (إيجارها) مبلغه من ارتفاع فاحش فلا يغدوا الأمر أمام الجميع إلا الاستسلام لأصحابها فيما طلبوه، أنظر حديث صاحبنا عن هذا الموضوع وقد أدرجه شعراً:

فـأطبقـوا عـلى الخـروج عـنهـا يـوم الخـميس لا عـدول عـنهـا
في يـوم عشريـن لشهـر القـعـدة مـستـصـحبـين للطريـق العـدة
ثـم اكـتروا سبـعـاً من الجـمال تحـملهـم في الخبـت والـرِّمـال
بـأربـعـين فـوق مـائـتـين كـالـكـرا من القـروش المـين

وقبل الرحيل من ميناء القنفذة يلقاهم هناك عاملها والكاتب بها ويجتمعون هناك بأحد الصوفية من السودان من أسرة آل المرغني وقد أسلم على يديه في السودان نحو ألف وخمس مائة رجل:

وجـاءنـا وزيـرهـا والـكـاتـب وجمـلة ممـن بهـا يـنـاسـب
ثـم أتى فـيهـا حـفـيـد المـرغني عثـمان وهـو بـالتـلاقي يـعتـني
في بـلد السُّـودان كـان غـائـبـاً يسيـح فـيهـا جـانـبـاً فجـانـبـا
ألـف وخمس مـائـة قـد أسلمـوا عـلى يـديـه بـالـدّعـا وسلَّمـوا

(١) زبل: ضاق.
(٢) قلفده: انتكاس الحال.

ثم يزمع هو ومن معه على الرحيل مواصلاً سيره إلى الأماكن المقدسة وذلك بعد عصر الجمعة والجو ممطر ينذر بتوقف السَّير لولا حصول اللطف من الله عز وجل:

ولم نـزل نـقـطع تـلك الأرضـا ... نـطلب مـن أعـانـنـا أن يـرضى
وكـانـت الأمـطار مـتـتـابـعـة ... لـولا حصول اللطف كـانت قـاطعة
كـان الشِّـداد بعـد عصر الجمعـة ... والـسـير دفـعـه عـقـيـب دفـعـة

وتتابع المراحل فيصبحون في (الحسبه) بعد سير الليل بطوله ثم النهار ويأتي عليهم الظهر وهم في «دوقه» وهنا يستحسن الجماعة المبيت بها فما يكادون يستقرون بها حتى تهطل السماء عليه بأمطارها الغزيرة:

حتى أتينـا بعـد فجـر (الحسبـة) ... وهـي محـل بـالـزروع مخـصـبـة
وأول الـظهـر رحـلنـا الـعـبـسـا ... واستحسنـوا في (دوقـة) التعـريسـا
وبـعـد حطِّ الـرحـل والأثـقـال ... أرخـت عليـنـا سحبهـا الـعـزالى

يبيتون ليلها وردحاً من يوم الظهر في (دوقة) وعند الظهيرة وقد بردت الشمس يواصلون العزم في سير دقيق حتى (يرخي عليهم الليل سدوله) وقد أنذرت السماء بأمطارها فهنا سكنوا تحت ظلال أشجار (المرخ) الوارفة:

ثـم رحـلنـا بـعـد ظـهـر الأحـد ... نـطوي بـحـمـد الله كـل فـدفـد
وبعـدمـا أرخى الـدجا سـدولـه ... أرخى السّحـاب فـوقنـا سيـولـه
فـنـزلـوا تحت غـصـون المـرخ ... وعقـد غيث السّحب فيـه مـرخى
والـكـل في ظـلالـه قـد قـالا ... وزاده بـثـوبـه ظـلالا

لكن الحال لم يستمر لهم طويلاً تحت ظلال المرخ وقد خشي الركب من تزايد الأمطار وحدوث السيول فعزموا بهمة كبيرة لقطع الطريق حتى يصلوا إلى أقرب بلدة. فيصلون إلى بلدة (الشاقة).

وهـا هنا قـامـوا لقـطب الشّـدة يحـاذرون مـطراً وشـدّه
فلم نـزل حتى وردنـا (الشـاقـة) ومـا رأيـنـا قط حـالاً شـاقـه

وفي هذه البلدة تناخ الجمال وقد وصلوها بعد صلاة العصر فاستكن القوم وذهبوا إلى مضاجعهم مبكرين حتى لا تفوتهم صلاة الصبح غداً فلا يأتي وقت الضحى إلا وهم في سيرهم المتتابع:

ثم حَـطَطْنا الـرحـل بعـد العصر وثـمـة نمنـا لـصـلاة الـفـجـر
والسـير قـد كـان إلى وقت الضحى والـكـل مـنـا بـالمـقـام فـرحـا

إن بعض حالات الرحلة يكون فيها متعة ونزهة خاصة عندما يكون الجو رطباً ملبداً بالغيوم وهنا يعجب الركب بموضع قد ملي بأشجار المرخ الوارفة وبجانبه بئر تغص بالماء العذب فيستقر الرأي على المكوث بهذا الموضع وإعداد الطعام فيه بعد أن ذبحوا تيساً لطعامهم كما يقول شاعرنا:

وجـعـلوا المـرخ لهـم ظـلالا وذبـحـوا تـيـسـاً لهـم أكـالا
وأوجـد الله بـه حـسّـيـاً كـانـت لهـم نـظافـة وريًّـا
ثـم تـغـديـنـا ونمـنـا سـاعـة والـظهـر صـلًّينـا بـه جمـاعـة

في (الليث) وتباشير الوصول:

ها هي المراحل تنطوي أمامهم ويكاد يقرب الغرض المقصود فبعد رحيلهم من موضع المرخ يأمّوا مدينة الليث حيث تكاد تنفذ عليهم مونة الرحلة بعد مغادرتهم المدينة:

والـليث قـمـنـا نَـحْـوَهْ نسـير ولـطف مـولانـا لـنـا (خـبـير)
كـان وصـولـنـا بـعـد الـغـدا وأجمـع الـرأي عـلى السـير غـدا
فـيـه أقمـنـا يـومنـا الـرّبـوعـا والـليـل أوقـدنـا بـه شـمـوعـا
ثـم أتينـا (الهضب) بعـد الـليث والخبـز لم يـبـق سـوى الحـثـيـث

ولولا أنهم استعدوا بشيء من الخبز اليابس كالذي يصنع من (الهريش) و(الرز) لحدث لهم مشكلة.

لكنه عضّده الهريش والرزّ بعد أكله نهيش

وفي بعض الطريق يتفيئون الظلال وقد لذعهم سموم الحجاز فاستظلوا تحت أحجار كبيرة، وهم متأهبون لارتداء ملابس الإحرام وقد قاربوا (يلملم) ميقات أهل اليمن.

وقد تفيأنا به ظلالا من صخرات سامت الجبالا
وهبت الرِّيح به سموما ونسفت رماله رجوما
وفيه ماء أشبه النباتا ذوقاً وفاق النيل والفراتا
وبَعْدَهُ سرنا إلى (يلملم) ميقاتنا في قصدنا للحرم

ها هم قد قاربوا الأماكن المقدسة فعليهم التأهب لشعائر الحج ومراسيمه.

وفي ميقات أهل اليمن (يلملم) المسمَّى الآن بالسَّعدية تهيأ الركب لشعائر الحج، وكان قد بلغ بهم الجوع وباتوا بالقرم (الخبز) وبعكس اسمه (المرق).

وبَعْدَه سرنا إلى يلملم ميقاتنا في قصدنا للحرم
وهو يسمّى الآن بالسعديه باسم بئر عذبة هنيَّة
وفي حماه قد قرمنا للقرم ما دومة بعكسها في النِّعم

ويعج الحجيج بالتلبية بعد أن يغتسلوا:

وعند وقت العصر شدوا الرحلا وأسبغوا بعد الوضوء الغسلا
لبيك لبيك أتاك الوفد مطلبهم منك العطا والرفد

وتمضي شعائر الحج معتادة كما هو مقرر في كتب الفقه.

وقد رحلوا من يلملم بعد العصر، وقد أجهدهم المسير مدة طويلة، حيث واصلوا رحلتهم من العصر إلى منبلج الفجر في اليوم الثاني، فيبلغوا موضعاً يسمى (أدام) وقد نفد عليهم الطعام ولم يبقَ منه سوى حفنات من الأرز فيكتفي البعض بقضم حبَّات (الدجر) حتى يتهيَّأ العشاء بعد أن يرفدهم بعضهم باللحم والدَّقيق:

(فصل) وكان السير بعد العصر حتى نزلنا عند وقت الفجر
وفي (أدام) نفد الطَّعام لم يبق منه إلا الرز والأدام
و(قرططوا)[1] قبل العشاء (القلا) (ليرتحوا)[2] بأكلة العشا
وذبحوا في سوحه (طليّا) وجعلوه للعشاء مظبيا
ويسر الله لهم دقيقا من بعض من كان لهم رفيقا

وها هي المراحل قد غدت قريبة وأوشكوا على الوصول إلى مشارف البيت العتيق لكن تقابلهم مشكلة الماء وتعسره:

وفي (زقاق) تحت ظل الثّمر قد نزلوا عند أوان السّحر
كالهضب فيه نحذوا قد قالوا بأنها تسها به الجبال
وبئره مسمية بالخضرا وبعدها البَيْضا كانت أمرا
عهدي بها مرحلتين كانت لكنها قد ثلثت فهانت
ولم يكن لنا بها من ماء لكن حملناه من البيضاء

ففي البيضاء من مكة يتزوَّد القوم بالماء، وقد بلغ بهم الجهد والتَّعب مبلغه فيستقرون هناك ريثما يستعيدون نشاطهم:

إذ وردوها عند نصف الليل والنوم في الأجفان وافي الكيل
واحتفظ القوم بماء في القرب لمطعم ومأكل ومشرب
ومنه شدَّينا إلى أم القرى عند الصِّباح يحمد القوم السرى

(١) قضموا بأسنانهم.
(٢) يرتح بمعنى يعزز أو يقوى.

وها هي مكة المكرمة تطل عليها بقناديلها تشق ظلمة الليل وقد أوشك الفجر على البزوغ:

وحين شاهدنا قناديل الحرم على المنارات مشَيْنا بالقدم
حتى وقفنا عند باب الحرم باب السلام وقت كشف الظلم
ثم دخلنا لصلاة الصبح وكلنا مستبشر بالنجح

ويشرع رحالتنا في الطواف وسائر شعائر الحج المعروفة فلا نطيل على القارىء بذلك،

حتى ينتهي بهم إلى رمي الشيطان وهنا يكتمل الحج ويفترق الشمل كما ذكر رحالتنا:

ثم رجعنا للمبيت في منى وبتمام الرمي تم حجنا
فالحمد لله على ما أنعما وما به الهنا قد أكرما
ومن هنا كان افتراق الشمل وراح كل واحد في شغل

يقول فبعض الرفقة عزم على الذهاب إلى المدينة للزِّيارة والبعض أزمع على المجاورة لمكة المكرمة عند البيت العتيق والبعض نوى العودة إلى الوطن لنسمع كل هذا يصوّره شاعرنا في أرجوزة:

فالبعض قد أزمع للتِّرْحال إلى المقام الأحمدي الغالي
وبعضهم مال إلى المجاورة ولازم البَيْت وكان حاضره
وبعضهم عاد إلى الأوطان وليس يعدو قدر الرحمن
والكل منا يسأل الرحمانا أن يجمع الشمل كما قد كانا

الرحلة إلى المدينة المنورة:

أما صاحبنا فإنه يتجه مع الفريق الأول لزيارة مسجد الرسول ﷺ، وكان ذلك في اليوم العاشر من العيد (عيد الأضحى):

من ها هنا نشرع في خوض السفر   إلى مقام المصطفى خير البشر
كان ابتدا تبريزنا للزاهر   أول يوم السبت بعد عاشر
أي عاشر العيد لأن العيدا   كان الربوع فاحفظ العديدا

وتشد الرِّحال للسير الحثيث حيث تصادفهم المراحل والأودية، ويقف بنا قليلاً عند وادي فاطمة:

ثم رحلنا العيس وهي رازمة   حتى حَطَطْناها بوادي فاطمة
وفيه نهر مثل غيل الوادي   ونخله مظلل للنادي
وفيه وافينا سبيل (القعرة)   قيل اسمه القرعا عند الخبرة
وهو فضاء ليس فيه ماء   ولا ترى لشجر أفياء

وهناك تنصب الخيمات ليأخذوا قسطهم من الراحة:

فيه جلسنا تحت ظل الخيمة   ولم نزل في قومة ونومة

ومن بعد صلاة الظهر شمَّر الجميع للرحلة ومواصلة السير فوصلوا إلى (خليص) قريب الفجر:

ومن عقيب ظهرنا حتى السَّحَر   إلى خليص انتهى بنا السفر

وفي خليص يوجد سوق ونخيل مثمر لكنه يكتظ بكثرة الناس وكانت الأيام أيام موسم:

وفيه سوق ونخيل ونهر   لكنه بكثرة الناس اجتغر[1]

وتتابع المراحل فيمرون على عسفان فرابغ فالجحفة الخ . . . :

وقد مررنا العصر في مسرانا   في ذلك اليوم على عسفانا
قلنا وسرنا بعد سير بالغا   حتى وصلنا في الصِّباح رابغا
وفيه شاهدنا غدير خم   وهو غدير وبهذا سمي

(١) اجتغر: اختل نظامه.

وهـو المسمى الجحفـة المشهـورة ومنـه قـد سرنـا إلى (مسـتـورة)

وفي مستورة ومع وجـود الناس وتـزاحمهم على المياه يفقد رحـالتنا «كوفيته» يقول في أسلوب مرح:

وفي حمـاهـا ضـاعـت الكـوفيـة عـنـد ورود بئـرهـا المـطويـة

ويمضي في رحلته حيث لا تخلو في بعض مراحلها من مناطق يوجد فيها السلو والراحة ففي الصفرا وجد الماء والظل والثمر:

ونحـو بئـر الشيـخ قـد أزمعـنـا سـيـراً ويـوم أحـد أجمـعـنـا
عـلى السرى نحـو حمى الـصفـراء وكـم لـتـلـك مـن يـد بـيـضـاء
لأن فـيـهـا مـسـجـد ونهر والـنهـر فيـهـا بـاسـق والـثـمـر

ثم إلى الخيف وهو الموضع الذي ينسب إليه مسجد الخيف يقـول رحالتنا:

وبعـدهـا كـان السرى نحـو الخيف بـحـد عـزم في المضي كـالسـيـف
كـان وقـوفنـا بـه قبـل الـسحـر وفـيـه نهر فـائـق كـل نهر

وقبل الظهر يكون عزمهم تجاه المسجد النبوي ويمرون على الفريش موضع شديد الحرارة:

ثـم شـددنـا منـه قبـل الـظهـر إلى الـفـريش في أشـد الحـر

في حضرة الرسول ﷺ وانتهاء الرحلة:

لكن تباشير القرب قد أزفت فينسى الركب كل ما صادفه من متاعب ومشاق:

لـكن لـنـا أنس بقـرب الـوصـل ونـشـوة تـنسي فـراق الأهـل
لأنـه خـاتمـة المـراحـل ومـنـتـهـى الـتـعـداد لـلمـنـازل
هـاجت إلى الـوصـل بـه أشـواق فـكـل قـلـب نـحـوه خـفـاق

فهب روح البشر والتَّبشير — أذكى من العنبر والعبير
ولاح من ربح الحبيب نور — أخفاه عن أبصارنا الظهور
ثم أتينا الحضرة العلية — يوم الخميس نقرأ التحية
هناك قرت بالوصال أعين — وزال عنًّا همنا والحر

وهبت نسائم السرور، وأيقن القاصدون ببلوغ الأمنية وعلت الضحكات سروراً وفرحاً:

وازدحم الضحك سروراً بالبكا — وأعلن المضمر وجداً بالشكا
وأشرق الظَّاهر من جماله — وامتلأ الباطن من جلاله

ثم يختم رحالتنا رحلته بالدعاء والصلاة على النبي ﷺ فيقول:

نسأل من مَنَّ بذا علينا — أن يغفر الذنب الذي أتينا
وأن يكون سعينا مقبولا — وكلنا بفضله مشمولا
بجاه طه المصطفى وسره — وفضله وما علا من قدره
صلى عليه ربُّنا وسلما — وآله أهل الكمال العظما
وصحبه وصالحي أمته — جميعهم وتابعي ملّته

وهكذا تنتهي رحلة العلامة المحسن بن عبد الكريم بن إسحق وقد رافقناه مرحلة مرحلة، في مواقف ومشاهد مختلفة بين عسر ويسر، ولين وشدة، وحزن وسرور، في شعر مرجوز بليغ، وهو منحى يكاد يصعب على غيره من المتضلعين بالشعر والأدب، ولولا تمرس أديبنا بذاك لما وفق هذا التوفيق الجيد في صياغة حوادث رحلته هذه.

بل إنه زان تعبيره أحياناً بتلك المواقف الساخرة التي وقعت له هو ورفقته في الرحلة، فخلا عن التكلف والتقرير المجرد الذي ربما اعتراه شيء من السأم وربما طرز تعبيره أحياناً أخر بتعابير عامية متعمّدة حتى يكون أكثر إيغالاً في النكتة وإيجاد روح المباسطة والخفة وتلك ميزة يتمتع بها رحالتنا رحمه الله.

جغمان ورحلة الحج

في القرن الثالث عشر والأحداث في اليمن تتمخض عن أمور عظام فمن صراع متجدد مع العثمانيين إلى احتلال مظلم لعدن من قبل بريطانيا إلى صراعات متكررة بين المتنافسين على الحكم.

كان قيام رحالتنا هذا برحلته في الهدوء الذي يسبق العاصفة ولما تحدث الأمور كلها بعد وتسفر الأحداث عن وقائع يشيب لهولها الوليد.

وقد حفظت لنا عاديات الزمان على غير عادتها هذه الرحلة العجيبة الفريدة من حيث الموضوع والتناول وهي أضخم رحلة وصلتنا من فترة القرن الثالث عشر بعد أن عدت الأيام على رحلة قيمة مشابهة لها هي رحلة العلامة لطف الله جحاف المتوفى سنة ١٢٤٣ المسماة (قرة العين في الرحلة إلى الحرمين) وهي رحلة عظيمة شملت وصف الأوضاع العلمية والتاريخية والاجتماعية لأهل اليمن والحجاز في القرن الثالث عشر وقد ضاعت هذه الرحلة مع ما فقد من تراث هذا العلامة الجليل، ولم يبقَ سوى إحالات يسيرة أوردها في تاريخه الكبير.

وكان وجود رحلة العلامة إسماعيل بن حسين جغمان المتوفى سنة ١٢٥٦ تعويضاً يسيراً عن رحلة جحاف المشار إليها وقد بناها على أسلوب فريد يجمع بين النثر والشعر وقد طرزها بملح من الأدب والتاريخ والفقه.

الرحالة جغمان:

وقبل الدخول في رحلة جغمان ومصاحبته في مشاهداته وحركاته وسكناته نقف قليلاً عند شخصية جغمان - فهو من الرجال المؤثرين في أحداث عصورهم ولم يكن مجرد عالماً همه الأول بحث وتقرير متونه وإنما هو رجل شارك في الأحداث واكتوى بسياسة عصره وكان له وعليه.

ولد العلامة إسماعيل بن حسين بن هادي بن صلاح بن يحيى جغمان بمدينة صنعاء سنة ١٢١٢ هـ وأخذ عن جل شيوخ عصره منهم محمد بن أحمد السودي والإمام أحمد بن علي السراجي والفقيه محمد بن صالح السماوي ومنه أخذ التشيع. وفي سنة ١٢٤١ انتقل إلى مقر أسلافه بخولان واستقر مدة بالروضة نحو تسع سنين، وفي سنة ١٢٥٢ بعد قيام الناصر عبدالله بن الحسن طلب علامتنا جغمان وولّاه القضاء ولم يزل في القضاء حتى قتل شهيداً مع الإمام المذكور سنة ١٢٥٦ بوادي ظهر.

وقد ترك المؤلفات القيمة منها (الصوارم المنتضاه في جوهر من المناقب المرتضاه) و(العسجد المذاب في منهج العترة في الأصحاب)، و(العقد الذي انتضد بذكر من قام من العترة لا من قعد) وغير ذلك.

رحلة جغمان:

والذي وقفنا عليه من بين آثاره العديدة رحلته إلى الحج المسماة (نيل الوطر في ذكر أحوال السفر إلى الحرم الأزهر والنبي الأنور) - وقد وقفت على مخطوطتها الوحيدة بخط ابن المؤلف العلامة حسين بن إسماعيل والرحلة عبارة عن أرجوزة طويلة أولها:

حمداً لذي الجلال والإكرام   على الهدى والمن والإنعام
من أمر الخلق بحج بيته   وحذر المستطيع عقبى فوته

ثم شرح هذه الأرجوزة في مؤلفه هذا واستدرك ما فاته في شعره من وصف للوقائع وذكر للمشاهد وغيرها.

وقد صدَّر الرحلة بأبحاث تتعلق بفريضة الحج والآثار التي أوردت في فضله مثل قوله ﷺ «**من مات ولم يحج**» الحديث، وقوله ﷺ «**يا أيها الناس فرض عليكم الحج فحجوا**» إلى غير ذلك. يقول: «فحينئذٍ شددت حزام العزم والاهتمام وقطعت علائق الأشغال التي لا يبلغ أحد لها مرام ونهضت إلى بيت الله الحرام وزيارة قبر رسوله الأمين» وذلك بعد تجهيز أمور السفر من إحضار الزاد وتذكير النفس بالآجلة وزوال العاجلة «وحصلت الزاد والراحلة وفارقت الأهل والمال والوطن رغوباً عن العاجلة في الآجلة».

إن الهدف من كتابة هذه الرحلة هو شحذ الهمم وترغيب المستطيع على أداء الفريضة «خلا أن هذا حث لمن طالع وريقاتي هذه وتذكيراً ليعزم على إجابة الداعي وترك الدنيا التي هي أعظم غروراً فما يثبطك أيها المالك للاستطاعة عن تشميرك للطاعة».

في البداية وسفر البحر:

كانت مغادرته صنعاء في خامس عشر شوال سنة إحدى وأربعين ومئتين وألف (١٢٤١) وهو لا يزال في إبان صحته وقوة شبابه ولما يكتمل سنه بعد الثلاثين سنة وكان يصحبه في الرحلة جماعة من الرفقة أهل صنعاء وهم: «السيد الفاضل يحيى بن إسماعيل زبارة (وهو جد المؤرخ زبارة) وجماعة أشار إليهم في سفره بقوله:

هذا وكان السفر والمسافره ... في عصبة مثل البدور السافرة
قد ذكر بعض منهم مفصلا ... في شرحنا والبعض خذه مجملا

وهم السيد أحمد بن قاسم حيدره مع جماعته وسعد بن يحيى المبنن (متولي حاكم الحضرة) وولده ثابت ومحمد بن علي بدر وعلى المفتي وحسن ابن محمد يقول إنه من بيت الإمام ورفيقهما الفقيه عبدالله الثلائي والفقيه علي بن إسماعيل النعماني وولد أخيه حسين بن إسماعيل وثابت بن زيد

الحروي وغيرهم من الأجراء على الحج. يقول: «ويكفي في ذكرهم الإجمال مطابقة لمقتضى الحال».

وفي الطريق من صنعاء إلى الحديدة صحبهم القاضي علي بن عبدالله الحيمي ليتولى شؤون ناحية اللحية، وهذا الرجل له موضع كبير في نفس رحالتنا يقول عنه:

«تابع الله عليه خيراته وزاده من هباته، كان بعوده معنا لحكومة اللحية وكانت طريقه وإيانا بندر الحديدة، ولهذا القاضي من الشفقة على الحجاج وترميم أمورهم وتفقد أحوالهم ما لا يمكن وصفه».

ثم تبتدي مراحل الرحلة فيبيتون في أول مرحلة بقرية (بوعان) أقرب المراحل إلى صنعاء فمفحق حيث سوقها وجمالها.

«وكان مبيتنا جميعاً أول ليلة في مطرح بوعان وعزمنا منه صبح الثلوث إلى (مفحق) ومررنا بالخميس ناصفة النهار ووصلنا (مفحق) بعد عصر يومنا».

وفي مفحق يصادف السوق ويتفق مع بعض الناس لسوق الجمال ونقل الأمتعة إلى (الحديدة) يقول:

«وصادفنا آخر سوقه (يعني مفحق) وبقينا في سمسرة، وكارينا على بعض أثقالنا من هناك على جمال معنا إلى البندر وحملنا صحبة حمالين بنظر المقدم محمد معيض».

ويستمر في السير وفي الطريق يجهد حمار رفيقه السيد يحيى زبارة فيأمر القاضي عبدالله الحيمي بتفريق حمولته على دواب الجميع.

«ارتحلنا قبل طلوع الفجر وصلينا في أعلى عقبة (مفحق)، وكلَّ عن السير حمار الرفيق المذكور فبلغ القاضي وكان أمامنا، فاستوقف الحجاج وفرق حمل السيد المذكور على دوابنا جميعاً». وتتوالى المراحل فيمر على قرى

عديدة ومواضع مختلفة بين أنهار وأثمار.

«ثم ارتحلنا فوصلنا مطرح (صيحان) بعد ظهر يوم الربوع فقيلنا فيه إلى بعد العشاء قبل غروب الشمس ونـزلنا (الـدورا) وهو كهف بجنبـه مسـاكن ووصلناه غـروب الشمس ليلة الخميس ثامن عشر شهـر شـوال وصلينا العشائين واسترحنا إلى طلوع الفجر».

ويواصل الركب سيره فيمر على (المحيام) وهو وادٍ خصيب تكثر فيه الأشجار، ويقطع المراحل سيراً حتى يدركه الليل فيستمـر في السير حتى يصل إلى (صنفور) وهـو أول موضـع يوجـد فيه العشـاش سمة البـلاد التهامية.

«ثم ارتحلنا إلى (المحيام) وهو وادٍ كثير الأشجار ملاويه قيل تبلغ ثلثمئة وستين ملوى ولم نزل فيه إلى نصف الليل، وهذه أول ليلة سافرنا فيها ليلاً وقيلنا نهاراً.

فوصلنا (صنفورا) وهو أول مطرح يوجد في العشاش وفي سائلته عين جارية تسمى (سهام) وفي «صنفورا» يحلو لهم الإقامة حيث الماء الجاري والخضرة فيمكثون فيه بقية ليلتهم، ولا تزال عناية القاضي الحيمي ترعاهم فيبعث إلى والي الخبت الأديب العلامة محسن بن عبد الكريم إسحق يشعره بمنزل الركب وضرورة وجود جماعة من العسكر تحميه من اللصوص وقطاع الطريق.

وكانت الطرق مخوفة في ذلك الوقت خاصة حين يكون الوقت زمن هرج وفوضى. «فاستدعى جماعة يرافقونا من باغ أو مختلس فرحلنا بعـد عصر يومنا الخميس حتى وصلنا (شعب الظّاهر) وانتظرنا وصول الجمـال الحاملة للأثقال وصلينا العشائين حتى وصلت».

وفي (الخبت) يستقبلهم واليهـا بالـطبول والفـوانيس تنفيذاً لإشـارة

مرافقهم القاضي الحيمي ثم يصحبهم بنفسه حتى يصلوا إلى موضع يسمى (دقره) وهو مقر عمله.

«ورحلنا إلى قرب ثلث ليلة الجمعة وإذا بوالي الخبت السيد المذكور قد أقبل بالفوانيس والمرافع والرجال للقيانا والتأنيس ثم صحبنا بنفسه حتى وصلنا قرب (دقرة) وهو محل إقامته».

وهناك يواصل الرّكب السير وتتابع عليهم القرى والمحلات وتحدث لهم بعض الشِّدة من قلة الماء. فبعد أن فارقهم الوالي المذكور: «مضينا إلى خبت بن درعان ولم نصل إلى سوق الأحد إلا بعد نصف الليل ومررنا إلى (الحجير)، وإذا به مسجد في أعلا أكمة يليه (ماجل) ـ بركة صغيرة ـ خال عن الماء. وكنا قد حملنا معنا ماء من سهام المتقدم ذكره، وقلّ على بعض الحجاج، ولم تحصل المواساة به ظنًّا به ولا حصل شدة احتياج إليه ولا وجدنا عند صاحب المطرح منه شيئاً».

وبدأت معالم ومدن تهامة تتضح، فبعد موضع (الحجير) يمرون على آخر يقال له «أبو كرش» حيث يستريح الركب فيه قليلاً ثم يطالعهم (الصنيف) وهكذا:

«بعد شروق الشمس من يوم الجمعة رحلنا إلى «أبو كرش» ومضينا إلى وادي يقال له «كلابه» وكان وصولنا (أبو كرش) نصف يومنا وقيلنا فيه إلى بين العصرين وارتحلنا حتى وصلنا (الصنيف) قبل غروب الشمس وأهبنا محتاجاتنا».

وفي الصَّنيف أصلحوا أمورهم وقعدوا في عشّه هناك قريبة من السّوق يقول «وفيه سوق عجيب مستمر، فيه أكثر ما يوجد في أسواق المدن والبنادر».

وقبيل العصر يرتحل الجميع نحو المكيمنة مع جماعة من بيت العليِّ. وغيرهم «يهدونا إلى الطريق» يقول «ووصلنا قبيل فجر الأحد بعد طول

سفر ومشقّة» ويمكثون في القرية المذكورة إلى عصر اليوم «الأحد» يقول في وصفها «وفيها عشش قد خانها الدَّهر بعد آن، وتعاقب عليها الجديدان فيها رجل يخدم الواصلين يقال له مدني».

في الحديدة

وصل الرحالة إلى الحديدة مع جماعة وكان القاضي علي بن عبدالله الحيمي قد كتب إلى عامل الحديدة وقاضيها بتلقّيه مع صحبه، فأرسل قاضي الحديدة العلامة محسن بن أحمد السبيعي خادمه مع بغلته لتلقيهم. «ووصلنا الحديدة غروب الشمس يوم الأحد، وكان الوصول إليها أول مقصد» وفي الحديدة يتّجه إلى الباب الجنوبي فيجد خادم الحاكم المذكور ينتظره هناك «وأمونا حتى وصلنا بيت حيدر، وهو بيت عظيم غربي البندر بالقرب من بيت الحاج يوسف آغا، مشرف على البحر ولم أرَ كبحر الحديدة في البحور على أبواب البنادر في شدة ثورانه وتلاطم أمواجه وكثرة هياجه».

ثم يدخل ذلك البيت المذكور وهو كالفندق الآن «له كشك عظيم شامي[1]، وطاقتان كبار غربي فوق البحر وأتوا بدلال القهوة ثم دعينا لمائدة عظيمة أهَّبها حاكم البندر، وفيها أنواع الطعامات واللحم والأرز والحلوى، وغيرها من الفواكه إكراماً للقاضي الحيمي أعزَّه الله».

ويلقي نظره على البندر فيرى فيه قوّة عظيمة يتمنَّى مثلها لصنعاء «ورأيت في البندر المذكور قوة عظيمة في فرضته وسوقه ورتبه وتجاره وغير ذلك تمنَّيت أن قوة «أزال» التي هي صنعاء كمثل قوته وصادف وصولنا أيام الموسم وإليه تحال البضائع الهندية والسّندية والرُّومية» وكانت الحديدة على ثغر من الثغور ترد إليها البضائع من كل صوب.

---

(١) أي من جهة الشمال.

العزم من الحديدة ودخول البحر

كان الجميع برفقة القاضي العلامة عبدالله الحيمي، وقد مكثوا معه في الحديدة ستة أيام ثم يفارقهم القاضي المذكور متوجِّهاً إلى محل عمله اللحية «وكانت قد وصلت الأثقال. والمرسل بها من صنعاء صحبة الجمالين مع توابع الأمير نازلين من صنعاء» فجاءت حاجاتهم سالمة من التَّلف والاختلاس «ومن ألطاف الله الجارية أنا لم نستنكر غياراً في شيء من الأثقال أبداً بمنّ الله علينا وعطفه» وبعد وصول أغراضهم وأثقالهم ما عليهم إلاّ التأهب للعزم على السَّفر ودخول البحر، وما أدراك ما البحر يقول في أرجوزته:

ثم ركبنا البحر ليلة الأحد　　　في فلك شخص طبعه فما أحَدْ

يقول «أهَمّنا ما نحتاج لركوب البحر، وينبغي للإنسان أن لا يترك شيئاً يحتاج إليه مثل القعادة والموقد والسَّود «الفحم» لعمل المعيشة والزير ليمْلأ من كمران ما يحتاج إليه الإنسان لنفسة من القوت وغيره كالأرز والتمر وإذا كان صفراوي الطبيعة استصحب «الحمر»[1] والسّكر واستصحب معه إناء من مدر[2] إذا بدره الدَّفع «القي» فهو بجنبه».

وهذه الأشياء لا يدرك المسافر قيمتها إلاّ إذا احتاجها أثناء سيره وكأنّ المؤلف قد اضطر إلى شيء منها.

ويتوجّه الجميع إلى المركب «ركبنا البحر آخر نهار السَّبت لعله ٢٧ شوال سنة ١٢٤١ في ساعية السيد يس» وهو رجل يصفه بحدّة الطبع، وكان موضعهم في السفينة «عند باب الدّبوسة[3] كل بقعادته لأنها وسيعة

(١) هو ما يعرف عند بعض الناس بالتمر الهندي.

(٢) هو الخزف.

(٣) الدبوسة غرفة في مؤخر السفينة تحت السطحة وهو عبارة عن بيت المونة «ربابنة الخليج ص ١٨٢».

وإن كان قد طال عليها العمر فعرض باب الدبوسة قعادتين كبار وكذلك السطحة» وقد رافقه في الزّاد على السفينة الفقيه إسماعيل وولد أخيه الحسين ابن أحمد بن إسماعيل الذي يقول عنه «وكان له عافاه الله من العناية بعمّه المذكور ما لا يوصف وكذلك بشأني لما غير عليّ البحر الطبيعة» ومعهما خادمهما الحاج ناصر الوضيحي «وهو رجل عجيب وسيع الصدر كثير النظافة في عمله».

والآن يقلع بهم المركب، وقد صدر كلامه عن المشي في البحر بأبيات المنظومة المشروحة:

هـذا ولـلشراع قـد نشرنـا عـنـد طـلوع فـجـرنـا وسرنـا

كان إقلاعهم عند بزوغ الفجر وقد سارت بهم السفينة في البحر حتى وصلت بهم إلى جزيرة كمران وهي جزيرة جميلة كان قد وصلها العلامة يحيى بن مطهر ووصفها في رحلته كما مرّ بنا، أما رحالتنا جغمان فإنه يصفها بقوله «جزيرة عجيبة عذبة الماء طيبة الهواء كثيرة النخيل أبياتها العشش وفيها بئر يقال لها بئر القاضي في أعلا محل البور أحلاها وأطيبها، وفيها مسجد عجيب من البحر يتوضّأ للصلاة وفيها قلعة».

ثم يخرج إلى البحر وكما هي العادة عند من لا يألف السَّفر يحدث له شيء من الاضطراب وتغيّر المزاج «وقع لي من الربشة وتغير الطبيعة عند دخول البحر لعدم مساعدة الرّيح» وقد قطعت السَّفينة بطن جابر، ومرّوا من أمام اللحية حتى جيزان في مدة نحو يومين إلى نصف اليوم الثالث، ثم يمرون على عقبة البحر التي يخشاها المسافرون وهي غبّة جيزان وقد مرَّ بنا فعلها في الرّحالة يحيى بن المطهر، أمَّا عند رحالتنا جغمان فإليك ما قاله «وفي غبة جيزان كثر هيجان البحر وتلاطم الأمواج ومضى علينا يوم الجمعة لعله ٤ شهر القعدة سنة ١٢٤١ فتكدّرت الساعية، وضاقت بمن فيها وجعلت تضرب بمن فيها يميناً وشمالاً حتى أيقنا بالهلاك، وأكثرنا من نطق

الشهادة واستمر الحال من وقت صلاة الجمعة إلى بعد ذلك اليوم ونحوه ولكنها أمور نسبية فبالنظر إلى سفر البحر مع تهدي الريح وموافقتها هو سفر شاق، وبالنظر إلى يوم الجمعة فسفر طيب».

وبعد تخطي الخطر في البحر يكون السفر هيِّناً وقد مرّوا على جبال معروفة عند أهل البحر منها «كتنبل» و«الفيران» و«البرك» و«الخسعة» و«حلي ابن يعقوب» حتى يصلوا إلى القنفذة وكان السفر من الحديدة حتى القنفذة في خلال خمسة أيام.

من القنفذة إلى السعدية

ما كاد يصل بهم المركب إلى ميناء القنفذة إلاّ والنفوس ضيقة حرجة من كرب البحر ومشاقه يقول «لما وصلنا في البحر إزاء بندر القنفذة وكان قد ضاق بنا الحال، ولم تكن تصبر النفس على البقاء في البحر بحال» وقد تساعد الرّكاب على خروج من يتحسَّس عن طريق البر وتيسيرها إذ النّفوس لا تطيق السير على المركب وأهوال البحر. يقول «يسَّر الله تعالى وله المنّة على تيسيره أن ساعد أكثر الركاب على الخروج من ذلك المحل وأجمع الرّأي على خروج القاضي العلامة عزّ الدين محمد بن أحمد البهكلي، وكان صاحب فطنة وخبرة بالأمور ومعاودة، وكان خروجه البندر ينظر بعين البصيرة رخص الكرا وأمن الطريق أو عدمه» فجاء المرسل إلى أصحابه بالخبر الذي ترتاح إليه النفوس من أمن الطريق ورخص الأجرة ووجود الجمال، يقول علاّمتنا «فما أرْوَح علينا من خروجه صبح الجمعة بالخبر السار من رخص الكرا وأمن الطريق وتيسير الجمال» وهذا ما في النفس فما كادوا يسمعون بالخبر حتى تركوا المركب لصاحبه غير مأسوف عليه «وخرجنا القنفذة تلك الساع بجميع آدباشنا[1] ولم يبقَ في الساعية إلاّ القليل حتى

(١) جمع دبش أو لعله جمع الجمع وهو المتاع.

بلغ جملة الخارجين نحو من مئة نفر ومن جملة من بقي فيها السيد يحيى بن إسماعيل زبارة الرَّفيق الأول ولم أزل به نعالجه للخروج فلم يسعد وكان افتراقنا نحن وإياه من هنالك».

خرج أصحابنا إلى القنفذة وفي نفوسهم حسرة من عدم مطاوعة صاحبهم الفاضل في الخروج مُن البحر، وقد فوّض أمره لله، أما هم فإنهم يستقبلون القنفذة بفرح وسرور وقد أمنوا المخاطر المهولة التي شاهدوها على البحر. وشتّان بين جمعة البحر التي قضوها يصارعون الموت وبين جمعة القنفذة «قيّلنا في القنفذة بقية يومنا ولم أرَ كيوم الجمعة في البحر شدّة كما مضى ولا كيومه في القنفذة سروراً وفرحاً بالخلاص واستئناساً بأكثر المألوف».

وها هو الآن يصف البندر ويلقي عليه النظرة الفاحصة «وبندر القنفذة بندر عجيب له سور مقضَّض أكثره وأبواب وبيوت عامرة وخانات وسوق وسيع يوجد فيه الحبوب والبقسماط وهو طعام يصطنع في البلاد الشامية ويحمل إلى كل محل منها كما يحمل الكعك في بلادنا إلاّ أنه لا يمكن استعماله إلاّ بعد ترطيبه بالماء أو المرق».

يقول ـ وهو في أثناء الحديث عن القنفذة «وأكثر أهل البندر الحضارم ورتبته وواليه من الأتراك لأنه محكمة السلطنة واسم واليه «جمعة» لعله من عبيد الأتراك وهو رجل عجيب سيما في تأنيس الغريب».

وهو يتحدّث عن مأكولات البندر ومسجده وخطيبه والمفتي فيقول «وأما سمن البندر المذكور وعسله فأكثر سمنه البحري وهو ضعيف وعسله أكثر المستخرج من الرطب، وبه مسجد عظيم ومنبر وحاكمه السيد أحمد السقاف من الحضارم ولعله قد سكن صنعاء وأخذ من طباع أهلها ولطافتهم».

ثم يرتحل من القنفذة في ليلة السبت ٢٢ ذي القعدة على جمال لأهل

«الحسنة» قرية هناك يقول «لم أكد أنظر ألطف منهم في الطباع وحسن المعاملة والمحافظة على الصلوات» وكانوا قد أنابوا في الإشراف على النّظر في أمور الحجاج في أثناء الطريق أحمد بن قاسم حيدرة، وصاحب الرّحلة في متابعة الجمّالين ودفع أجرهم يقول «ثم شددنا الرِّحال وخرجنا فلم نجد باب البندر مفتوحاً وضاق بنا الحال» فلم يكن أمام الجميع إلاّ دفع ما يسمح به للجنود لفتح الباب «ثم إن القاضي عزّ الدين سلم للأتراك الذين على الباب نصف ريال وفتحوا لنا باب البندر».

وقد لاحظ الرّحالة في أمر العملة أن القرش يسمى في القنفذة وما بعدها ريال «والقرش عبارة عندهم عن الزَّلطة وهي درهم منقوش عليه اسم الضارب ومكانه وبالقرش الحجر، منها في القنفذة ستة عشر ريالاً وفي جدّة خمسة عشر وفي مكة أربعة عشر ريالاً وفي المدينة ثلاثة عشر، ويزداد وينقص، في بعض الأحايين وثمة ضربة ذهب تسمَّى برغوثة عبارة عن ثلاثة قروش إلاّ ربع زلط وضربته أم عشرين وهي عبارة عن نصف الزّلطة وأم عشرة عن ربعها وأم خمسة عن ثمنها والدّيواني فضّة خالصة وهو شيء يسير عبارة عن ربع عشر الزلطة والأرباع الفرانصي كثيرة يتعامل بها والزّلط أنفق منها. وثمة ضربة زلط كبار جيّدة الفضّة تباع الواحدة منها بثلاث زلط من النحاس وتجد الصيارفة كثير في الأسواق تأخذ ما أردت» هذه أسعار العملة وصرفها وحالة النقد ومسمياته وقد أعطانا الرّحالة شيئاً من التَّفصيل.

وبعد فتح الباب من المدينة يتوجّه الركب بحمّاليه، ويمشون بقية ليلتهم إلى آخر صبح يوم السبت فيصلون «الحسبة» وقد أخذ منهم الجهد مأخذه يقول «هان عندنا ذلك بالنظر إلى ما كنا عليه في البحر» وزاد الأمر شدة أنهم لم يأكلوا شيئاً في الطريق لسبب يذكره المؤلف فيقول «كان قد شق بينا بطء الغدا لأنها كانت أول المراحل في البر لم يتفطّن لاستصحاب شيء من موجودنا مثل الكعك والتَّمر، وإنما هو في الجوالق وكأنه عند

الاحتياج إليه في السفر بَعُد بعيداً» وقد أخذ من هذا الإهمال درساً وأصبح لا يغادر موضعاً إلاّ وكيس الخبز من بين حاجياته القريبة يقول «وبعد ذلك توسَّلناه وكنت أجعله في كيس وآخذه معي حتى إذا ركبت جعلته خلف ظهر الجمل فإذا احتجت إليه أخذت منه وينبغي لكل أحد استصحاب شيء من ذلك وأن لا يخرج من المحط الأول إلاّ وقد تناول من الطعام ما حضر عنده ولا يغترّ بقرب المرحلة فلاختلاف الدّيار تأثير زيادة في الأصرار، ومعاشرة الجمالين وإتحافهم فإني كنت لا آخذ من الكيس المذكور لنفسي شيء إلاّ وقد أعطيت الجمال منه قبل ذلك» وهذا التَّودد إلى الجمالين له أثر في رغبتهم وإذكاء نشاطهم.

وكانت القيلولة بالقرب من بئر «الحسبة» «تحت أشجار مدوحة هنالك إلى بعيد عصر يومنا، وارتحلنا إلى دوقة» وقد وصلوا دوقة ثلثي ليلة الأحد وصادف وجودهم ميعاد السّوق به «فعرّسنا بالقرب من سوقه المشهور تحت دوحات كبار وبتنا بقية ليلتنا وأصبحنا بذلك المكان، وكان اليوم يوم السّوق المذكور رأينا الغنم والأحمال الدّخن والتمر وغيرها وبقينا فيه إلى ناصفة النّهار، ثم ارتحلنا منه بين صلاة العصرين إلى «الشاقة» الأولى» يقول وهي كاسمها، وكان خروجهم من «دوقة» بعد صلاة الظهر «وقطعنا تلك الأودية التي أكثرها الدخن، وبؤر «جمع بئر» مالحة وشعابها عظيمة وهي تتصل بجبال الحجاز» ولم يصلوا إلى وادي الأراك إلاّ بعد صلاة فجر يوم الاثنين يقول «وقد كلّت الجمال عن السير وصلناها صباحاً وهو وادٍ عظيم في أشجاره ثمرة الأراك وهي كثيرة ما توجد في بنادر تهامة وغيرها».

وفي هذا الوادي طاب المقيل ونعم البال «وقيّلنا تحت أشجار صغار جعلنا الخيام على أعلاها بالقرب من بئر هنالك» ومكثوا من شروق الشّمس إلى قبل العصر ثم يرتحلون إلى نحو الليث فيصلون إليه صباح يوم الثلوث وهناك يقصدون واليه أحمد بن شنبر، وقد لقيهم بالترحيب والاحترام. وفي اللّيث يقول في وصفه «هو دون بندر القنفذة وأكثر بيوته

العشش وأهله الحضارم وفيه سوق متوسط الحال وفي سوقه مسجد وسيع يوجد فيه المصاحف للدَّرس». ويلاقيهم في الليث الفقيه علي بن عبدالله العتمي «من أرضنا اليمن من محل يقال له عتمة كان لذلك الفقيـه من السرور بقدومنا والعناية بشأننا وتحصيل ما نحتاج إليه من أمورنا ما لا مزيد عليه أقعدنا في مربعة الشريف ولم يَغْفل عنَّا» ثم يرتحلون إلى الهضب وبعضهم يسميها الخضراء وهذه القرية يثني عليها رحَّالتنا ويعجب بمائها «لأن الليث مـاؤها ملح، وهـذه ماؤهـا عذب وكـان وصولنـا النَّهار أول الزّوال، وهي جبال بيض فيها كهوف» واستمروا فيها إلى قـريب صلاة العشاء «وحملنا الماء الكثير من هنالك» ثم سار بهم الجمالون إلى موضع كثير الأشجار، يقول الرَّحالة ولم نشعر بقصد الجمالين فأوصلونا بعد نصف اللّيل إلى محل بين أشجار ووضعونا هنالك فأبينا فأبوا وتم مرادهم» ويسمى هذا المحل «المعبة» والسّبب في وضعهم هناك هو بحث الجمّالين عن العلف وقد أشـار إلى ذلك ببعض التَّفصيـل يقول «وسبب ذلـك هـو ضعف الجمال واحتياجها إلى العلف فيعرسون بذلك المحل تَخْفيفاً عليها ويجعلون يقطعون أغصان أشجار هنالك تشبه الطلح، ثم يوقدون عليهـا بالنَّـار حتى تلين ويزول شوكها ثم يقطعونها صغاراً ويحملونها عـلى ظهور الجـمال قوتـاً لها ويسمونها «الشّويط» ويبيعون الحمل بنحو ريالين ولعل هذا إنما يكون في الأيام الشحيحة كسنتنا هذه وأما أيام الخير، وكثرة المطر والمراعي في الجبال والسّهول فلعلّهم لا يحتاجون إلى ذلك» ويقرّر محتاج الإنسان من الماء في قدر مرحلة نحو قربة من الماء «أقل ما يكفي الإنسان من الماء إذا ارتحل من محل إلى محل ولا يوجد له الماء في المرتحل إليه قربة متوسطة أو دونها يسير للصّلاة وعمل المعيشة وقهوته وشربه».

ويصلون أخيراً إلى السعدية وهناك يكون الإحرام والتـأهّب للحج «كان وصولنا السعدية بعيد الفجر يوم السبت ولم يكد يمر بنا في المراحل أطيب منها ولا أروح للقلوب وفيها بئر عظيمة عذبة بناها بعض السلاطين

آل رسول وفيها جبل للتعريس «المبيت» شرقي البئر بجنوب ومسجد عالٍ على أكمة غربيها وحلاوة مائها كرامة للنَّبي ﷺ لما أرضعته حليمة السّعدية، وقد رأينا أهل القرى المحيطة بها يأتون إليها للاستسقاء وسقي الأنعام ولم يكد يَظْهر نقص قط مع أنهم يحيطون بها من جميع الجوانب ويلقون إليها الدّلاء نحواً من ثلاثين دلواً، وكان بقاؤنا إلى بعيد عصر يوم السبت وصلَّينا العصرين وأحرمنا من ذلك المسجد. وأحرم بعضنا بالحج إفراداً كالمستأجرين به وبعض الحجاج لنفوسهم وبعضنا بالعمرة تمتّعاً كأكثر الحجاج لنفوسهم منهم كاتب الأحرف» يعني الرّحالة نفسه.

وقد عزموا من السعدية بعد عصر يوم السَّبت وقد مضوا ملبين محرمين بقية يومهم وليلتهم حتى وصلوا «البيضا» عقب شروق الشمس يقول في وصفها «وهي شعب عنده بئر قليلة الماء مباركة تكفي الواردين والقاطنين بالقرب منها فقعدنا فيها إلى قائمة الظهيرة وبادرنا بالرَّحيل لبعد المسافة» ولذا فالمؤلف ينصح بالإسراع في الرّحيل حيث أنها مسافة طويلة فقد رحلوا من البيضاء يوم الأحد قرب الظّهر ولم يصلوا إلى مكة إلاَّ في صبح يوم الاثنين.

في مكة

حَمَدَ الله وشكره ببلوغه هذه البقعة الطَّاهرة، وقد ظهر ذلك في ثنايا كلامه يقول «بلّغ الله ما رجوته من الوصول إلى مكة يوم الاثنين وكان شوقنا للوصول إلى المأمول هو المزعج والماحي لوعثاء السّفر» وقد أنساه هذا ما لقيه من صعوبة وكانت أسفار المتقدّمين هي الأسفار الحقيقية لا أسفار اليوم «وقد هانت عندنا مشقة السفر بجنب لذّة البلوغ للوطر» وكان رحمه الله قد لقي صعوبة في المشي ـ خاصة بعد الإحرام يقول: «وقد ظهرت في رأسي نبت كأمثال المشمس وأكبر» ولذا فهو ينصح الحاج بأن يصحب معه «مظلة صغيرة ولو من الوطن تقي الرأس من حر الشمس».

وفي مكة يستأجرون بيتاً جنوبي باب العمرة «كان قد استأجره لنا بعض الإخوان وهو الحاج يحيى بن سعيد اليمني الشّاوش وكان له مدّة سنة في مكة المشرفة مهاجراً» ثم يقضون مناسك العمرة ويعودون إلى منزلهم المذكور، وكانت له طاقتان تطل إلى «صرح الحرم الحرام ينظر إلى الكعبة منها ومن يطْوف حولها» وفيه يسكن الفقيه يحيى بن صالح اليمني بأهله «وهو نعم الأخ الصَّالح» وكانت تصلهم كل يوم نحو قربتين من ماء زمزم «نستوعبها من غير ماء يشرب في الحرم من دلو زَمْزَم ألذ مشروب في أرض الله سبحانه وتعالى ولا تدرك ثقله ولا ما يدرك من الماء القليل من غيره، فمن المبالغة في شأنه أن لو شرب أحد منه زيراً وهو الدّوح بلغة صنعاء لم يدرك ثقلاً ولا تضجّراً فهو الشفاء للأسقام، ولم أجد ما يجد فيه بعض الناس من العضاضة والملوحية بل لم أجد في المياه مثله» فهذا حاله مع ماء زمزم المبارك.

وصف مكة

ثم يلقي نظرة على مكة المدينة ويعطينا وصفاً تاريخياً اجتماعياً قلّما نَظْفر به في كتب تلك الفترة يقول:

«كان الوالي بها أحمد باشة ابن أخت باشة مصر محمد علي وكان أحمد ذا تواضع يخرج للقعود على سرير له وسط المسعى من صبح اليوم إلى وقت الظّهر لفصل الخصومات والانتقام من أهل الريب والهنات وفيها أسواق عظيمة تجتمع فيها أموال جزيلة قل أن يوجد بعضها في غيرها، فسوقها يجتمع فيه الحبوب والفواكه أجمع كما وصف الله تعالى بقوله ﴿**يُجْبى إليه ثَمراتُ كلِّ شيء**﴾[1] وفيه العين الجارية التي من نحو الطّائف تمر بعرفات والمزدلفة ومنى وتصل مكة وتدور في أزقتها وفيها بركة عظيمة حتى قيل أن لكل أهل بيت إليها كوة ينزعون منها وقد شاهدت ذلك في كثير من البيوت

---

(١) سورة القصص آية ٥٧.

والمدارس وفي بعض بيوت الأغنياء يجعل في عرض البيت أنبوبان أو اثنان ويتّصل بها قساطير من نحاس إلى العين المذكورة فمن مرّ بذلك المحل وأراد الشرب مص ذلك الأنبوب فيصعد إلى فيه الماء دفعة واحدة فيشرب منه حاجته ثم يرسل الآخر. وفيها طواحين على بغال وخيل ومقهايات كثيرة يجتمع فيها الأتراك، وفيها محل في أعلاها فيه قبّة قيل إنها محل ولادة سيد المرسلين ﷺ . وفي البلدة حمّام لم أدخله، ولكن نعت لي كنهه وقيل ثمّة غيره والله أعلم، ولم يكن في البلاد مثلها في كثرة الطعامات والطبائخ فيها لكن ينبغي الاقتصاد منها على غير ذي الدسومات».

وكما وجدنا العلامة يحيى بن مطهّر يعيب على الباعة والسقاة تخطّي الرقاب في الحرم الشريف نجد رحالتنا العلامة جغمان ينكر تلك الخصلة يقول «هذا وبيت الله الحرام ومحيد الشريعة الغراء ومظهر الدين والإسلام قد اعتورته بدع أولئك الطغام الأعتام منها أنهم لا يرون له حرمة ولا يرقبون لمؤمن فيه إلاً ولا ذمّة بل يستطرقون بالأحمال الثقال ويكثرون فيه من القيل والقال ويستحلّون فيه البيع والشراء ويأتون فيه بكل قول مفترى لا يأمن الإنسان على نفسه فيه ولا ماله ولا يكاد يترك وحاله يسمع الأكاليم الفاحشة في المطاف وعند الاستلام وفي زمزم والركن والمقام».

ومن الغريب أنك تجد جماعة ممن يدعي تعليم الناس الطّواف والسعي «تراهم ذئاباً عليها ثياباً وأنمأرا بلا مخالب فتراهم يصيدون الحجاج بمخالبهم الصائدة ويرتعون في شباكهم الذي من نشب فيها عدم ذات يده».

ومن طرائف هؤلاء السعاة والمطوّفين في النّصب والاحتيال ما يحكي عن بعضهم أنه طوّف رجلاً من أهل اليمن فلما فرغ من تطويفه وسعيه عاد به المطوف إلى بين الركن والمقام فقال له: قل اللهم فقال اللهم فقال: إني نويت فقال إني نويت لمطوفي هذا بريال فقال لمطوفي هذا بديواني[1]

(١) كأنها عملة أقل من الريال.

فغضب غضباً شديداً حتى كاد يبطش به وجعل يسبه سبًّا عنيفاً» يقول «ولهم مضحكات وعجائب يطول شرحها لا يدري بها إلاّ من شاهدها».

كذلك نجد رحالتنا يستنكر بدعة المقامات الأربعة في ذلك الوقت كما فعل العلامة يحيى بن مطهر، ورحالتنا هنا يزيد المجال ويتوسَّع في الانتقاد يقول «هي المقامات التي يلي بها بيت الله الحرام فمقام الحنفي من الشرق ومقام الشَّافعي من الشرق بشام، فوق زمزم يماني في المقام، ومقام الحنبلي من الشرق ومقام المالكي يلي الحنفي من الغرب بيَمن هذه المقامات أحدثها جهَّال بني العباس أشبه شيء بقوله عز وجل ﴿**والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين**[1]﴾ فقد لها بها الجهال حتى ظنوها من الشّريعة بمكان مكين وأن الصَّلاة في سواها ناقصة» ثم أطال القول في هذه البدعة وذمّها.

وكان مدة بقائه في مكة ثمانية عشر يوماً يذكرها في رحلته بطيب الأوقات والخير يقول «ولله ما أحلى الاستلذاذ بمواطن الرَّشاد، فقد كانت تتم لنا أوقات في الحرم، مشغولة بالدَّرس والطواف والصلاة فللّه الحمد» وقد لقي من علماء مكة في ذلك الوقت العلامة الشيخ عبدالله سراج والشيخ عمر الريس والشيخ عمر عاشورة يقول «وهو شيخ أميل إلى الإنصاف عظيم الزّهد عما في أيدي الناس».

ويلفت نظره في مكة تسبيح المآذن في اللّيل وأدائها يقول «سمعت المؤذن فيها يرحّم عوضاً عن التَّسبيح ويسأل العفو والغفران والرّحمة والإعانة على المتجر الرَّبيح ويهتف في الأول بحق محمد ﷺ، فيؤذن ويسمى الأذان الأول، ثم قليلاً وبعيده بحق أبي بكر وبعيده بحق عمر، ثم كذلك عثمان ثم أخرى يقول بحق علي بن أبي طالب يمدّها ويرفع صوته إعلاماً للمؤذنين الذين على المنارات بدخول وقت الفجر فيؤذنون».

ويقول إن المنارات سبع أولاهن من جهة اليمن، وهي المسماة بمنارة

(١) سورة التوبة آية ١٠٧.

النّبي ﷺ ثم التي تليها منارة علي، ثم التي تليها منارة أبي بكر ثم التي تليها منارة عمر ثم التي تليها منارة عثمان ثم منارة عبدالله بن الزّبير ثم الحجاج بن يوسف.

ومن اليوم الخامس من الحجة «يجعلون أعلا المنائر القناديل ويسرجونهن باللّيل» وقد شاهد أكبر البيوت المحيطة بالحرم «أبوابها وطاقاتها إلى الحرم وهي من البدع المحدثة حتى أنك تنظر الأتراك وهم في طاقات تلك المنازل ينفخون من أفواههم دخان التتن النّتن الذي يسمونه بالتنباق إلى وسط الحرم» وقبل أن يغادر الحرم ويتأهب للحج يذكر لنا أن هناك «قبتان شرقي زمزم قيل والله أعلم أنها تخزن فيها آلات الحرم».

إلى عرفة

كان إجماع الناس من أهل الحرم والواصلين أن أول شهر الحجة الحرام يوم الخميس فيكون الوقوف يوم الجمعة «بعد الفحص من الحاكم والباشة هنالك وإعلان الخطباء على رأس المنبر بدعاء النّاس إلى ذلك والشهادة بما هنالك تعظيماً لسنة الجمعة ولعل ذلك لفضل اليوم أو لكونه حجته ﷺ كانت سنة الجمعة وهو أقيس وإلاّ فما أعلم بشيء يصحّ فيها».

وعلى كل فإن رحّالتنا شد رحاله مع جماعته قاصداً جبل عرفة يقول «رحلنا من مكة المشرفة بعيد الظهر وكان إحرامنا للحجّ من الحجر تحت الميزاب وصعدنا والعزم على المبيت بمنى وجمع صلاتي العصرين قصراً وجمعاً بها وعشائي ليلة عرفة وفجر يومها أفضل لفعله ﷺ ثم ضربنا الخيام وبتنا بها إلى قبيل الفجر، وعمل لنا الغدا» وبعد صلاة الفجر يتوجّه إلى عرفة ويمر بمزدلفة «ووصلنا الجبل ضحىً فطنبنا خيامنا ولقينا أصحابنا أهل اليمن الآتين من طريق الحجاز من الكباسية «آل الكبسي» وغيرهم وفيهم أمير العصبة السّيد محمد بن قاسم غمضان الكبسي».

وفي أثناء الوقوف الذي هو الحج حدث ما أزعج رحّالتنا العلامة جغمان رحمه الله فقد بلغه أن «عبدالله بن حسين الحجاجي ضلّ الطريق ولم يصل محل الوقوف وكان مريضاً قبل ذلك وكنّا قد كارينا على إطلاعه إلى الجبل فضلّ على المكاري في المغاربة وهو محل أعلا مكة فحصل معي من القلق والضيق ما لم أعرفه وبذلت للأجرة لمن يأتيني به فلم أجد أحداً فلذا إني ما خرجت من الخيمة بل جعلت أتلو سورة أم القرآن وأستغفر الملك الديّان وأتأوّه من أمر ذلك الفتى حتى رأيت الناس ينجالون إلى المسجد لصلاة الجمعة فلم أكد أخرج أبداً حتى لها وعلمت لما رأيت عليه أن لزوم بقعتي أصوب لما لا يؤمن مع كثرة النَّاس واجتماع الأتراك وأهل الرياسات حتى أنه لا تبقى حرمة لمسكين أبداً وقد يقع الإنسان في محظور فصليت في الخيمة الظهر والعصر قَصْراً وجمعاً كما جاء عنه ﷺ» ومستنده في عدم الخروج إلى الصلاة مع الموانع السابقة قول صاحب «الكافي» من كتب الزيدية لا تصلَّى الجمعة في عرفات بلا خلاف لأنها ليست من مواقع مكة والخلاف في منى.

وفي عرفات يرى موكب الشريف حاكم مكة وكذا الباشة يقول «رأيت شريف الحرم يحيى بن سرور نازلاً من عرفات محرماً راكباً على فرسه في نحو عشرين راكباً بهيئة ووقار ما رأيت أحسن منها وأما نزول الباشة فبالأمور التي لا تخفى من الرَّمي بالمدافع ورفع الأصوات والازدحام بين علمي عرفات الموسومين بالحمران كأنهم محذوفي للألف والنون مضمومي الميم لا يكاد يفقهون قولاً».

وبعد ذلك ينزل نحو مزدلفة بعد غروب الشمس من بين العلمين ويتم بقية مناسك الحج مما هو معروف عند الحجاج من مبيت بمزدلفة ورمي للجمار إلى غير ذلك، وبعد الرّمي يقول «فككنا الإحرام وصلَّينا العيد ونحرنا الهدي ومكثنا يومنا هنالك وبتنا ليلة ثاني النَّحر فلما أصبحنا صلّينا

الفجر ونزلنا مكة المشرفة لتتميم أعمال الحج من طواف القدوم والسعي وطواف الزيارة.

الرحلة إلى المدينة المنورة

بعد فراغه من زيارة أداء مناسك الحج بدأ يتأهّب لزيارة المدينة المنورة وأمامه كما هي العادة أمر الجمال والرحل وقد صادف هذه السنة أن أمير الحاج اليمني وهو العلامة قاسم بن محمد غمضان «خيل إليه أن يفعل كما فعل الأمير الذي من قبله من منع الناس عن قطع كرى جمال بين المدينتين حتى يقطع هو، ولم يكن له خِبْرة ولا معاودة لأن هذه السنة أول سنة من إمارته، وكان الأمير من قبله السيد الكيس الفطين محمد بن علي ابن محمد بن حسين المراجل عافاه الله، وكان له خبرة بالأمور هذه فلما عرف منه أهل الجمال الذي بهم تشدّ الرّحال مثل بيت بريك من أهل الحسنية وبني الضّيغم امتنعوا» واضطر النّاس بعد ذلك إلى المكاراة بأكثر مما قرّره أمير الحج «فكاروا على جمالهم منهم الشقدف بثمانية عشر ريال وكان السّيد قاسم وافق عند أربعة عشر ريال أو دونها فسار علم ذلك وعلم حقيقة ما هنالك واضطر بعد إلى المكاراة مع من لا يعتاد ولا هو من أهل الخبرة والانقياد بل قوم أغلاف أجلاف ومخرجهم لا يعرف إلى المدينة التخريج ولا يألف المكاراة للحجيج» وقد لقي الحجاج من هؤلاء الغمر المكاره حتى «أنهم وصلوا إلى الصّفرا وحتّموا أن لا بد من تسليم بقية الكرى فسلّم الكل إلاّ القليل ثم أدبروا عنهم».

أما رحّالتنا العلامة جغمان فإنه وجد أكثر الأصحاب قد سبقوا إلى أحد الجمال التي كارى عليها أمير الحج السابق ذكره «فلم نصل عند شيء بل أخذها سائر الأصحاب من الزُّوار وشدوا عليها أثقالهم وذهبوا عنّا» فبقي تلك اللّيلة في مكة المكرمة وكان قد أرسل بأشيائه الثقيلة التي لا يحتاج إليها في الطريق إلى جدّه في بيت الحاج محمد أكرم. فلما أصبح

الصّباح يوم الأحد ١٨ الحجة سنة ١٢٤١ جاءه من تأخر معه يخبره بأن الجماعة «من الزّوار الذين كان منهم بالأمس الفرار واقفون في محط خارج مكة يقال له جرول وأنهم لا يرحلون حتى تأتيهم» وكان قد وصلت مجموعة من الجمال مع جَمّاليها ذكرهم الرّحالة بالأسماء منهم عطية بن ناهض، وأخوه محمد وآخر يقال له مسفر بن عائض ومولى يسمّى حابس بن محسن وشيخ لهم يقال له راشد بن فارس فما كان من صاحبنا إلاّ أن استجاب لطلب رفقته وطاف طواف الوداع ثم «خرجنا لشدّ الرحل مع من ذكر وكان لنا منهم محمد بن ناهض صنو عطية وحابس بن محسن، وكان شداد ابن فارس شاداً للفقيه العلامة محمد بن علي الحيي وغيره من الزّوار ومسفر المذكور شاداً لرحل القاضي العلامة الحسن بن الحسن الغفاري».

ويصل إلى جرول فيجد أصحابه منتظرين قدومه وتم الاتفاق بينهم والجمّالين على ستة عشر ريالاً في كل شقدف وأربع عشر في الشبرية «وحملونا زيادة أربعة ريال لكثرة زادنا وخيمتنا فأسعدنا إلى ذلك هرباً من سلوك سبيل المهالك».

ويرحل الجميع ويمرّون بالزّاهر وقبر أبي لهب ومحل محرم العمرة وموضع فخ المقبور فيه الحسين بن علي الفخي «مررناه ونحن على الجمال» ثم يصلون إلى وادي فاطمة «وهو وادٍ عجيب كثير النخل والعيون الجارية والثمار الدَّانية وبه مسجد» وهناك يستمر مع صحبه في المكوث بهذا الوادي «ولم يقع منه رحيل ذلك اليوم انتظاراً من الجمالين لبقية أصحابهم فأمسينا وأصبحنا صبح الثلوث حتى جاء وقت الظهر فارتحلنا منه إلى عسفان، وكانت مرحلة طويلة لم نصل إليها من ظهر يوم الثلوث إلى بعد شروق الشمس يوم الرّبوع وهو محط لا نخيل به ولا حي بجنبه خلا أن به بئراً عظيمة حلوة الماء يسمّيها أهل الاختبار بئر النقلة قالوا كان ماؤها أجاجاً فلما وصل إليها رسول الله ﷺ في جماعة من أصحابه يشكون إليه ما يجدون من عضوضة الماء وعدم سوغه فدنا منها وتفل فيها وقال اشربوا بسم الله

فعاد ماؤها عذباً ببركته ﷺ».

وباتوا في هذا المحل إلى عصر يوم الأربعاء ثم رحلوا منه إلى سوق الخليص «فوصلناه قبيل طلوع الفجر يوم الخميس وأضحينا بـه وإذا هو سوق متوسّط يوجد فيه الحبوب والعسل والتّمر والرّطب فأخذنا من رطبه وعسله وفيه عين جارية من محل حط رحلنا ومن باب مسجد عظيم هناك بمقدّم ومؤخر وشماسي وفي مقدمه منبر معمور ورأيت بجنب قبلته مكتوب:

من يـرحم النـاس فـالـرحمن يـرحمـه فضـلاً ليـذهب عنـه الهم والبـاسـا
ففي صحيـح البخاري جـاء متصـلاً لا يــرحم الله من لا يـرحم النـاسـا

وذكر السمهودي أن هذا المسجد مسجد لرسول الله ﷺ».

ويمكث الرّكب إلى قبيل العصر ثم يرتحلون إلى «الصَّابر» فيصلون إليه عقيب شروق الشمس من يوم الجمعة والصَّابر هذا يقول عنه الرحالة «قريب من البحر جاء إليه حوات بلحم طري وماؤه مقبول لا بالعذب ولا بالأجاج» ويبقى فيه إلى عصر الجمعة، ثم يرحل إلى «رابغ» وهو «محطّ يليه سوق دون سوق الخليص فيـه خلق وماؤه أجـاج لأنه قـريب من البحر والعذب فيه بعيد وأهله بهم شواهة» وما يزال في سيره هو ومن معه فيمر على «مستورة» وهي بلدة لم تعجب رحالتنا «كثيرة الرِّمال طائرته كثيرة الريح تأتيها من قبيل الظهر فتشق مع ذلك عمل المعيشة وغيره، وفيها بئر ماؤها وبي إذا بات ليلة أنتن وتغيَّر ولكثرة ريحها وطيران رملها ووبائها سمَّاها بعض الحجاج بعكس اسمها يعني مكشوفة» وبعدها يصل إلى بئر الشيخ ثم إلى مفازة لقيت الجمال منها مشقة «وصلنا بعد عصر الاثنين إلى كثيب رمل فأمر الرّكاب فيه بالنّزول لطوله وصعوبته وضعف الجمال عن مشيه بالأحمال وهو كثيب طويل يسمى عالج، ولم أكد أر مثل هذه المرحلة في طولها وضعف الجمال بها فإنه بلغ الحال إلى أن رميت بعض الشَّقاديف والشباري عرض الطَّريق وسارت الجمال عطلاً وبعضها لم يقدر على المشي» حتى وصلوا إلى

الصفراء، وكان النَّاس قد أنهكهم السّير «وعاد أهل الجمال ببعضها وبعضها أخبرونا بهلاكها» وجلسوا في الصفراء بقية يوم الثلاثاء (إذ كان وصولهم في صباحه) وليلة الأربعاء ونهاره وليلة الخميس وأكثر نهاره «لضعف الجمال وتغلّب أهلها - يعني أهل الجمال - سيّما من كان من أولئك الذين جاء بهم أمير الحاج» وفي الصَّفراء يعود أهل الجمال إلى طلب قسط المدينة الباقي من أجرهم يقول «ولم نرحل من الصفراء إلاّ بعد تسليم نجمة المدينة لأن الكراء جعل تسليمه نجماً ثلاثا نصفاً في محط مكة وربعاً في المدينة وربعاً في جدّة فلم يسعدنا أهل الجمال بالعزم من الصفراء حتى سلّمنا الرّبع الذي يُسلم في المدينة أولاً لكونهم غير المعتادين وثانياً كون السّنة شهباء ما عرفوا مثلها وثالثاً لضعف الجمال فيريد أكثرهم تعويضاً بجمال من الصفراء ويريدون دفع الكراء لأهلها» ثم لا يتم إلاّ أمر أصحاب الجمال، وأخيراً يكون العزم من الصفراء بعد عصر يوم الخميس. فيصلون إلى الحمرا غروب الشمس ويصلّون بها العشائين ثم يرحلون نحو الخيف فيصلونه جوف اللّيل ليلة الجمعة «وأصبحنا به وإذا هو قرية عظيمة كثيرة البناء وفيها سوق عجب نحواً من سوق الصفراء ومسجد عظيم تمر به عين جارية عظيمة يتوضأ منها للصَّلاة وصلينا به الجمعة» وبعدها الرحيل حيث يصلون «الفريش» صباحاً «فحطَطْنا الرحل في شعب الحاج بالقرب من بئر هنالك» وقد حدّثنا هنا عن جمَّاله الذي يسوق له الجمال بأنه رجل مسن خبير بمسالك الطَّريق حتى أن بقية الجمّالين يسترشدون بخبره في الطريق «كانوا يأتون إليه يسألونه ويرحلون إذا رحل ويعرسون إذا أعرّس وكنت بحمد الله قد أخذت عليه وعلى شيخهم راشد بن فارس الوثيقة في المعاونة على البر والتقوى وإنصاف المظلوم من ظالمه وكان في ذلك تقليل ما يوصف من جرأتهم».

ومن «الفريش» إلى «الشهداء» وقد مرّوا عليه مروراً وهو موضع يطل عليه جبل «الرَّس» ثم وصلوا نجداً يقال له «نجد مفرح» في وقت إسفار

الفجر ومن هنا بدأت معالم المدينة المنورة تلوح.

في المدينة المنوّرة

وبعد مرورهم «نجد مفرح» يصلون إلى أبيار علي «وهي بؤر كثيرة الماء عذبة ينزل إلى بعضها بدرج لقرب مائها وحولها نخيل مثمرة ومسجد» وفيها يضربون الخيام ويصنع لهم الغداء حيث أن الجمال أرهقها السّير يقول «وينبغي لمن وصل أبيار علي ولو في الجمال نضّة للسّير «نشاط» الوقوف بها ولو ساعة وإن كان القلب قد اضطرمت نيران أشواقه وتعلّقت بالحضرة الشريفة علائق أشواقه».

ولما قربت مشاهد المدينة لاحظ رحالتنا رحمه الله النشاط على الجمال كما لاحظ هذا فيما سبق العلامة يحيى بن المطهر يقول «وبعد النّزول من «المدرج» تنظر الجمال ولها دوي ورغا وحنين ولم يكد يبن بها قبل» وهذا من معجزاته ﷺ، وقد أطال العلامة جغمان رحمه الله في ذكر الزيارة ومشاهد المدينة وآداب الدّخول إليه ﷺ نقتطف من ذلك قوله في وصف القبر والحجرة الشريفة «وأما قبره الشريف أفضل بقاع الأرض فأعلا المسجد من جهة الشرق شمال المستقبل في الرَّوضة الشريفة وعليه قبة عظيمة وعلى القبر تابوت فيه الكوكب الدرّي وفصّان آخران وعلى التابوت كساء أخضر مكتّب وبين الشّباك والتّابوت نحو أربعة أذرع. وصفة الكوكب ثلاثة فصوص بيض الكوكب أوسطها وهو موضوع على صفة سهيل وعليه دائرة من النجوم الصِّغار لأجلها كان ما ترى من الخفوق وعدم الاستقرار وثمة علائق في الحجرة الشريفة من قناديل الذّهب والمصاحف وغيرها والقبة الشريفة من جهة الشام إلى جهة اليمن ثلاث أصطوانات وزاويتان من جهة الشرق إلى الغرب» ثم ينزل إلى خارج المسجد الشريف ويصف ما حوله يقول «وفي صرح المسجد نخيل يتبرك بثمره ويليه قبّة متوسّطة قيل إنها قبر بعض أهل الأمر وقيل خزانة المسجد وعلائقه ويلي النخيل من جهة اليمن

بير لعلو مائها من العين الهابطة من قبا ينزع منها للنخيل ويتبرّك بمائها شرباً فقط وفي أسفل المسجد من نحو الشام دست كبير له أنبوبان يتوضأ منهما للصَّلاة وفي باب الرَّحمة نحو خمسة أنابيب كذلك وثمة ميضأة غربي باب السَّلام قريباً منه وثمة أخرى هنالك أبعد منها بوسط السوق المقابل لباب السّلام عملها باشة مصر محمد بن علي في هذه السّنين القريبة وهو أعجب ما رأيت».

ثم يتجه إلى قباء ويصف ما حولها من مآثر فيقول: «وفيها بئر عظيمة فيها عينان تجريان يختلطان في وسطها ثم يفترقان في ساقيتين متقاربتين يمران إلى المدينة المنورة إحداهما عذبة والأخرى مالحة وقد اختبرتهما فوجدت فيهما فرقاً، وتلك آية باهرة ومعجزة ظاهرة. وقبا المذكورة طيبة يوجد في حوائطها النّخل والعنب والرّمان، وتسقى تلك الحوائط بالخطارات، وفيها نخيل طيبة ورمان، يضرب إلى الحموضة، وأكثر دوره عافية «خالية» وصف لنا أهلها أنهم جُوهدوا في العام الماضي من الأتراك وأخربت بيوتهم وتركوها أياماً»، ثم يزور قبر حمزة في أحد وذلك في صبح يوم الثلاثاء. يقول: وفي «المهراس» وهو «غدير ماء يجتمع ماء أحد وغيره في مائه برودة وعذوبة وأكثر أهل الجهات يستقون منه وهو يمشي في مشهد الحمزة» وبعد فراغه من زيارة الحمزة يتوجّه إلى بقية قبور الشهداء رضوان الله عليهم ثم يعود إلى المدينة قاصداً الحرم الشريف، وبعد صلاة عصر يوم الثلاثاء يخرج لزيارة أهل البقيع، وبعد ذلك يتأهب للعودة إلى الوطن ويبقى ليلة الثلاثاء ثم يوم الأربعاء، وفي صبح الخميس يودّع القبر الشريف يقول «بعد أن أكثر علينا أهل الجمال وشكوا ضعفها وقلة علفها».

وكان رحمه الله قد تملأ من المشاهد المقدسة خاصة القبر الشريف فإنه يقوم بالزيارة «عقيب كل صلاة مفروضة وأزور بأصحابي» ثم يذكر في رحلته آداب الزِّيارة والوداع بتوسع. وفي الوداع تسيل العبرات وقد كان رحمه الله من أهل الخشوع والرِّقة، وفي ذلك يقول «أسبل العبرات وتابع

الزّفرات وانظر إلى ما يمنعك من المرافقة من الأهل والمال والعيال وغربة الدّيار وشط المزار، وعدم موافقة الطّباع بينك وبين أهل تلك البقاع ولا تحقر أحداً منهم فربما غلبت عليه العناية الربّانية لمجاورته للحضرة العالية».

وكما لاحظ العلامة يحيى بن المطهر رقة أهل المدينة ولطافة أخلاقهم كذا تكون النظرة عند رحّالتنا جغمان وهذا يدلّ على صدق الحديث عندهما رحمهما الله يقول: «هذا وإنهم كما شاهدتهم عياناً ألين عريكة من أهل حرم مكة وأصفى منهم قلوباً وأعظم احتراماً للحرم الشريف من أولئك فإنك ترى فيهم أمراً واحداً وهو عدم التّعرض لغريب الدِّيار بما يشقه بل ربما أحبوا إيناسه وعدم ترويعه».

وفي طريق العودة يمر على المواضع التي جاء منها سابقاً حتى يصل إلى الصفرا وقد وصفها بقوله: وادٍ عجيب فيه خمسة مساجد تمر العيون على أبوابها، أحسنها مسجد غربي سوقها تصلى فيه الجمعة وجد إمامه رجلاً من أهل اليمن هو الفقيه محمد بن علي العنسي «أصله من عنوس أهل برط رحل أبوه إلى مكة ثم إلى المدينة، وعاد ولما وصل إلى الصفراء حطّ بها رحله واتخذها دار وطن، وهو الآن في عشر السبعين لم أرَ كمثله فيمن رأيت من زهده وورعه، وعدم تفيهقه، فإنه لا يذكر أحداً بسوء قط».

وهذه الصفرا تعتبر في حكم المصر وقد شاهد فيها السوق فقال «يوجد فيها الحبوب والأرز والبضائع قليلاً والرطب والتمر كثيراً وكان أهلها يأتوننا كل صباح بمواعينهم المملوءة رطباً جنياً فنأخذه منهم ونساؤهم آتين بالمراوح وقلائد التّمر وأكثر أهلها والمحيطين بها من حرب بغاة يستلبون المال والماكث لديهم لا يرقبون في مؤمن إلاًّ ولا ذمّة وأنهم أخذوا في دخلتنا أخائذ كبيرة على الناس من الحجاج، وكذلك الرّجوع وكنا لا نبيت حتى نضع الجوالق التي فيها محتاجاتنا أجمع بيننا ونضع عليها الخيمة وكانت كبيرة واسعة، ثم يحاط بها من جميع الجهات ولم يبت بالشقدف سوى كاتب الأحرف» يعني نفسه.

وبعد الصفراء يتّجه إلى بئر الشيخ وكان المشي من آخر نهار الخميس حتى طلوع شمس الجمعة، بعد أن مكثوا في الصفرا خمسة أيام، ومن بئر الشيخ إلى «مستورة» وتحت هذه البلدة تقع لهم حادثة تتعلق باللّصوص وقطاع الطريق إذ بينما أصحابنا في صلاة الفجر، وكان رحّالتنا إماماً لهم «ما شعرنا ونحن في آخر ركوع من الصّلاة إلاّ والجمّالين يصرخون بالتفجع جاءكم القوم يا حجّاج ويأخذون بسلاحهم ويثبتون في مراكزهم فاعتدلت من الرّكوع وجعلت أقنت: ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء ربنا أغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين وغير هذا» وكان المؤلف رحمه الله قد أطال في قنوته والقوم على خوف ووجل من قطاع الطريق يقول «فما راعني والله حتى خرج بعض المؤتمين من خلفي فإنه لم يثبت معي منهم في الصلاة إلا القليل فلما سلَّمت وسلم من معي نظرنا وإذا بجماعة على كثيب رمل نحو اليمن فرجعت إلى الشقدف وأخذت سلاحي وثبت مكاني، وكل واحد من الحجاج أخذ سلاحه وتأهَّب وجعلت أحثّهم على أن لا يفروا ولا يجبنوا، فما كان إلاّ أن دنا أولئك، وإذا هم جماعة من الجمالين معهم الجمال التي كاروا عليها للزّوار المتقدّمين الذين لم يعترض عليهم أمير الحاج المتقدم ذكره، وقد أوصلوا أصحابهم جدّة، وعادوا فلما وصلوا، أخبرونا أنهم جبنوا منّا، ولم يشعروا بنا إلاّ عند إضاءة الصّبح» فاطمأن القوم وهدأت النّفوس لكن هؤلاء الجمّالة جاؤوا معهم بخبر أفزع بقية الجمّالين الذين مع أصحابنا، وهو أنهم علموا بأن هناك سخرة على الجمال في جدة «فراع ذلك العلم من معنا من الجمّالين وجعلوا يتآمرون بينهم».

وبعد هذه الحوادث المروعة يرحل الجميع من مستورة قبل عصر يوم السبت إلى «رابغ» يقول «وحصل معنا من الفتور والضّعف ما لا يوصف» فيصلون «رابغ» قبل طلوع فجر يوم الأحد، وفي رابغ تتجدّد المصاعب لأصحابنا ويصرّ الجمالة على عدم التقدم إلى جدّة حيث تأكد لهم خبر

السّخرة على الجمال، ونصحوهم بالذّهاب إلى جدّة عن طريق البحر، يقول «وأخبرونا أنه تجدَّد لهم علم السخرة وأنهم لا يرضون بالشخوص من ذلك المحل أبداً إن مشينا فهذا البحر والسّفن في فرضته، فرضة رابغ يدخلونا فيها ويسلمون نوالنا[1] إلى جدّه وإن لم تركونا وعادوا إلى أهلهم».

فلم يوافق أصحابنا على هذا الطَّلب من الجمّالين وازداد النزاع بينهما «وطال الكلام حتى طاح النهار وقرب الليل فقلنا لهم يوصلوننا رويس جدة وهي عشش بالقرب منها على نحو ميل فامتنعوا، ولم يعمل فيهم القول» وبعد ما اشتد الجدال رضخ جماعة من الحجاج لقول الجمّالين، وذهبوا في البحر «فأسعد منا جماعة مثل السيد أحمد بن قاسم حيدرة والفقيه عبدالله الثلائي، ومن معهما إلى ركوب البحر وساروا نحوه» وتركوا رحَّالتنا وجماعة معه وحدهم في العراء ولم يرَ رحَّالتنا مخلصاً من هذه الورطة إلاَّ أن يرحل وبعض رفقته مشياً على الأقدام ويترك أمتعته الثقيلة مع بقية الأصحاب فربّما وجد في الطريق من الجمّالة من يحمله «ولما فرغنا من صلاتنا شاورت الولد علي النّعماني في الإيهام بالذّهاب وترك جميع الأدباش فساعدني، ومعنا جماعة فأخذت المصحف وجعلته في عنقي وأخذت عصاي وذهبت موهماً بذلك أنا وإياه، ومن معنا، وتركنا من أصحابنا جماعة لدى الأدباش فما كان إلاَّ أن تخفونا بعد أن أسبل اللّيل أستاره، وكنا قد صلّينا العشائين ومضينا بقية ليلتنا فوصلنا «الصابر» في نحو طلوع الشمس، وكان قد ضلَّ في تلك الليلة من المشاة جماعة منهم الحاج أحمد النَّسري ولم يصلوا إلا عرض نهار يوم الاثنين، مع جماعة من البدو وبالأجرة، إلا الحاج علي بن محمد الحجازي فإنه لم يضلّ وعاد إلاَّ صنوه يحيى بن محمد فلم يجده وكان آخر العهد به» وهكذا تكون مشاق الطريق وصعوبة الحج في ذلك الوقت، ومن الصَّابر يواصل رحَّالتنا العلامة إسماعيل جغمان المشي رجلاً فيرحل قبل العصر «وملنا يميناً عن الطريق التي جئنا منها على الدّخول فوصلنا محلاً

(١) الأجرة التي دفعوها إليهم.

يقال له «أم سدرة» والثّويلب شامي «ذهبان» الشام بكثير فوصلناه نصف اللّيل أو بعده، وقعدنا به إلى قبيل غروب الشّمس يوم الثلوث ثم ارتحلنا إلى «عويم» وصلناه طلوع الشمس بعد تخبّطات وغلطات» وبينما هم كذلك في هذه المخاوف وجهل الطريق أحياناً يأتي الله بالفرج ويلتقون في الطريق بقافلة قادمة من جدّة فيها أخ لمحمد بن ناهض جمّال رحالتنا يخبرهم صدق الأخبار المتعلقة بالسّخرة إلاّ أنه لا بأس عليهم إذا هم لم يصلوا إلى جدة مباشرة فلما سمع بهذا الخبر الجمّالون الذين تركهم في «رابغ» جاؤوا إليه على أن يضمن لهم السّلامة، يقول الرحالة في هذا الموضوع: «وكان أهل الجمال قد أرادوا غدرنا ولقاءنا هنالك فيسّر الله شحنة شخص من حرب قادم من جدّة من لدى صنو محمد بن ناهض يخبرهم أن ثمة سخرة وإنما لا بأس عليهم بوصول «الرويس» فجاؤوني وأخذوا منّي المواثيق أن لا يقع عليهم اختلاف من أحد إن وصلوا «رويس» جدّة فالتزمت لهم بذلك» وكذا أخذوا على بقية أصحابه المواثيق الغلاظ، ويتم الصّلح بينهما ويذهبون بهم في الطَّريق المعتاد ولم يكد يمشوا بهم إلاّ قليلاً حتى أناخوا الجمال وزعموا أن هذا الموضع هو رويس جدّة المطلوب يقول شارحاً هذه القضية «ثم ارتحلنا منه قرب عصر يوم الرّبوع فوصلنا قبل نصف الليل إلى محل فقال أهل الجمال هذا الرّويس فمنا من أسعد وعمل إلى جمله ليستبركه ومنّا من أبى وذهب جماعة من المعاودين[1] لطلب الحقيقة فوجدوها خديعة من الجمّالين عظيمة فذهبنا بعد ذلك والزّوار يصرخون بأعلا أصواتهم إجلاباً على أهل الجمال وهم حينئذٍ ضربت عليهم الذلة والمسكنة وجعلوا يتضرّعون ويتعطّفون ويناشدوني العهد، فقلت لهم العهد مشروط بإيصالنا محل كذا فقد نقضتموه أنتم بما أخلفتم. فمضينا نحو ثلاثة أميال وأكثر حتى وصلنا رويس جدّة الحقيقي».

وصحّ ما توقّعه الجمّالون فقد وجدوا بانتظارهم عبيد أمير جدّة واقفين

(١) أي المعتادون الأسفار من الحجاج.

لهم بالمرصاد لأخذ جمالهم، ولم يكن بيد رحّالتنا ما يصنعه فتركهم لأقدارهم تأخذهم العبيد للسّخرة، أما هو فإنه أخذ خمسة جمال وتعاون مع رفقته وتوجهوا بمفردهم دون أهل الجمال، وأمّا الجمالون «فأقبلت بهم عبيد الأتراك على المطايا وساقوهم إلى جدة سوق السبايا ونزلت بهم الكـرب والرَّزايـا وحلت بهم المصائب والبلايا ولم يزالوا عنهم حتى أوصلوهم بندر جدّة».

أما أصحابنا فإنهم وصلوا بالجمال إلى جدّة وحَطّوا عنها الأثقال ثم تسلّمها أهلها وجلس صاحبنا ومن معه من الرفقة على أمتعتهم حتى طلوع الفجر «وصلّينا ثم عدنا للاصطباح وانتظار من يأتي في الصَّباح فأتاني حاملي الأثقال ودخلنا جدة صبيحة يوم الخميس».

في جدّة

بعد الاطمئنان على سلامة الأرواح والأمتعة كان دخولهم جدّة «من الفرج بعد الشدّة العظيمة من الأهوال في طريقنا وعدم الأمن على نفوسنا وما معنا وشدة وعثاء السفر لما يلاقيه الإنسـان من الضَّجر لا سيـما من الجمّالين أهل تلك الديار وأنهم كما قال الملك الجبار (حمر مستنفرة) لا تراهم يفرّقون بين الغثّ والسّمين ولا يميزون بين الحصا والدُّر الثمين بل لا يقطع عندهم المعروف باللسان ولا باليد من الإحسان».

وهذا القول يكاد يكون غالباً في أهـل الجمال خـلال ذلك الـوقت لصعوبة الطَّريق ومخاطرها، وعلى العموم فإن رحّالتنا نزل جدّة بأمن وسلام وقد بقي عليه أمر الفرجة والمشاهدة كما هي عادته في التأمل والاستغراب وقد انتقل إلى «بيت عجيب عـلى ثلاثة أسقف وقعدنـا في ديوان لـه به كشك[1] وطاقتان مشرفة على البحر قريباً من بيت الشريف غالب القاعد فيه ليس بيننا وبين البحر حائل».

(١) الكشك عند المولدين شبه رواق خارج عن بناء البيت واللفظة فارسية.

وقد لاحظ أنهم كل صباح جمعة ينشرون علماً أحمر «في أعلا دقل دقيق في رأس قلعة مقابلة للبيت الذي نحن فيه من جهة الغرب».

وقد وجد خارج جدة المقبرة وفيها القبر الذي يقال إنه قبر حواء «من جهة الشرق بشام عليها قبّة في وسط قبرها، ومن الشام «الشمال» نحو أربعين ذراعاً ومن اليمن نحوها فيقال أن القبّة على سرّتها، والمعالم التي في الطّرفين على رأسها ورجليها، وغايته أنها تزيد على مائة ذراع، وحولها قبور عديدة» وقد لاحظ على مقبرة جدّة كثرة البدع و«المناكير منها أنهم يزخرفون القبور غاية الزّخرفة، ومنها أنهم يضعون على بعض القبور لوحاً من البلاط قائم على القبر عليه تصوير المقبور حتى عمامته وقلنسوته بالإحكام البالغ والصناعات الباهرة وهي محرمة يكفيه أنه لا يقرب قبره ملك الحديث».

ولعل أعجب ما شاهده في جدّة تلك الطّواحين الغريبة التي وجدها «غربي جدّة من نحو البحر وهن ثلاث طواحين كهيئة المنارة الصغيرة عليها الدّواليب فإذا أريد الطّحن بها فكت المسامير التي يوثق بها الدولاب فتترك الريح فتدور بها فيأتي بما تحته طحناً متقناً بحكمة باهرة قيل وأقل ما يمكن طحنه في كل يوم واحد منها حمل بعير».

وكما هو الحال عند الرَّحالة يحيى بن المطهر في عدم استحسانه حال جدّة في ذلك الوقت كذا كان الأمر عند رحّالتنا جغمان فهو يستغرب من صبر أهلها على المعيشة فيها «على ما هي عليه من الوخم والسبخة وعدم الماء وضعفه» وسبب ذلك حبّ الوطن «وإلاّ لما حلّ النّاس إلاّ في أطيب البلاد».

وفي (جدة) تقع لرحالتنا حادثة صغيرة تدلّ على حزم صاحبنا وعدم رضائه بالضّيم مهما كان خلاصتها أنه أودعه زيراً صغيراً يوسف آغا الساكن في الحديدة فاصطحبه معه في السفينة ولما انفصلوا عن البحر في القنفذة سلمه صاحب السَّفينة أمانة حتى يصل إلى جدّة ثم يسلّمه صاحب

الدَّار الذي سيسكن فيه الرَّحالة ومن معه ولما أهمل الربَّان ما أمر به يقول «عدنا فوجدناه في محل آخر في شونية[١] بعض الحضارم ولما أردنا إخراجه من الساعية ـ يعني الزّير ـ لم نجده فسألنا عنه فقال سمسار تلك الشونية أنه أخذه المحتسب في البندر يريد شيخ سوقه فذهبنا إليه فاعترف به وامتنع من تعويضه أو تسليمه بعينه، وأقر أنه أخذه قسْراً للحمران[٢] الخارجين من جدّة فتنازعنا نحن وهو إلى والي البندر، فأمر بإرجاعه فامتنع ثم لم نزل به حتى جاءنا بعوض لما يساوي الأصل ولا يقرب منه فاضطررنا إلى أخذه والقنوع به بعد اللتي واللتيا» وهذه الحادثة على ضآلتها تدل على حرص المؤلف على إجراء الحق ومتابعة الجاني، وإن كان الدَّافع لذلك كله ليس الزِّير ذاته وإنما حيث هو أمانة مودعة عنده، أراد أن يعيدها لصاحبها كما هي والله أعلم.

وفي جدّة يقف عند أبوابها وغيرها ويصفها فيقول «ولجدة أبواب عدة منها باب مكة، وباب الشام، وباب النّبط، وهو مختص بالبضائع وباب آخر للحبوب فقط يقرب منه، وهي بندر وسيع كثير التجار وترى منهم مسلمين وكافرين ومؤمنين وفيهم جماعة من النَّصارى باقية على تنصّرهم لست ترى عليهم غياراً[٣] يعرفون به بل يتشبَّهون بالأتراك المحلوقة لحاهم الموفورة شواربهم عليهم القلانس الحمراء المعذبة لا يعرفهم إلاّ من كان من أهل البلد أو كانت له معاودة» وهذا شيء عجيب استغرب له المؤلف كثيراً وعن جدة يقول: إن الإنسان قد يألف العيش فيها لكن وخومة الهواء أمر لا يطاق «إن من مكث في بندر جدّة يزول عنه وعثاء السفر بالكرة خلا أنه إذا طال فيها اللبث والقعود عاد عليه شيء من ذلك لما به من الوخم وضعف الماء وقلته سيّما في سنتنا هذا العام» وهنا يعطينا صورة نادرة عن

---

(١) نوع من السفن.

(٢) جنس من جند الأتراك.

(٣) شعار النصارى واليهود.

كيفية سقي أهل جدة يقول «تراهم في العادة يستقون من صهاريج لهم ببطحاء جدة «أي برك مسقوفة ومبوبة» ينجال إليها الماء من المطر فإذا سكن استقوا منها، وفي مائها ضعف أيضاً كما أنه يجذب إليه السبخة وملوحية الأرض ولكن ستشاهده ليس بها شيء من ذلك بل كانوا يأتوننا بماء من حفائر بقرب جدّة منتن الريح متغيّر اللّون والطعم فنشتريه بغالي الأثمان فإنه ما كفانا ونحن نحو سبعة أنفار شرباً» وقد شق عليهم قلة الماء ورداءته وقد يبلغ ثمن الماء نصف ريال لليوم وهذا شيء كبير في ذلك الوقت.

وفي (جدّة) مساجد «عديدة كل مسجد تراه بمنبره وإمامه وخطيبه صغر أو كبر، لأنهم يصلّون الجمعة في جميعها، ولا يشترطون التباعد بين المسجد» ولعل أهم مسجد استوقف نظره في ذلك البندر هو مسجد الحنفية «فيه أنابيب يتوضأ للصلاة منها وفيه منبر وخطيبه وإمامه يخطب استملاءً» وكانت قاعدة مساجد جدة الخطبة غيباً «رأينا منهم في الجمعة الأخرى خطيب المسجد الكبير الذي مفتتح بابه شاماً إلى السوق حق الدقاقين ويمناً إلى سطحه فيها مقاهي وعشش يقرب من الباب الذي يليه المدافع العظام... رأيناه يخطب غيباً قيل والآخرون كذلك» وفي مسجد الحنفية يعجب بتلك الآلة التي تميز الأوقات يقول «رأيت في مسجد الحنفية أعجوبة في صرحه بناء مرتفع نحو ذراعين من الأرض في أعلاه حجر بيضاء من بلاط مربّعة فيها خطوط محكمة على دوران الشمس في الفلك وازدياد الظّل عند فيء الزّوال وخط الاستواء في أوقاته والزيادة والنقصان في أوقاتها وفي طرفيها شاماً ويمناً مسماران بينهما خيط موتور بنقالة من رصاص لكونه ظله على تلك الخطوط في تلك الأوقات علامة لدخول وقت الظّهر والعصر كل خيط مكتوب عنده ما يفيد أنه وقت كذا، وهي هندسة عجيبة من الإتقان بمكان».

في البحر

مكث الرّحالة جغمان في (جدة) ثمانية أيام، فقد وصلها يوم الخميس ٢٠ محرم سنة ١٢٤٢ وبارحها في يوم الجمعة بعد الصّلاة ٢٨ محرم وكان الرَّحيل على ساعية للسيد عبدالله نمير «وهي ساعية عجيبة جديـدة لكنها حقيرة جداً، قعدنا في سطحها كاتب الأحرف ومن في رفقته كالوالد علي ابن إسماعيل النّعمي وولد أخيه حسين بن أحمد وثابت بن زيد العريفي وخادمنا الحـاج ناصر ومعنـا القاضي حسن بن حسـين الغفاري وخـادمه والصنو محسن بن علي حاتم وسيدي أحمد بن قاسم حيدرة والحاج يحيى الشاوش كل أولئك في السّطحة المذكورة وهي حقيرة جداً فإنها نحو ثلاثة أذرع عرضاً ومثلها أو فوق قليلاً طولاً حتى أن في اللّيل كان ينام بعضنا على بعض».

وسارت بهم الساعية من باب النّبط وكان الناخوذة يسمَّى عبد العزيز الجداوي يقول في وصفه «رجل لا رأيت في جرأته ومسآت لسانه وعدم نطقه بالجميل أفحش منه حتى أنه قل من يسلم منه من الزّوار من معرة لسانه ويده وكنَّا بحمد الله ومنّه عنه في منعة لكوننا غير محتاجين إليه في شيء بل ماؤنا معنا ومعنا موقد وسود، شرينا كل ذلك من جدّة، وكنـا نعمل المعيشة لدينا ونستغني عنه كما فعلنا في الدخول وهي قاعدة عجيبة ومونة خفيفة، وبها تقع غنية كبيرة وراحة عظيمة» وقد سلموا من بذاءة ذلك الرّبان بما استصحبوه معهم من ماعون.

وفي صبيحة يوم السبت نشرت السّفينة أشرعتها وشمرت بهم تخوض عبـاب المياه «فسـافرنـا السبت والأحد وإلى ضحى يـوم الاثنين ووصلنـا (الليث) وخرجت إليها ومعي بعض الرفقاء للاستسقاء» وكأنه نزل (الليث) لغرض وعده به صديقه علي بن عبدالله العتمي وبعد حصوله على المطلوب يعود إلى حيث رست السفينة فيتيه عن الطَّريق يقول «وعدت إلى حيث

أرست الساعية وهو بعيد من الليث على نحو ثلاثة أميال أو أكثر ولم يقع عودنا إلاّ عند إقبال اللّيل فضلّينا الطريق ثم يسّر الله سبحانه الهداية إليها» فوجد السفينة كما هي راسية في البحر فبات مع رفقته على الشاطىء «حتى طلع الفجر فصلّيناه وعدنا إلى الساعية المذكورة وسافرنا الثلوث والربوع» ثم يصلون إلى «القنفذة» مرة أخرى «وخرج من خرج إليها وبات بها وبعضهم رجع إلى الساعية» ثم يواصلون سيرهم في البحر من وقت الظهيرة من يوم الخميس ويوم الجمعة وليلة السبت وظلّت تمشي بهم في البحر حتى وصلوا إلى جيزان «فوصلنا ضحى يوم السبت» وقد أفرغت السفينة في جيزان بعض حمولتها ونزل بعض الرّكاب، وفي يوم الأحد واصل المركب سفره حتى «رأينا بندر اللحية عصر ذلك اليوم أو قبله ولم نصلها إلاّ بين العصر والغروب لعسر مرساها لأنها شعوب ملوية تحتاج إلى تدويرات عديدة».

وقد ظلّ المركب في المرسى يريد النزول فلا يستطيع حتى علم بهم حاكم اللحية القاضي علي بن عبدالله الحيمي صديق الرَّحالة فيرسل إليهم سنبوقاً يستنقذهم يقول «كان خروجنا من البحر إلى اللحية يوم الأحد لعله ٨ صفر سنة ١٢٤٢ فما شعرنا ونحن بالمرسى بين خائف وراجي حتى وصل سنبوك يصيح صاحبه هذا لأصحاب القاضي علي، وقد كان أطال الانتظار لنا يوماً بعد يوم فلما أحس بنا أرسل خادمه بالسّنبوك فحينئذٍ ازداد فرحنا، بالخلاص وأيقنا بالسّلامة فخرجنا نحن وما معنا من الأدباش أرسالاً فوصلنا دار ذلك الفذّ النبراس».

وقد احتفل بهم القاضي المذكور احتفالاً كبيراً يقول «فقعدنا عند ذلك الكريم الهمام في بيته المعمور بالجود ثلاثة أيام يخصنا من مكارمه الفاخرة، وينهل عنا سحائب جوده الوافرة».

ويصف بندر (اللحية) بأنه «ضعيف المواد كثير الأعداد والأجناد»

وقد أرادوا مبارحة هذا البندر والقاضي المذكور مصر على بقائهم عنده «وقد أكثرنا عليه التّكريرات بأن لا صبر لنا على البقاء ثم شيعنا حفظه الله بنفسه وخدمه وحشمه، وذهب معنا إلى (الزّهرا) إعزازاً لنا وإكراماً».

فكان مغادرتهم بندر (اللحية) عشية ليلة الأربعاء وفي صبحه مرّوا على وادي مور «وهو يسيل وكنا قد صلّينا الفجر خيفة أن يخرج الوقت» ولا يزال القاضي المذكور معهم حتى أوصلهم إلى بيت أصهاره بني المحلوي «فأدخلنا دار الضيافة وأقعدنا يومنا وغده» وكان في إكرام هؤلاء الأصهار حتى يوم الخميس «اكترى لنا أحدهم الجمال لحمل الأثقال» ويرحلون بعد ذلك عشية الجمعة «فخرج القاضي المذكور معنا للتّشييع والتأكيد على أهل الجمال في الوفاء بحقنا. وإعلامهم بمكاننا لديه» وزيادة في الحفظ أرسل معهم أحد الموالي «يهدينا إلى الطريق ثم يصحبنا لما نخشى من التّعويق لكوننا في طريق أهلها طغام لا يكادون يفقهون قولاً».

ثم يودّعهم القاضي المذكور ويواصلون هم سيرهم فيصلون «بيت بن المحور» في ثلث اللّيل الآخر أو قريباً منه «فقعدنا بتلك الدّويرة بعشّة أعلا الجبل بجنب بيت الشيخ المذكور، وأعلا ذلك الجبل المذكور مسجد يصلّى فيه لا ماء به».

العودة إلى صنعاء

كان مكوثهم في تلك المحلّة يوم وليلة وذلك لعدم وجود الجمال التي تقلّهم «لأن القاعدة أن أهل تلك الديار إنما يكارون من محل إلى محل ويذهب الأولون ويأتي آخرون، ويسمون ذلك «مخارط» وأخيراً يأتيهم الجمّال فيشدّون رحالهم ويذهبون وفي طريقهم يصادفون يوم السّوق وهو يوم السّبت «وفيه الثّمر والحبوب وسائر ما يوجد في أسواق البوادي

ومعـاملتهم بدراهم يقـال لها «الشرفيـة» وهي ضربة للمنصـور عـلي بن العبّاس» وفي طريقه يمر على مآسي يتفطّر لها القلب حيث وجد أمواتاً من الوباء والجوع يقول «فمررنا بوديان هنالك كثيرة النّبات والمياه ووجدنا بين أشجارها أمواتاً رفاتاً لما قد مرّ بهم من البلاء والفناء».

ويصل (بيت الردوة) أوان الغروب فيبيت فيه بمن معه «تحت بيوت هنالك ومسجد خال وتحت ذلك المحل وادٍ يسيل منه الماء أهل ذلك الدّير يستقون منه» ويصبح الأحد فيرحلون قبل الشّروق حتى يصلوا إلى بيت الشيخ أحمد المنتصر «فوصلنا عشة واسعة تحت دارة يليها مسجد صغير على وادٍ هنالك «وكان وصولنا أوان الضّحى أو بعده، وكنّا قد عرضنا بالرحيل عن ذلك المحل فلم نسعد إليه فبتنا ليلتنا وأصبحنا فحملنا الأثقال على الجمال، واكترينا لأنفسنا دواباً من هنالك ولا يمكن الركـوب على الجـمال لكثرة الأشجار، ومررنا في وسط الطّريق بوادٍ فيه عروق الأراك فأخذنا منه كثيراً وانصرفنا».

وأخذوا يواصلون سيرهم حتى أشرفوا على أكمة فيها (بيت الهدش) يرى منها ظفير حجة وحصن نعمان وسائر الحصون. وهناك يقابلهم ابن الشيخ الهدش ويجهز لهم أمر الرحلة فيصلون إلى (سوق الحصيب) بعـد عصر يوم الاثنين ويدركون آخر السوق، ثم يبيتون فيه إلى صبح الثلاثاء ويتوجّهون إلى حجة يقول المؤلف عن هذا السوق هو «آخر مراحل الخوف على النّفس والمال وعدم الأمن» وذلك للأسباب التي يؤدي إليها القحط واختلال الأمن.

من حجة إلى صنعاء

رحلوا من سـوق الحصيب عند فجـر يوم الثـلاثـاء فيصلون سوق (حجة) أوان الضحى بعد طلوع الجبال الشاهقة، وهناك في حجة «أهّبنا

البيت، ودكاناً في السوق المذكور للأدباش لتأهيب التي نريد وزنها والمكاراة عليها من هنا إلى صنعاء، وتقريب ما نحتاج لبقية السّفر» وصادف هذا اليوم سوق حجة وقد «اجتمع فيه الجم الغفير وفيها وجدنا العنب الواصل من وادي ضهر كأنه طري بعد ثلاث مراحل»، وفي (حجة) جماعة من آل الحضراني منهم «العلامة محمد بن أحمد الحضراني وولديه وصنوه وابن عمه القاضي الفخيم العلامة النّبراس الأديب العظيم صفي الدّين أحمد بن محسن الحضراني وكان قد علق به المرض وأنشبت به المنايا أظفارها خلا أن عند وصولي ما وجدت أحداً من أهلها إلاّ وهو يقول: أو أنت فلان قلت: نعم فما عرَّفك بي قال القاضي أحمد قد وصفك لنا وهو يريدك الساعة، فما كان إلاّ وخادم الحاكم يدور في السّوق يتطلّبني ثم عرفني فدنا منّي، فقال: أنت فلان قلت نعم، قال: اذهب معي فإن القاضي أحمد والقاضي محمد يريدانك فذهبت معه إلى جامع السوق وهو جامع عجيب فارتفعنا إلى منزلة[1] من منازله فوجدت القاضي أحمد موعوكاً فساءني ذلك لما بيني وبينه من الصّداقة والألفة فتحامل ثم قام قائماً على قدميه وتلقاني بالرّحب والسعة والبشاشة» وكان اجتماعاً مليئاً بالفوائد ثم طلب منهم العودة إلى أصحابه فأبوا عليه فانصرف لحاله حيث رفقاؤه في سوق حجة، وقد أهّبوا أمر السفر، وفي المساء عاد إلى صديقيه في مسجد حجة فوجدهما في حالة شديدة من الحمَّى يقول: القاضي محمد قد عقل وأحمد لا يدري ما يقول ومعي الولد علي بن إسماعيل النعماني فسمرنا قليلاً نتحدث نحن ومحمد وأحمد لا ندري ما يقول ثم ذهبنا مودّعين» وما هي إلاّ سويعات نام خلالها رحالتنا إذا بخادم القاضي محمد الحضراني يعلمه بوفاته. وهذا المذكور من الأدباء العلماء الشعراء أورد له الرَّحالة في كتابه هذا العديد من القصائد (انظرها).

ثم يرحل من حجة وهو في كرب لفقد صديقه المذكور يقول «لا

---

(١) المنزلة: غرفة صغيرة تبنى فوق المسجد لسكن الطلبة المغتربين وغيرهم.

أدري أين أضع قدمي وذهبت في طريقي حيراناً من وجدي عليه» وبعد نزوله عقبة حجة يمر على وادي (شرس) «وهو وادٍ عظيم كثير الأشجار والأنهار والأطيار وشجر البن كادت توافي ثمرتها» وبعد ذلك يصل بيت (قدم) فالعقبة «وهي عقبة كؤود، بدأنا فيها بالصّعود أوان الظّهر فما وصلنا بيوت العسم[1] إلا وكادت الشمس تغرب فبتنا ليلتنا تلك في بيت مرتفع البناء هرباً مما يحكى من كثرة القمل بها».

وفي الصباح يصعد عقبة العرجلى «وهي نحو عقبة العسم إلاّ أنها تغر صاحبها بالانقضاء فكلما رقي ثنية ظنّها أعلاها بدت له أخرى حتى تصل مقهوى مدع» وهناك سلم من المشاق وفي مدع ينزل عند «مقهوى قلنا فيه قليلاً للاستراحة، وانتظرنا من ضعف عن الصّعود من رفقائنا قليلاً فتلاحقوا جميعاً سوى الفقيه مطير الحيمي، فإنه عجز عن اللّحوق لمرضه» فما كان من رحالتنا إلاّ أن أرسل من أهل مدع من حمله على ظهره، وبات بقرية مدع «ولم يصل إلى صنعاء إلاّ بعدنا بثلاثة أيام».

والآن وقد قربت المسافة إلى صنعاء لنترك الرّحالة العلامة إسماعيل ابن حسين جغمان يكمل بقية رحلته بلسانه يقول «أما نحن فمررنا بقية يومنا في طريق صعبة، ومرحلة عظيمة، فإنه كان خروجنا من «أنعم» عقيب صلاة الفجر، ووصلنا مدع ضحى، ووصلنا مغربة الحمام قائمة الظّهيرة، ومررنا من تلقاء حصن ثلا، أوان العصر، فما وصلنا شبام إلاّ قبل الغروب بمقدار حط الرّحل والصلاة فبتنا فيه ليلتنا ورحلنا منه صبح الجمعة، نؤم الدّيار، ونسر بكل شيء أشرف علينا منها بعد التّنائي والغربة، فوصلنا بيت نعم، ولقينا الحاج الفاضل عبدالله بن أحمد حميد والصنو أحمد بن علي حاتم يلقيان الصنو محسن بن علي حاتم فأقلنا في تلك السمرة بمكان يليها وتطلّعنا من ذينك الرّجل أخبار الأهل والوطن فأخبرونا

(١) العسم بلدة تشرف على أودية شرس وحجه.

بما يسر، ثم رحلنا جميعاً نحو محطّ الرّحل فـوصلنا صنعـاء قبل غـروب الشمس يوم الجمعة».

وهكذا تنتهي هذه الرحلة الفريدة الشاملة، وقد سايرنا صاحبها في حلّه وترحاله، ولم نغادر منها صغيرة ولا كبيرة فرحم الله مؤلفها وأسبل عليه رضوانه، وهي رحلة عظيمة تعلّم المؤمن الصبر على المكاره والتوكل على الله، وذلك ما يفهم من صبر هذا الرّحالة وإيمانه المتين بالله.

الآنسي: وكتابه الإنعام التَّام

منذ أن كتب العلامة يحيى بن المطهر رحلته إلى الحج سنة ١٢١١ غدت كتابة الرّحلات إلى الحج ديدن جماعة من علماء اليمن خلال القرن الثالث عشر، فكتب بعده مباشرة العلامة لطف الله بن أحمد جحاف المتوفي سنة ١٢٤٣ رحلته إلى الحج سنة ١٢١٧ في كتابه «قرة العين بالرحلة إلى الحرمين» وقد سبق ذكره فيما مضى ثم تلاه العلاَّمة إسماعيل بن الحسين جغمان المتوفى ١٢٥٦ «وقد مر قبل قليل» وغيره جماعة كان آخرهم العلامة الزّاهد عبد الملك بن حسين الآنسي هذا الذي ندرسه الآن.

الآنسي

هو القاضي العلامة الحجة العابد الزَّاهد عبد الملك بن حسين بن محمد بن عبد الفتاح بن أحمد بن يحيى بن إبراهيم بن صلاح الآنسي ولد سنة ١٢٣٨ في هجرة بمسطح محل القضاة بني أحمد بن يحيى الآنسي من مخلاف جبل الشِّرق ونشأ في حجر والده، ولما توفي والده سنة ١٢٥٢ انتقل إلى صنعاء وأخذ بها عن جماعة من العلماء منهم القاضي أحمد بن عبد الرحمن المجاهد، والعلامة قاسم بن حسين المنصور، والقاضي عبدالله الغالبي، والعلامة الكبير عبد الرحمن بن محمد العمراني ثم تصدَّر للإقراء وأخذ عنه جماعة منهم ابنه العلامة محمد بن عبد الملك والعلامة عبد الرّزاق ابن محسن الرقيحي والحسين بن علي العمري يقول المؤرخ زبارة وحصَّل

بخطه كثيراً من الكتب النافعة منها «التَّنوير شرح الجامع الصغير»، مجموعات نفيسة وشاركه في تحصيلها ولده القاضي محمد وكتب كثيراً من المصاحف، وتولى فَصْل بعض الخصومات بين النَّاس ولما جاءت الأتراك اليمن اشتغل بخاصة نفسه وكان كريم الأخلاق زاهداً متواضعاً، وله من المؤلفات «إتحاف ذوي الفطن مختصر أنباء الزّمن» نشره وحقَّقه الأستاذ إسماعيل بن أحمد الجرافي، ورحلته هذه التي بين أيدينا توفي رحمه الله سنة ١٣١٥.

رحلته الإنعام التام

هذه الرّحلة يظنّ المؤرّخ زبارة أنها أرجوزة وكنت أعتقد ذلك، حتى وقفت عليها فوجدتها، رحلة نثرية مختصرة التزم فيها صاحبها السَّجع الشامل وأسماها بـ «الإنعام التَّام في الرحلة إلى بيت الله الحرام» وقد أورد فيها أخبار حجّه إلى مكة المكرَّمة والمدينة المنوّرة سنة ١٣٠١ أي مطلع القرن الرابع عشر.

وقد استفتحها بقوله «الحمد لله الحنَّان المنان، دائم الإحسان لا أحصي ثناء عليه في كل حال وأوان. . . وبعد فهذه رحلة منّ الله بها عليّ إلى بيت الله الحرام لتأدية فريضة الإسلام والتّمتع بالمشاعر العظام، ثم أعان على زيارة قبر الحبيب عليه أفضل الصلاة والسَّلام من باب التحدث بنعم الله الجسام، وترادف الألطاف في البر والبحر لبلوغ المرام».

وقد بارح صنعاء في ٢٥ شهر شوال سنة ١٣٠١ وقبل عزمه على الرَّحيل فكَّر في أمر الصاحب والرفيق الذي سيلازمه في السفر يقول «لما أزمعت على هذا الباب وتحرَّرت النّية بلا ارتياب فبينا يدور ذهني في انتخاب الرّفيق الذي تحصل به الموافقة إذ قيل الحاج عبيد بن طاهر القرضي لما سمع اشتاق إلى المرافقة» وهذا أول المرافقين الذي يكون بهم العون، وقد سرّ الرحالة لهذا الصَّاحب «فناجاني قلبي هذا الذي أردت

وعلى الخبير سقطت» وقد أثنى عليه بقوله «ولعمري إنه الفرد الكامل الذي ينبغي أن يشار إليه بالأنامل قام بشأني أتم قيام، وبذل نفسه في مزيد العناية والإكرام مع من أعدّه من الرفقاء والأخدام كافاه الله بالإحسان التام وما رأيت أنشط منه للعبادة مع سعة صدر واحتمال، وله في فعل الخير إقبال».

الخروج من صنعاء

كان عزمه من صنعاء في يوم الأحد ٢٥ شهر شوال سنة ١٣٠١ «وكان خروجنا بعد الفجر فراراً من ترويع الأصحاب لما يحصل من الوحشة عند الفراق والذّهاب» وهذه حكمة جليلة خاصة عند النّساء والأطفال فإنه يحدث لهم من الحزن ما لا مزيد عليه فخروجه عند الفجر وهم يغطّون في النوم مما يخفف ألم الفراق وهكذا كانت فكرة الرحالة إلاّ أنه وجد أصحابه، ومن يتعلق به منتظرينه «فتبع البعض إلى غيل «عصر» فلم نسلم من ألم الفراق ثم توكَّلنا على الله واستودعنا الأهل والأحباب الله».

وتبتدى المراحل بالتّتابع «فكان المبيت في متنة لقصد الرَّاحة والفَهْنة»[1] وقد حدَّثنا عن بقية الصّحب المرافقين لهم وهما «أحمد بن محسن الفسيل وابن أخيه إسماعيل بن علي سيد العويّل أصلح الله شأنهما» وغيرهما، ثم كان الوصول إلى الحوضين في المساء يوم الاثنين «وتوجَّهنا بعد طلوع الشَّمس نحو (مفحق) وبعد مجاوزته مررنا في طريق بين عمق من يمين وشمال وأكام كريهة المنظر على كل حال» ثم يصل إلى «الحرز» ومنه «عزمنا بعد القهوة وقد قمعنا من العطش الشَّهوة فمررنا بكداكد بين أشجار في وقت اشتداد حرّ النّهار وعارضنا ظلال الغيوم بفضل الحي

(١) الراحة بعد تعب.

القيوم»، وفي (الشّجة) «أرسلت السّماء الأمطار كأفواه القرب وصارت السيول من الجبال في صبب فوقفنا ننظر السّيول النازلة في مكان تتابع فيه السيول الواصلة، ريثما أمسك المطر» ثم يقع العزم مع من حضر من الأصحاب إلى (مناخة) «فوصلنا مناخة وفيها كانت الإناخة، ونحن في رفقة تتشرف بهم البقاع، ويكل عن حصر فضائلهم اليراع، كل منهم يتحفنا من الخدمة بأنواع، قد امتزجت الأرواح فصاروا كالأهل وصار كل عسير معهم سهل» ولازمهم من الرّفقة المسافرين الحاج هادي له كلمات لطيفة يتفاءل به من معه يقول «وكان هجيراهم التفاؤل بكلمات نسمعها من الحاج هادي عند المحاورة في الأمور: أبشر بها زينة وعدّها في النّور» فهذه الكلمة يتفاءل بها الركب ويعدونها دليلاً على تسهيل المصاعب، وفي هذه السفرة حدثت واقعة تتعلق بالشيخ هادي المذكور تدل على خبرته ونفعه لصحبه يقول: «قمنا يوم صباح السفر نريد الصّلاة في المسجد فوجدنا باب البيت مصكوكاً لا يمكن فتحه من داخل وخشينا فوت الوقت بالتراخي فانسل الحاج هادي من الطاقة وفتح، وما أدراك ما الحاج هادي رجل برجال مع ثبات وكمال».

ويوم الأربعاء كان التّوجّه من حراز «بعد قطب[1] الشّدة وقد فعلنا في البطون من الزّاد العدّة ونظرنا في حال السّير بلاد حراز والعمائر وهي خضراء كالقطيفة[2] والحصون كالمجامر» وينزلون نقيل عتارة «أدركنا من التّعب فيه المرارة». ثم نزلوا السّائلة فأوصلهم إلى الحجيلة ولم يعجبه هذين الموضعين فقال «الحقيق بأن يؤلف في ذمّها ألف يوم وليلة» وبعد الوصول إلى الحجيلة «نصبت لنا القعائد وفي أهلها على الوبا شواهد، والناس من شدة الحما بين قائم وقاعد» وتم رأي الجميع على الإسراع بالرّحيل من هذه

(١) قطب الشيء: أسرع في قضائه.

(٢) البساط.

البلدة الشديدة الحر «فأجمع رأي الخبرة على السرى وقَطَبْنا دابتين لبعض الخبرة كرا» وقد أصحبوا معهم رجلاً يدلهم الطريق إلى محاذاة باجل ثم يعود ومعه الدّواب «وصحبنا رجلاً في حكم دليل يهدي السَّبيل ويردّ الدَّواب من باجل إلى ذلك المقيل» ويصف هذه الطريق بكثرة الأشجار والأحراج «فأدخلنا طريقاً بين أشجار كالحراب فتمزّق على بعض الخبرة الثياب» وكان مشيهم باللَّيل فاحتاطوا بالسُّرُج «ثم تراجع الخبرة إلى الطريقة المعهودة بالفوانيس المعدودة ولم نزل نمشي بين جبال من الأشجار نقتدي في السير فيها بالحمار» حتى قاربوا الوصول إلى درب (عبال) وقد اشتد الظلام فاستعانوا بخيوط السلك الذي نصبه الأتراك في ذلك الوقت «ثم تراجع الخبرة لمعرفة الطريق بالفوانيس إلى الطريق المقصودة بالتأنيس وكان استدلالهم بأخشاب السلك» حتى أشرق الصّباح أقاموا الصلاة ثم دخلوا طريقاً إلى البحيح «يسمَّى قاع المطحال تَطْحل فيه الدَّواب من الطّول والحما وهو لعمري اسم على مسمَّى فما وصلنا إلاَّ وقد ضاقت النّفوس واشتد حر الشّموس» وقد أرادوا القيلولة بعد سهر الليل وطول الطَّريق فتم لهم ذلك وبينما هم في الشدّ إلى باجل إذ «أرسل الله الأمطار فعزمنا على الوقوف والاستقرار فالمطر خير قاطع من الله وما تشاؤن إلا أن يشاء الله» وينتهي المطر فيواصل الجميع سيرهم وهم بين ماء وطين «وكل واحد تُوضع رجله في تفطين خوفاً من الزّلوق» ثم يصل (باجل) بعد شروق الشمس، ويصلّي فيها الجمعة، ومن هنا بدأ يتحسَّس عن أخبار البواخر البخارية «البوابير» يقول «ولم نزل نترقَّب الأخبار عن وصول البوابير ليقع المبادرة بالسّير أو التأخير» وهو يرى المكوث في باجل أفضل من الحديدة «لأن باجل أحسن حالاً من الحديدة».

وينعطف إلى ذكر الرفقة «الخبرة» وعددهم ثمانية «ونحن ثمانية عدد أبواب الجنة متساعدين لا يحصل لأحد منهم على الآخر منّة، وإذا منَّ الله بالعافية، وكان الآتي مثل براعة الاستهلال فالأزمان والأمكنة أعراس على

كل حال نعم وآخر الثمانية محمد لطف سنين رفيقنا من متنه عازم[1] بقليل عنب إلى الحديدة في «مبازد»[2] قد قاسى من أجله في الطرقات الشدائد فسألنا الله أن يحفظ عنبه وثمن تعبه، وكم لله من لطف خفي يدق خفاه عن فهم الذكي».

وبهذه الأسلوب الفكه تَمْضي أكثر فصول الرّحلة. وكان قد سبق الحجاج الأوائل إلى (الحديدة) يوم وصولهم «يوم الجمعة» يقول «فعزمنا بعدهم على السّرى قبل الغروب مع استصحاب دليل خوف التباس طريق الدّروب» فيصلون إلى (الحديدة) بعد شروق الشّمس «وقد تعبت النّفوس وعضل الرّكاب وكان يسقط بعض الخبرة من النّعاس من فوق الدّواب» وهو يصف طريق (باجل) الحديدة بأنه «خبت طويل وكان يروحنا الحاج هادي بما يقول من الحادي:

نسأل الله يا محمد أن يبلغنا إليك
وأزورك يا محمد صلوات الله عليك...»

وبالحديث وحداء الشيخ هادي أمضوا ليلتهم سيراً حتى وصلوا (الحديدة) وكان نزوله في هذه البلدة بمنزل كمال «وهو من أحسن الأشكال فيه روح وراحة ومحل استراحة» وصاحبه الشيخ محمد كمال يصفه، رحالتنا بأنه «رجل ظريف لم يزل يترقب وصولنا كما بلغه ولم نزل في نعمة جليلة نتمتّع بالقات الذي لا تجد مثيله وإن كان لا يوجد شرطه الماء البارد الذي يكون زميله».

ولما كانت (الحديدة) عبارة عن عشاش فإن الحرائق تكثر بها، وقد صادف وجودهم بعض هذه الحرائق يقول «وليلة الربوع وقع حريق أربعة

(١) عازم هنا بمعنى مصطحباً.
(٢) أوعية للعنب.

بيوت عشاش خارج الحديدة وبادر بإطفائها كل فريق ولولا سكون الريح لاسترسل».

وأخيراً يصلهم خبر المركب المنتظر وأنه وصل إلى (الحديدة) وهو مركب من النمسا يحدد المؤلف الركوب فيه بخمسة ريال وقد أراد أحدهم أن يراجع وكيل المركب لعله ينقص لهم الأجرة يقول المؤلف في خبر طريف يزيده فكاهة أسلوبه المسجوع «ويوم الثلوث وصل بابور النامسة «النّمسا» فبادر سرعان الناس إلى التَّنويل من خمسة ريال وشَعّب[1] بعض الخبرة ممن له بأبي الحسن العجمي اتّصال مع الاعتقاد أن له عند أولي الأمر مجال، وأنه سينظر لنا مكاناً في البابور ويخفف عنّا النَّوال».

فيذهبون إلى صاحب المركب لرصد عددهم وهم اثني عشر ومع ذلك لم يتم من المراجعة في تخفيض الأجرة سوى نصف ريال «فعزمنا إليه لرقم عدد الخبرة وقد بلغنا اثني عشر فلم يتم من التَّشعوبة إلاَّ تخفيف نصف ريال من النّوال ولم يتم المكان في البابور الذي أعظم ما في البال ولو بزيادة مال».

على ظهر الباخرة

في مثل تلك المراكب الأوربية الفخمة يطمئن البال ولا يخشى الإنسان السفر ولذا فإن مؤلفنا لم يكثر من الخوف والهلع كما هو الحال عند من سبق من الرحالة رحمهم الله ومع ذلك فالسّفر يبقى هو السّفر ويزيده شدة حدوث الهرج والفوضى من قبل الرّكاب وأصحاب السَّنابيك يقول «وقع التأهّب من الناس جُمْعة للركوب بعد صلاة الجمعة وركب الناس في السّنابيك إلى البابور وتلونا عند الركوب الدعاء المأثور، لكنها جرت في خلال ذلك أمور، منها أنها وصلت السنابيك إلى البابور دفعة واحدة وكل

(١) من عامية صنعاء بمعنى توهم شيئاً محالاً مع الترغيب فيه.

صاحب سنبوك يريد تعشيق سنبوكه في البابور أولا فما زالت تبطح وترتكض فلا تقر ولا تستقر والناس بين مقزز وقاذف وممسك على قلبه وخائف فما خلصنا إلى البابور إلاّ بعد أهوال مهيلة ومشاهدة مخاوف عريضة طويلة».

ويصعد إلى المركب فيجده غاصاً بالرّكاب فيندس رحالتنا في زاوية من المركب بين تلك الجموع، ولم يتحقق شيء مما منَّاهم به وكيل المركب من الموضع المريح الذي عيَّنه لهم لِنَسْمع الرّحالة يروي لنا كل هذا بطريقته الأدبية الساخرة «ووجدنا البابور وقد فيه أصناف العوالم لم يبقَ فيه متسع بل هم بين قاعد وقائم والعرق من شدة الحر يسيل كالغمائم ولم يصح مكان حسبما تمدّح لنا أبو الحسن فبقي بعضنا فيما بين الزّولى والعفريته وبعضنا في طرف الطّرطحة أعلا قليل كونها قد صارت مملوءة ترك».

ثم يصف المركب بإعجاب بالغ فيقول: «وهذا البابور حق النَّامسة فيه غاية الإحكام يحمل خمسين ألف قطمة[1] صافي[2] كل قطمة مئتين رطل حسبما أخبرونا».

ومع ضخامة هذا المركب فإن حمولته كبيرة وشدة هيجان البحر أثرت على وقاره فظلّ يتقلّب حتى فعل فعله في حجاجنا يقول «وترادف فيه الرّكاب نحو الألف نفر، ومع هذا فبعضه خالٍ لأهله فيه مستقر وكل واحد في مقره مقوزب «جالس» لا يستقر به حال من الميلان وتتمكّن الصلاة ولا يتيقن طهارة في مكان وضاقت النفوس ومالت بالخفقان الرؤوس ولطف الله هو المعتمد والمأنوس».

وما زالوا هكذا حتى وصلوا إلى جدّة «وكان الخروج وقت الظهر يوم

---

(١) ظرف كالكيس ونحوه.

(٢) الصّافي: البن المنزوع منه قشره.

الاثنين وهو من الفرج بعد الشدّة بل الخروج من البابور كالخروج من الظلمات إلى النور».

في جدة

ما كادوا يخرجون من على ظهر السَّفينة حتى يتلقفهم في جدّة ما يعرف في ذلك الوقت بالكرنتينة وهو الحجر الصحي «ووقع عرض الحجاج على صاحب الكرتان الذي هو من كمال الامتحان وأخذوا ما هولهم الموجب لغضب الرَّحمن».

وبعد فراغهم من الكرتنة يقابلهم أهل (جدّة) كل يريد منهم النزول عنده «كأن بيننا وبينهم مودّة وهم ذئاب في ثياب مقصودهم الدنيا بلا ارتياب» وقد وجد بندر (جدّة) من المواني القوية بما يصله من بضائع يقول «وهذا بندر (جدّة) في قوة عظيمة فيه أصناف المجلوبات من جميع الجهات وقصور شامخات».

ثم يتجه إلى مكة المكرمة آخر نهار الأربعاء «قبل الغروب بعد تسليم كراء الجمال المطلوب» وكان سيرهم مع جماعة كبيرة من الحجاج «في جملة قافلة من الحجاج وغيرهم ألوف ومقاطر تملأ الفضاء صفوف لا يعلم المقطر من آخره، هذه قافلة من مكة وهذه سائرة وكان شعارنا عند المتنادى «يا طالب الله» مع كثرة الناس وخوف الضِّياع والالتباس» وأخذوا في قطع الجبال والوهاد طوال ليلهم حتى أشرفوا على موضع يسمَّى بحرة «وما زالت تميس بنا المطايا في تلك البطاح وللناس زجلة بالتلبية والتكبير إلى الصباح» ونزل الموكب بكرة في مقهاية دون جدة تسمى بحرة وكانت الشمس شديدة الحر والرؤوس مكشوفة فاضطروا إلى القيلولة برهة من الوقت في ذلك المكان يقول «ولكل من شدة الحر زفرة مع كشف رأسه للإحرام يكشف بطنه وظهره فوقع استعمال ما به قوام الأرواح والقيلولة إلى الوقت

المتاح» ثم واصلوا سيرهم آخر يوم الخميس متّجهين إلى البيت العتيق «تهزّهم الأشواق إلى مشاهدة المشاعر العظام فوصلنا خارج مكة وقت السحر وقد غلب العيون النّعاس لتواصل السّهر».

الوصول إلى مكة

في مكة تلقّاهم الحاج صالح بن عبدالله الشوكاني «حرس بالسبع المثاني أبهل بنا غاية الإبهال وكان همّه منافعتنا في البكر والآصال وقد صار له اختبار مع سكون في مكة في أحسن حال» وانقسم الجماعة إلى ثلاثة أقسام حيث لا يضمهم موضع واحد يقول «ولما كان الرفقة عدد الأسباط[1] لم يشملهم رباط فانفرد كل أربعة في مكان حيث تعذّر الجمع لعدم الإمكان، ولكن الافتراق مع تقارب المحلاّت والاتفاق في أكثر الأوقات».

ثم يشرع في مناسك الحج المعتادة «أحرمنا للحج من الحرم الشريف يوم السبت ورحلنا إلى منى وصلّينا يوم الأحد في مسجد الخيف ودخلنا جبل عرفات من بين العلمين وخيمنا قرب الصخرات موقف الرسول ﷺ قريب من جبل الرحمة» ومن غريب ما وقع لهم أثناء وقوفهم «من الآيات الربانية أن الناس يتغوثون من شدة الحما والشمس في كبد السماء فلم نشعر بعد العصر يوم عرفة إلاّ بسماع صوت صاعقة ارتاعت لها القلوب».

وتتوالى شعائر الحج حتى يحين الحين للتأهّب لزيارة الرسول الأعظم ﷺ «ووقع الخوض في سفر الزيارة حتى وقع قطع الكرا» وكان الرّكوب جمالاً «الشقدوف بسبعة وعشرين ريالاً» فطافوا طواف الوداع واتفقوا على أن يكون «التبريز إلى جرول على طريق العمرة حتى تكاملت قافلة الزيارة» وفي أثناء مبيتهم في (جرول) كان احتراسهم الشديد من اللّصوص «لم نزل في احتراس من الحرامية كما قيل فتسلّل بعض الحرامية فاختطف العباءة

---

(١) أي إثني عشر رجلاً.

وطار بها بين السماء والأرض وهي محفوظة ليوم العرض ولم أكترث لذلك بل عددتها نعمة لدفع ما هو أعظم».

إلى المدينة

يحدثنا العلامة عبد الملك الآنسي صاحب الرّحلة عن المراحل بين مكة والمدينة فيقول «المرحلة الأولى وادي فاطمة» وقد سأل عن سبب تسميته بهذا الاسم فقيل له: إن أهل مكة كانوا عند فطام المولود تخرج به والدته إلى هذا الوادي للتبرّك بتمره فلذا سمّي وادي فاطمة من الفطام، ثم المطرح الثاني الكظيمة، والثالث عسفان، والرابع رابغ، والخامس مستورة يقول وفيه «كان قد همّ قبائل حرب غزو القافلة فلما رأوهم جمعاً كثيفاً مضاربين علموا أن لا طاقة لهم فولّوا هاربين» والمطرح السَّادس أبيار الحصاني، والمطرح السابع الخليص، والثامن الفريش، ثم التاسع المدينة المنورة، يقول «وهذه المراحل كل مرحلة سفر جميع النَّهار وأكثر الليل وبعضها الماء غير موجود بل لا بد من حمله في القرب فوق الجمال مع مزاولة الشّداد والحطاط والمخاوف والاحتراس من الحرامية».

وقد جعلته تلك الشّدائد أن يقول شعراً في هذا الحال، مشيراً فيه إلى ما يقاسيه الحجاج الأجراء:

دروب بين مكة والمدينة ... تضل بها الأشاجع مستكينة
فكم درب أتى من بعد درب ... تصير النّفس من تعب رهينة
فلولا العيس فيه مسخّرات ... وقصد الطّهر من كرمت يمينة
لما مرّت به قدم تمشّت ... ولا حلت بساحته سكينة
فلهفي للأجير الحاج ماذا ... يقاسي فيه من أشيا حزينة
فما أوفاهم الموصون إلاّ ... إذا كانت إجارتهم سمينا

وبالقرب من المدينة يصل إلى أبيار علي «ودخلنا المدينة بعد العشاء

ويسَّر الله لنا بيتاً كما نشاء قريباً من باب الرحمة» وبعد الوصول زال التَّعب «وحصل المنى والمطلب ولم نزل نتروح بـزيارة النبي الأمـين في كل أوان ونتمتع بما بين القبر والمنبر التي هي من رياض الجنان» وقد نوى الاستقرار في المدينة حيث الحبيب الأعظم لكن ذكر أنه لا يتم له نشر العلم في البلدة لأسباب يقول: «وقد كنت عزمت على المجاورة لكنه ظهر لي أنه لا يتم لي ما أريد من نشر العلم الذي هو طارفي والتَّليد فاخترت الرجوع، والقلب من القبر والمنبر موضوع».

العودة

وكان لا بد من العزم إلى أرض الوطن وإن زادت بهم الأشواق إلى مجاورة الرَّسول إذ أمر العيشة من مستلزمات الحياة، فعاد أدراجه من حيث أتى ولما سمع بقطع قبائل حرب لطريق الحاج «عرجنا في الرجوع طريق الخيف ثم الصَّفراء ثم ينبع» وفي ينبع يطيب له لمقام به وكان وصوله على إثر مطر يقول «وهذا بندر ينبع قد صار مدعثراً لكنه لصحّة هواه طاب لنا فيه المقر، ومن الكرامات حدوث المطر قبل وصولنا ولهم من المطر سنين حسبما أخبرونا» يقول ولا عيب فيه «سوى النَّوامس والذّباب» وله في ذلك شعراً يقول:

حـكمنـا بـعلم أن بنـدر ينبـع	صحيح على ما كان في شاطىء البحر
خلا أن فيـه العيب أن نـوامسـاً	لهـا زجـل يـا صـاح دائمـة النقـر
فـكم رجـل منـا يغـطّي نـفسـه	بثـوب رفيـع وهي في لسعهـا تفـري
فيـا رب عجـل بـالبـوابـير سرعـة	تكـون عـلى ظهـر المياه بنـا تجـري

وقد يسر الله لهم ساعية صغيرة تقلهم إلى (جدة) أما الباقون فقد سبقوهم على بابور لم يبق فيه سعة للآخرين يقول «ركب الأولون في بابور لم يبقَ فيه سعة وانتظرنا لبابور آخر أحد عشر يوماً في دعة لولا نفاذ بعض

المحتاجات لأنه وقع استصحاب ما يكفي للزّيارة مقدار المدّة والباقي سبَّقناه إلى (جدة) ولم نظن أنه يحصل مثبّطات في السير».

وعلى كل فقد استقلوا الساعية إلى (جدة) حيث وجدوا مركباً فرنسيًّا بانتظارهم فذهبوا فوراً لدفع الأجرة وإلى الحديدة مباشرة يقول «فوصلنا على رأس التنويل في بابور فرنساوي إلى الحديدة» وعلى الرغم من ضخامة هذا المركب فإنه لا يكاد يقاوم هيجان البحر «اشتد في بعض البحر الأزيب في صدر البابور حتى نزف[1] الموج إليه فتغيّر حال من فيه وأمتعتهم وظنَّ الناس حلول البلاء لولا لطف الله بقرب المرسى»..

ويصل (الحديدة) وتنتهي الرحلة يقول في ختامها:

«وقد طوينا كثيراً مما شاهدناه مدة الإقامة في مكة والمدينة وما بينهما من العجائب والغرائب في الدين والدنيا لا حاجة لذكرها «قل كل يعمل على شاكلته» . . والقصد الإشارة إلى حاصل السّفر من ابتدائه إلى انتهائه ليقوم مقام التحدث شفاء لمن يعد من الأصحاب سكناه».

قلت: لو أنه حدثنا عن هذه العجائب والغرائب لأفادنا أشياء طريفة كما هو الحال عند الرحالتين يحيى بن المطهر والحسين بن إسماعيل جغمان ولكن في الاختصار إشارة.

---

(١) نزفه بالماء: نضحه به وهو من عامية أهل صنعاء.

أبو طالب: ورحلته

بلوغ غاية المشتاق في الرحلة إلى العراق

إذا ذكر الرحالة اليمنيون في العصر الحديث فلا بد أن يكون على رأسهم الأديب العلامة القاسم بن الحسين أبو طالب فقد كان رحالة متفنناً في صياغة نثره، همه الأول من كتابة رحلته الجمع بين خاصتي البيان والوصف، وقد دون لنا رحلته إلى العراق ليأتي بأنماط من ذلك التعبير الأدبي الذي نعنيه..

الرحالة أبو طالب:

وقبل الدخول مع أبي طالب في رحلته إلى العراق نستطلع ما جاء عنه في كتب التراجم اليمنية، وقد أفرده لترجمة مستقلة معاصره المؤرخ محمد بن محمد زبارة، وكذا أرخ له في كتابة «نزهة النظر».

ولد العلامة القاسم بن الحسين أبو طالب في روضة حاتم في يوم الخميس ٢٥ رمضان سنة ١٢٩١ هـ وحفظ القرآن عن جلة من مشائخ عصره ومن شيوخه في سائر فنون العلم العلامة عبد الكريم بن عبدالله أبو طالب، والعلامة المقري علي بن أحمد الشرفي ومحمد بن أحمد حميد وغيرهم ممن اعتنى بذكرهم مترجمه الأول المؤرخ زبارة، وله في الصلح بين الدولة العثمانية والإمام يحيى مساع كثيرة وكذا بين الإدريسي وابن سعود توسع

فيها كل من أرخ له، ومن أهم ما يذكر له في تاريخه الوطني جهاده للنصارى في عدن مع القائد سعيد باشا وكان خطيب القوم في مواقع الجهاد، وقد جاء ذلك في اعتراف كتبه سعيد باشا المذكور جاء فيه:

«ولما وصل المشار إليه، بلّغ ما هو مودع إليه من السلام والاحترام وتبريك الغزوات... وبعد إيفاء ذلك نادى من نير أفكاره وبلاغته الوقادة على العموم ووعظهم وأرشدهم وشددهم وحثهم على الثبات والقيام بساحة الجهاد والتعاضد والتفاني في هذا السبيل... وعلاوة على ذلك خطب فوق المنبر الذي في مركز خطبة الجهاد بلحج بعد أداء فريضة الجمعة، وبإرشاده البليغ حرك الهمم وأيقظ أهل الحمية والشيم وطاف بالبلاد شرقاً وغرباً وزار سائر محلات الخطة الجهادية وحث الجميع على ما أمرهم الله ورسوله من الصبر على الجهاد واحتساب الأجر على رب العباد... والحق يقال بعد ذلك لقد وجدنا تأثيراً في قوة المجاهدين وشاهدنا المادية والمعنوية على الأمراء والضباط، وعند الأفراد ومن النظام والأهالي...

إلى آخر منشور القائد سعيد باشا

رحلاته:

وقد شغف علامتنا أبو طالب بالرَّحلات في أطراف البلاد القريبة والبعيدة، وكان يدون كل ما يتاح له من رحلات في رسائل قصيرة وقد ذكر لنا المؤرخ زبارة من هذه الرحلات رحلته إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج سنة ١٣١٣ هـ وهي بعنوان «حديقة النظر في ذكر أحوال السفر»، ورحلة أخرى إلى ضوران وذمار سنة ١٣٢١، وثالثة في ذكر عزمه إلى ابن إدريس بعنوان «محادثة الجليس بصفة العزم إلى ابن إدريس» وذلك سنة ١٣٣١ يقول فيها في تحقيق شخصية ابن إدريس المذكور...

«وحاصل الكلام أني خبرت هذا الرجل وتتبعت مقالاته ورمقت

أفعاله وتأملت في شأنه تأمل الحريص على الوقوف على الأثر فما وجدته إلا كالسَّراب غره من رآه وخاب من رجاه مصادقته غرور ومجانبته أمن وسرور مكثار مهزار فرقار ثرثار متشدق متعمق». . . الخ.

وهو يحدثنا عن رحلاته الداخلية فيقول:

«. . . أما السبع النواحي المحيطة بصنعاء وهي بنو الحارث وبنو حشيش وسنحان وبلاد البستان وبلاد الروس وبني بهلول وهمدان فقد تكرر التردد فيها البعض من ذلك لأمر دولي والبعض الآخر وقفي والبعض لأمر خصوصي، ثم ما كان من جهة الجنوب من صنعاء فإلى مدينة ذمار مراراً عديدة وإلى رداع وإلى يريم مراراً عديدة وإلى إب مراراً عديدة، وما إليها من جبلة ثم عزلة دلال وما يليها. . . وإلى تعز مراراً عديدة وإلى الجند، وعرفنا جامعه المشهور الذي عمره معاذ بن جبل وإلى قضاء القماعرة والشرمان وعرفنا الوادي المسمى وادي بناء وإلى لحج أيام حصار عدن بالجيش العثماني، الذي هو تحت قيادة سعيد باشا وبقيت أياماً في لحج وكانت تخرج الطائرات من عدن إلى لحج وعند خروجها ودورانها على لحج وإسقاطها للقنابل كان يحصل معها الرعب العظيم مع إتلاف وقتل. . . كان يحصل منها، وكنا نخرج إلى مواقع العسكر العثماني المحيط بعدن ليلاً مع سعيد باشا وجماعات من الذوات من العرب والترك وكنا نحث المجاهدين على قتال الإفرنج بعد صلاة الجمعة على المنبر ويحصل لذلك تأثير عظيم». . .

ويحدثنا العلامة أبو طالب عن بقية رحلاته أيضاً فيقول:

«أما ما وقع الوصول إليه من جهة الشمال من صنعاء ناحية أرحب وذيبين وظفار وعرام وجبلة وخيار من حاشد وما يلي ذلك ثم إلى حوث وقفلة عذر مراراً عديدة وريدة وخمر مراراً. . . وما وقع الوصول إليه من جهة الشرق من صنعاء إلى الكبس وما يليه وإلى المديد وغيره من قرى نهم

وإلى خلف المديد بالقرب منه... وما وقع الوصول إليه من جهة الغرب من صنعاء فإلى متنه وإلى الخميس ومفحق وقضاء حراز مع الدوران في بعض هذا القضاء لأمور الوقف ولأمر دولي وفي جهة الغرب من صنعاء أيضاً شبام كوكبان وثلا والطويلة وبيت عذاقة وحجة وكحلان وعفار وقيدان ومغربة الهرش ووادي ثعلان تحت حصن نيسا... ووقع الوصول إليه مرات عديدة الحجيلة، باجل، القطيع المراوعة، بيت الفقيه، حيس، زبيد، الحديدة، وقع الوصول إليها سبع مرات أيام العزم إلى الحج وغير ذلك، اللحية ميدي».

وتلك رحلات العلامة أبو طالب كما أجملها بنطقه نفسه، وفيها الكثير من الصور الاجتماعية والتاريخية لو أنه دونها...

توفي العلامة القاسم بن حسين أبو طالب في صنعاء سنة ١٣٨٠ هـ.

رحلته إلى العراق:

وتبقى رحلته إلى العراق السمة البارزة في رحلاته العديدة كأطول رحلة قام بها خارج الوطن وقد أفردها في مؤلف مستقل أسماه «غاية الأشواق في ذكر السفر إلى أرض العراق» وقفت على مخطوطته الوحيدة بمكتبة جامع صنعاء وهو أول رحلة دونها رحالة يمني إلى العراق في القديم والحديث وفيها الشيء الكثير من انطباعات المؤلف عن العراق وأهله ومظاهر الحضارة الحديثة التي بدأت تدب فيه:

وفي المقدمة يذكر لنا تاريخ العزم وبداية الرحلة من صنعاء وتسمية كتابه يقول:

«والمقصود ذكر كيفية السَّفر في البحر والبر وكم المدة وكم أيام البقاء في النجف وكربلاء وكيفية المشاهد المباركة ونحو ذلك ليكون تبصرة لمن عزم على مثل هذا السفر وتوضيحاً لمن رام حيازة الأجر وإبلاغ الوطر

وسميت هذه النبذة بلوغ غاية الأشواق في ذكر السفر إلى أرض العراق»..

ثم يشرع في ذكر مراحل السير وتاريخ العزم وهو بتاريخ ١٠ شوال سنة ١٣٢٣ هـ الموافق سنة ١٩٠٦ م.

«وقع العزم بهذا المقصد المبارك من الروضة المباركة من أعمال صنعاء اليمن صبح يوم الخميس الموافق عاشر شهر شوال أحد شهور سنة ١٣٢٣ هـ بمرافقة جماعة من الحجاج الخارجين من مدينة صنعاء وفي ساعة ثلاث ونصف في صبح يوم السبت ١٢ شوال وصلنا مناخة وفي ساعة واحد يوم الاثنين وصلنا باجل ولم نزل فيه لراحتنا وراحة الدواب إلى ساعة تسع ونصف وخمس دقائق في نهار يوم الثلوث ثم عزمنا منه ووصلنا مقهاية علي جابر»..

الوصول إلى الحديدة والبحث عن مركب:

وتتوالى المراحل على صاحبنا حتى يصل إلى «الحديدة» مجمع التجار والبضائع يقول:

«وصلنا بندر الحديدة في ساعة واحدة صبح يوم الربوع ١٦ شهر شوال وعقيب وصولنا سألنا أهل الخبرة عن المركب الذي سيكون عزمه إلى عدن فأخبرنا أنه سيصل عن قريب وبعد أن مضى قليل من الوقت أخبرنا بوصوله فبادرنا بتحصيل المحتاجات لركوب البحر»..

وكان الحصول على مركب ليس بالهيّن في ذلك الوقت ولكن صادف قدوم أحد المراكب الكبار الأجنبية يسمى «فتقوه» حسب نطق المؤلف فساعده على تخفيض أجرة المركب قنصل العجم يقول:

«ووقع نولنا في المركب من طريق قنصول العجم الشيخ أبو الحسن محمد بن علي رضاء العجمي[1] فإنهم تكلموا معنا في تقليل النول وتسهيل

(١) سبق ذكره في رحلة العلامة عبد الملك الأنسي.

الركوب وفي يوم الجمعة قبيل دخول العصر طلعنا المركب المسمى «فتقوه» للعزم إلى عدن». .

في الذهاب إلى عدن ودخول البحر:

كانت رحلة المؤلف إلى العراق قصداً عن طريق البحر الأحمر وليس عن طريق مكة بعد الفراغ من الحج كما هي العادة.. فبعد الفراغ من تجهيز أمر المركب..

«شمر بنا عند غروب الشمس فلم يـزل يسافـر بنا وفي نهار يـوم السبت مر بنا المركب بمقابل مدينة المخا وهي مدينة كبيرة على جهة الشرق تلي بر اليمن.. وفي ليلة الأحد مر بنا المركب من باب المندب وهو ضيق بين جبلين اسم أحدهما الشيخ سعيد وهو مما يلي اليمن تحت ولاية الدولة العثمانية والآخـر «ميون» في جهـة الغـرب ممـا يـلي الحبشـة تحت ولايـة «الإنكليز» وقبيل دخول وقت العصر في نهار يوم الأحد ١٩ شوال وصلنا مرسى عدن»..

في عدن:

كانت عدن في ذلـك الوقت تحت سيـطرة الإنكليز وكـانت تغص بالبواخر المختلفة والتجارة وغير ذلك وفي عدن يلقى رحالتنا رحله ويلتقي بجماعة من أهل بلدته حيث يسهلون له مهمة السفر إلى العراق ويرشدونه الطرق المتبقية في مثل ذلك يقول:

«وحال خروجنا إلى الدكـة (المينا) تلقـانا جمـاعة من أهـل صنعاء المعروفين لـدينا فقـاموا بـأودنا ورمّـوا متاعنـا وبتنا تلك الليلة لـديهم في «التواهي» على أحسن حال ومعيشة مرضية وأتوا جماعة من أهل صنعـاء والروضة لدينا تلك الليلة للمجابرة».

وبعد ذلك تبدأ مهمة البحث عن باخرة تقلهم إلى البصرة فبعد أن يمكث ليلته في ميناء عدن التواهي يشد أمتعته للعزم إلى المعلا ثم إلى عدن للغرض ذاته.

«وفي نهار يوم الاثنين ركبنا على العربة ومرَّ بنا من المعلا ودخلنا بندر عدن فبقينا فيه وسألنا بعض أهل الخِبرة عن البابور الذي سيذهب إلى البصرة فأخبرنا أنه سيصل عن قريب ولم نزل ننتظر وصوله»..

وفي حين انتظار الباخرة يعتَني رحالتنا بجمع شؤونه ومحتاجاته التي يحتاجها في أثناء السفر ولا ينسى التفرج على مدينة عدن:

«وفي خلال ذلك حصَّلنا محتاجاتنا لركوب البحر مثل الأرز والدقيق والسود «الفحم» والبصل وأخذنا المحتاج من آنية الطبخ وتعرّفنا البندر وأحواله وهو محل عليه الجبال المنيعة محيطة به من كل جانب لم يكن له طريق إلا من ثلاثة أبواب «باب البحر» و«باب البر» و«باب مشترك بين البر والبحر»..

وأخيراً يأتي المركب - وهو سفينة بخارية صغيرة - وقد تأهب رحالتنا لأمره:

«إلى أن وصل البابور البصري صبح يوم الاثنين ١٢ شوال وفي نهار ذلك اليوم استأجرنا عربية وركبنا عليها وخرجنا لطلوع البابور ووقع ركوبنا فيه من جهة الحاج الضياء إبراهيم بن عبدالله بن حسن العجمي وأصناه «أخويه» فإنهم اعتنوا بشأننا وأخذوا لنا خطا «مكتوباً» للركوب يسمَّى «الشتى» (تذكرة)».

ويستقل المركب وهو يصفه كما شاهده هو ومرافقه يقول، - وقد ذكر جماعة من رفقته الذين صحبوه في الرحلة:

«طلعنا البابور وطلع معنا العزي محمد بن أحمد قشاشة للمعاونة على

حفظ متاعنا فكلم لنا في البابور من ينبغي تكليمه من أجلنا وقام بأودنا في حال ذلك جزاه الله خيراً. . . وعقب أن ركبنا في البابور. . وهو لاتيني، من أكبر بوابير الانكليز وأتقنها شمر بنا قاصداً البصرة، ولم يكن في هذا البابور ركاب، إلا أنا ورفيقي في السفر العزي محمد بن محمد العطاب، من أهل «الروضة» وقبطان البابور ومن تحته من الصرنج والعمال إلى ثمانية وعشرين نفراً، ونصراني أرنوطي لا سوى». .

مدن على الطريق:

ويمضي بهم المركب يمخر عباب البحر ولا ينسى رحالتنا وهو يمر في الطريق أن يذكر لنا ما شاهده من مدن كثيرة أثناء طريقه، فهنا مسقط يقول:

«فلم يزل البابور يجري بنا على متن الماء تحت أديم السماء إلى أن وصل بنا صبح يوم الاثنين ٥ شهر القعدة مسكت «مسقط» فلما رسى بنا فيه نزلت في سنبوك إليه لآخذ بعض المحتاجات فأخذت من سوقه لحماً وفحماً ورجعت على المبادرة، لأن البابور لم تلبث إلا قدر أربع ساعات». .

ويصف أهل مسقط (عمان) وحاكمها بقوله:

«وأكثر عمل أهله الصيد في البحر. ومتوليه السيد فيصل بن تركي وهو فيصل بن تركي بن سعيد بن سلطان وفيصل هذا هو ابن أخي برغش بن سعيد بن سلطان صاحب «زنجبار» من مدائن الهند[1] (؟) الذي كتب القرآن جميعه على داره من خارجها، ولفيصل ضريبة من النحاس في أحد جانبها ضربت في «مسقط» وهو متولي عليه وعلى ما يليه من المحلات، وللانكليز فيه بيرق (علم) وقنصول».

(١) صوابه افريقيا.

ويمر على بندر عباس:

«وصل بنا المركب بندر عباس نهار يوم الثلوث ساعة إحدى عشرة ولم يزل مرسياً لإنزال ما فيه من البضائع وإطلاع بضاعة البندر المذكور، وطلع فيه ركاب من عراق العجم، من شيراز وكرمان... وبندر عباس محل لا بأس به تليه آكام وجبال، وبر واسع... وأهل البندر المذكور عجم وولايتهم راجعة إلى سلطان العجم، وللانكليز قنصول (قنصل)»..

وفي الطَّريق يمر المركب على ميناء يسمى «بشير» يقول:

«وفيها شبه بالحديدة» وهناك يحدث لهم تأخر في السير بسبب قلة الماء «إلى أن وصل المركب إلى مكان قليل البحر لم يكن مشيه فيه لقلة الماء مع كبره فبقي في حيرة واضطراب وتحير عن الذهاب وأعيا عماله من وجه من محل وقوفه ولم يزل على ذلك إلى صبح يوم الجمعة المباركة ١٦ شهر القعدة، وفي صبح ذلك اليوم أقبل بابوران أوضحا لهذا البابور المتحير طريق السلوك» وكان ذلك بأن خففا من حمولة هذا المركب ونقل بعض ما فيه من ركاب..

وأخيراً «ذهب المركب من محل تحيره، بعون الله تعالى، فلم يزل في سيره حتى وصل شط الفرات الماء العذب وهو مجموع من الفرات ودجلة، وهو شط مفرح في جانبيه عروش ونخيل كثيرة»..

ويقف المركب أثناء مروره عند «المحمرة» فلا يفوت رحالتنا مشاهدتها «نزلنا إلى محمرة في السنبوك وشرينا من سوقها قليلاً من الخبز والتمر، وعدنا إلى البابور وهي متسعة فيها أسواق كثيرة ونخيل متكاثفة»..

في البصرة:

كان الرحالة قد وصل إلى أول أطراف العراق وها هي البصرة تلوح أمام ناظريه ولكن دخولها لا يكون إلا بعد تفتيش صحي..

«وفجر يوم السبت شمر بنا قاصداً البصرة، فوصل بنا مرساها بعد شروق الشمس بقدر ساعتين وبقينا في البابور إلى أن وقع الإذن بالنزول، فنزلنا من البابور إلى محل الكرنتينة (الحجر الصحي) فأخذ من الزوار الجبايات قرشان فرانصة على كل نفس وبقينا تلك الليلة ليلة الأحد في الكرنتينه». .

ثم يسمح لهم بدخول المدينة «في صبح يوم الأحد ١٨ من شهر ذي القعدة اطلعنا منها (من المركب) واستأجرنا سنبوكاً وحملنا متاعنا فيه وركبنا عليه ودخلنا مدينة البصرة، فلما وصلنا إلى موضع يسمى العشار طلبنا إلى مأمور ذلك المحل وسألنا عن بلادنا فأخبرناه بأنا من أهل اليمن وبعد ذلك خلينا فرجعنا إلى السنبوك». .

يقول وقد حصلت للمسافرين شدة لا ندري ما هي:

«ودخلنا البصرة ومن حين النزول من البابور إلى وقت الاستقرار حصلت على الزوار ونحوهم من الوافدين محنة عظيمة من أهل الأمر». . .

ولا يفوت المؤلف وهو على مرسى البصرة أن يصف ما شاهده على الميناء «وصلنا مرسى البصرة وفيه خمسة بوابير «سفن بخارية» وأما السفن والسنابيك فكثيرة إلى نهاية يتعسر حصرها». .

وفي البصرة يتعرف على بعض معالمها ونزهها:

«خرجت من البصرة للتمشية إلى وادي الزبير، وهو المسمى في الأصل وادي السباع وهو في جهة الغرب من البصرة على مسافة قدر ساعة فلما وصلت إليه دخلت مسجد الزبير فصليت العصر. . . ثم ما زلنا في البصرة نتمشى في حدائقها ونتعرف أحوالها ونختلف إلى الصلاة في مساجدها فوجدناه بلدة قليلة العلماء خالية عن الدرس والتدريس الميل فيها إلى الدنيا وإلى المتاجرة ففيها أسواق كبيرة وفي أهلها نخوة. .

إلى بغداد.

كانت الطريق من البصرة إلى بغداد بحرية أيضاً وقد قطعها صاحبنا في باخرة تسمى «حميدية» وكان قد انتظرها طويلاً بعد فوات الأولى التي رحلت ولم يعلم بها يقول:

«ثم ما زلنا في البصرة مناظرين «منتظرين» لوصول البابور من بغداد لأنه وصل أحد البوابير وعزم ولم نعلم به وفي ساعة عشرة ونصف في نهار يوم السبت ٢٤ شهر القعدة وقع عزمنا من البصرة إلى بغداد في البابور المسمى «حميدية» من بوابير الدولة العثمانية وقد ركب في البابور قدر أربعمائة»..

ويعطينا الرحالة فائدة عن طريقة المواصلات بين بغداد والبصرة وهي غالباً بحرية فيذكر عدد السفن وأسمائها:

«واعلم أن البوابير المداومة للاختلاف من البصرة إلى بغداد، ومن بغداد إلى البصرة ثمانية منها اثنان للانكليز وستة للدولة العثمانية فأسماء الستة «حميدية» و«رصافة» و«موصل» و«فرات» ولم يذكر بقية المراكب...

وفي الطريق يعرج على مدينة يقال لها «العمارة» يرسي بها مركبهم لتفريغ حمولته وأخذ ركاب فلا يهمل رحالتنا - كما هي العادة عنده - دخولها ووصفها:

«ثم إن البابور ما زال يسافر بنا على الشط المجموع ماءه من دجلة والفرات قاصداً بغداد فلما وصل بنا إلى محل على الشط يقال له العماره رسى فيه كما هي العادة الجارية فخرجت إليها وأخذت من سوقها زاداً وتمر ولحماً وفحماً وعدت على جهة السرعة لأنه لم يقف الا قدر ساعة لتنزيل بعض الحمل وطلع إليه ركاب إلى بغداد... «والعمارة» محل مبني من الأجر بيوته، وأسواقه في غاية الانتظام»..

ويمر على قرى ومدن أخرى لم يستطع النزول إليها لعدم توقف المركب وشدة البرد، وربما موقف المركب هو الآخر لوجود الظلام الشديد في أثناء الليل يقول:

«ثم شمر البابور إلى أن وصل محلاً يقال له «الكوت» فوقف فيه قدر ساعة وطلع إليه قليل من الركاب إلى بغداد ولم يقع لي إليه الخروج لشدة البرد في الليل، وفي حال السفر من البصرة إلى بغداد مر بنا البابور على محلات كثيرة في جانبي الشط ووقف بنا البابور في الشط وقفات كثيرة، لحصول ظلمة في الليل ومطر ونحوها، لكنه سفر غير متعب لعدم اضطراب الموج لقلة البحر «الماء» بل سفر مفرح لقرب البر منا»..

في بغداد:

يصل بغداد في غرة شهر ذي الحجة سنة ١٣٢٣ هـ وينزل موضعاً فيها يسمى الكاظمية مخصصاً لنزول الزوار فيها:

«وذلك بنظر المزور الشيخ سلمان بن داؤد بن سلمان، من أهل الكاظمية، وبين الكاظمية وبغداد دون ساعة بالعربية (العربة) وفي الكاظمية ينزل فندقاً يسميه خاناً، ويزور هناك المشاهد والمآثر المعروفة بها العراق وفي الكاظمية ثمانية حمامات أربعة للرجال وأربعة للنساء، والنخيل ملتفة به من جميع الجوانب، وبه قائم مقام من طرف والي بغداد»..

ويتوجّه في يوم الاثنين ٤ الحجة إلى كربلاء على عربة تجرها الخيول مع جماعة من الزوار: «بعد أن حملنا عليها ما لا بد منه من المحتاجات، فلما وصلنا محلاً على الطريق، يقال له «المحمودية» نزلنا من العربية وأكلنا ما تيسر من الزاد، وأبدلت دواب العربية، وركبنا عليها على جهة المبادرة، إلى أن وصلنا محلاً يقال له «المسيب» عند دخول وقت الظهر، وهو محل لا بأس به، فيه نخيل كثيرة، وفي وسطه خليج في شط الفرات»...

وفي الطَّريق من الكاظمية إلى كربلا، أبدلت دواب العربة التي تقلهم عدة مرات وذلك «لبعد المسافة» . .

ويصل أخيراً إلى كربلاء، فينزل عند المزور جواد بن مصطفى: «فأضافنا في تلك الليلة» وفي الصباح يتوجّه لزيارة المآثر بها ويطنب في وصف ما فيها من مشاهد، وربما استطرد إلى حوادث تاريخية مناسبة لتلك المشاهد، ويقول في وصف مدينة كربلا المذكورة . .

«مدينة محيطة بتلك المشاهد المباركة من جميع الجوانب، وهي مدينة كبيرة، وفيها أسواق كثيرة متّسعة، وفيها ما يقرب من عشرين حماماً، والبساتين محيطة بها من كل الجوانب فيها النخيل والعنب، والرمان والتين وسائر الخضروات وبها نهر كبير في وسط الفرات يغترفون منه ويسقون بساتينهم . .

ويحدثنا عن العلم والعلماء في كربلا فيقول:

«وفيها مدارس العلوم والعلماء الجم الغفير فمن مشاهير العلماء في هذا التاريخ إسماعيل الحسني الملقب الصدر، والعلامة محمد باقر الطبطبائي، وعليه التعويل والمحاكمات وفصل الخصومات من دون وظيفة».

وللعلماء في العراق مكانة كبيرة وهم معظمون: «نعم العلماء في العراق معظمون محترمون».

ومكث في كربلا متنزهاً بين مشاهدها «على حال حسن ومعيشة مرضية متمتّعين بالمقامات النيرات حتى حان رحيله إلى النجف، فيذهب بمعية مزوره، ويمر في الطريق على موضع يقال له «الخانة يقول: «وفيه أربع خانات مسبلة لمبيت الزوار وغيره، فبتنا تلك الليلة فيه فأكلنا ما تيسر من الطعام ثم عزمنا منه فوصلنا النجف» . .

في النجف:

كان وصوله يوم الجمعة الساعة الثامنة يقول:

«وللنجف طريق آخر على البحر وهو أن يخرج الرجل من كربلا براً على مسافة ثلاث ساعات تقديراً إلى محل يقال له الطواريح على شط الفرات، فيركب منه على الساعية إلى الكوفة ومسافة ذلك يوم ثم يذهب من الكوفة إلى النجف، والمسافة قدر ساعة وربع في البر»..

وبعد وصوله النجف ينزل في منزل قريبٍ من المسجد، وهو يصف المدينة بقوله:

«عليها سور بليغ من الآجر وماؤه مالح ما لم يكن لهم شرب إلا نهر من شط الفرات يصل إلى قريب النجف يغترفون منه، ولم يكن بالنجف شيء من النخيل والأشجار وفيه المساجد الكثيرة وفيه من الحمامات نحو خمسة عشر حماماً»...

وعن الإدارة الحكومية والحالة العلمية في النجف يقول رحالتنا: «وبه قائم مقام من طرف والي بغداد وفيه العلماء والمتعلمين الجم الغفير من أهل النجف ومن غيرهم من المهاجرين إليه، ولقد أخبرني بعض أهل العلم أن الطلبة فيه يفوقون على خمسة آلاف طالب وفيه المدارس الكثيرة العامرة، وعلى الجملة إن النجف يسمى في العراق بدار العلم»..

وفي النجف يلتقي بجلة من العلماء الكبار، منهم العلامة علي بن محمد الرضي الذي يقف عنده على مكتبة كبيرة حافلة يجد فيها جملة من مخطوطات أهل اليمن يقول:

«وعنده خزانة من الكتب كبيرة ومما وجدت عنده من المؤلفات المشهورة باليمن جزءاً من نفحات العنبر للعلامة إبراهيم بن عبدالله الحوثي وذكر لي أن عنده من مؤلفات أهل اليمن الحدائق الوردية. وعوّل علي في

البقاء وعدم الاستعجال بالعود فصرحت له بالاعتذار» . .

وهو في استعراضه لحالة العلم في العراق يعقد مقارنة بينها وبين حالة العلم في اليمن في عصره فيقول:

«وعلى الجملة إن العلماء وطلبة العلم في غاية الانسلاخ «الانخراط» إلى تحقيق العلوم والفحص عن منطوقها والمفهوم لا كما قد صارت مدارس العلم باليمن مهدومة الأساس عافية الأرسام (الرسوم)» . .

تلك أهم معالم رحلة أبي طالب إلى العراق وهي تعنى في أول الشيء بالوصف العادي المجرد الذي يقع للرحالة نفسه دون الدخول في أغوار الأمور، ومستكناتها، وإن كنا نجد فيها ما يشبه السرد التاريخي لحياة العراق العربي في مقتبل القرن العشرين وقبيل نشوب الحرب العالمية الأولى وما حدث بعد ذلك من عظائم الأمور . .

في الهند

ما كاد رحالتنا العلامة الحسين بن القاسم أبو طالب يفرغ من زيارته للمشاهد المقدسة بالعراق حتى تأهب للعزم إلى أرض الوطن، وقبل أن يصل إلى (البصرة) للذهاب عن طريق شط العرب فـ (الحديدة) أو (عدن) تعترضه مراحل متعددة للوصول إلى مقصده الأول، وهو البصرة يقول «نعم وفي هذا اليوم (الخميس ٥ محرم سنة ١٣٢٤ هـ) وقع العزم إلى الرجوع إلى الأوطان بعد أن استكملنا الزيارات وسألنا الله تعالى في كل مقام».

وما يكاد ينتصف يوم الخميس حتى يكون رحالتنا قد حزم أمتعته وركب العربية متوجهاً من (الكاظمة) إلى (بغداد).

«ولما دخل وقت الظهر يوم الخميس المذكور جمعنا متاعنا وحملناه على العربية وركنا عليها من (الكاظمة) إلى (بغداد) وبمعيتنا الشيخ المبارك مهدي بن سليمان».

وفي بغـداد يبحث عن المركب الـذي يقله إلى (البصرة) ومنها إلى (عدن) يقول:

«وعقب وصولنا بغداد تأهبنـا للركوب في المـركب وطلعت المركب المسمى «موصل» من مراكب الدولة العثمانية وبتنا فيه تلك الليلة مرسياً في مرسى بغداد».

ثم ينطلق بهم المركب ويمر في سيره على عدة مواضع يشاهدها وهو مار بها:

«ولما ظهر فجر يوم الجمعة ٦ محرم عزمنا على السفر إلى (البصرة) وفي خـلال سفـره إلى (البصرة) وقف المـركب في محـلاَّت معتــادة وهي (الكوت) ثم (الغرى) ثم (العمارة) ثم (قلعة صالح) ومكث في كل محل قدر ساعة لطلوع أحد إلى المركب ونزول أحد منه».

وكان مشيه في النهار كله، أما الليل (فكان يسافر من أوّله قليلاً ثم يرسي إلى طلوع الفجر ثم يسافر وهكذا).

في البصرة وحديث الرحلة

وأخيراً يصل بهم المركب ميناء البصرة وتبتدىء للرحّالة شجون السفر والبحث عن مركب يقلهم إلى عدن أو الحديدة.

(إلى أن وصلنا مرسى (البصرة) عند دخول وقت المغرب ليلة الثلاثاء فبتنا تلك الليلة في المركب لهجوم الليل، وفي صبح يوم الثلوث ١٠ محرم نزلنا من المركب وبقينا في (العشار) محل بالقرب من الشط بينه وبين البصرة ساعة بسير القدم).

يقول وحين كان في الميناء كانت هناك خمسة مراكب لم يكن بينها ما ينوي الذِّهاب إلى عدن (وحين وصلنا كان في المرسى خمسة بوابير كبار ولم يكن فيها ما سيذهب إلى (عدن) أو (الحديدة) فسألنا بعض وكلاء المركب عن وصول مركب يذهب إلى (عدن) أو إلى (الحديدة) فذكر بعضهم أنه ربما يصل مركب يذهب إلى (عدن) ولا يقع ذهابه إلاَّ في سلخ محرم الحرام).

وبينما المؤلف في حيرته في انتظار مركب يقله إلى بلده يتهادى على البحر مركب كبير من (الهند) عازماً على العودة إلى بومبي (من الهند) وقد أخبره بعضهم أن المراكب المتوجهة إلى (عدن) متيسرة في تلك البلاد ـ فما كان من صاحبنا إلا أن قوَّى النية للذهاب إلى (الهند) ليقل مركباً منها هناك إلى (عدن) أو (الحديدة).

«وفي نهار يوم الخميس ١٢ محرم وصل بابور من الهند من بندر (بومبي) وذكر لنا بعض أهل الاختبار أنه سيعود عن قريب إلى (بومبي) ومن (بومبي) إلى (عدن) البوابير متيسرة» وهكذا تعرض لرحالتنا رحلة إلى (الهند) لم تكن له بالحسبان ويكون قد أتحفنا بهذه الرحلة التي نتحدث عنها يقول:

«فاستخرنا الله في العزم إلى (بمبي) فتفوت النية على العزم بعد تلك

الاستخارة» ثم يقدم على ركوب المركب ويسمى (نيكل) وهو من بواخر الانجليز وكان قد انحدر قبل وصوله إلى (الهند) إلى عدة بلدان يذكرها رحالتنا في حديثه هذا:

«ولما دخل وقت الظهر في ذلك اليوم جمعنا الظهر والعصر جمع تقديم ثم جمعنا متاعنا واستأجرنا سنبوكاً وركبنا فيه، وطلعنا البابور المسمى (نيكل) من كبار بوابير الانجليز عمّاله من (الهندوس) فرقه كفرية غير اليهود والنصارى والبيانيين، وبتنا فيه ليلة الأحد في مرسى (البصرة) وطلع فيه قليل من الركاب إلى (بشير) وإلى (مسكت) وإلى (الجراجى) وإلى (بندر علي)».

ثم يشمر بهم المركب مع من أقلّه متوجِّهاً بهم المواضع المذكورة (ولما كان ظهر في يوم الأحد ١٥ محرم شمَّر المركب فلم يزل في سير سريع إلى أن وصل ليلة الاثنين (بشير) وحين وصلنا في مرسى بشير كان فيه بابورين).

ولم يزل بهم المركب في سيره حتى يصل بهم إلى (كراجى) أول ولاية في (الهند) «وفي هذا الوقت وردنا على ولاية (كراجى) وهي راجعة إلى (هندستان) وفي حال وصولنا مرساه وفيه من البوابير الكبار ثلاثة عشر بعضها حربية وبعضها غير حربية». وفي (كراجى) يرسو بهم المركب ويسمح لهم بمشاهدة البلاد، فينزل صاحبنا ويصف ما يشاهده «وفي صبح يوم الجمعة يوم ٢٠ من شهر محرم عقيب شروق الشمس نزلنا من البابور لأخذ بعض المحتاجات من (كراجى) وعبرنا في سنبوك إلى أن وصلنا الدكة ثم ركبنا في عربية إلى الولاية لأن من الدكة إليها قدر ساعة ونصف بسير القدم وهي ولاية كبيرة كثيرة الحركة كبيرة السوق».

ويحدثنا عن معتقدات أهل تلك البلدة فيقول:

«المسلمون فيها على المذاهب الأربعة وأمَّا النصارى والبانيان وغيرهما

من سائر الأديان فالحصر متعسر على كل لسان».

وفي هذه المدينة يستوقفه مشهد غريب لم يعهده من قبل وهو قاطرات الحديد التي لم يرها في عمره - وقد وصفها بدهشة واستغراب يقول: مما رأينا فيه البوابير البرية التي تمشي على النار في سكة الحديد ورأينا بعضها وله حركة عظيمة - وهو أحد وثلاثون مكاناً مربَّعات متتابعات منها أربعه وعشرون مسقوفة مستورة بأبوابها المحكمة ومنها سبعة مكشوفة ولا سقف لها وبيت النَّار أمامها متصل بالمكان الأول).

ويصادف أثناء وجوده احتفالاً كبيراً تقوم به المدينة لاستقبال ابنة ملك الانجليز وكانت هذه الولاية تحت حكم بريطانيا وقد انخرط الناس في تلوين الجدران وإعداد الكراسي إلى غير ذلك يقول:

«ورأيناهم في الولاية يصبغون جدران الأزقة بالأخضر والأحمر والأصفر ويعلقون بها الفوانيس والنَّوارات في الأزقة والبيوت ويكسون الخشب بالقطن الأحمر والأسود والأبيض وقد كسحت الأزقّة بأجمعها فسألنا عن ذلك فذكر لنا أنهم متأهّبون لوصول ابنة ملكهم من لندن لأن الولاية فيها راجعة إلى الانجليز وصولها لطيافة البلاد».

وبعد الفراغ من مشاهدة تلك الزينة يقوم بشراء بعض محتاجاته من الفحم والحبر ونحو ذلك «ثم رجعنا إلى البابور فوصلناه ساعة ست في النهار فلم يزل العمل في المركب بإنزال بعض الركاب وبعض الحمل الذي فيه وطلوع ركاب إلى بمبي».

وأخيراً يفرغ من أمر الرّكاب ويشرع بالرحيل متوجهاً إلى (بمبي) وهناك يعرّج على عدة مراسي قبل الوصول إلى وجهته.

«حتى كمل عمله في ساعة عشر في نهار ذلك اليوم (عشرين محرم) وفيها عزم المركب إلى أن وصل محل من محلات الهند يقال له (كش) بالشين المعجمة بعد ساعة ونصف في صبح يوم السبت فوقف فيه لإنزال

بعض الحمل وأطلع عليه حمل وطلع إليه ركّاب إلى بمبي».

وكان في نية رحَّالتنا أن يشاهد هـذه المدينـة إلاّ أنه: «لم يقـع لنا الخروج إليه لضيق الوقت».

ويمر بهم المركب أثناء سيره على موضع يقال له (دوارك) «أكثر أهله من البـانيان ونحـوه ولم يكن فيه من المسلمـين إلاّ القليل ولم يقف فيـه البابور».

في بومبي

وأخيراً يصل المركب إلى (بومباي) التي يسمِّيها رحالتنا (بومبي) يقول «وفي ساعة خمس ونصف في نهار يوم الأحد ١٢ محرم وصلنا بندر (بومبي) وحين وصلناه وفي مرساه من المراكب الكبار ما ينوف على ثلاثـمائة وأمـا المراكب الصغار والبارية وسفن الشراع فمما يصعب فيه الحصر على الماهر».

وقبل أن يضع رجله على أرض (بومبي) كانت هناك إجراءات لا بد منها يقول: «ولم نزل في البابور يقرب بنا إلى البندر حتى لصق بمحل نزول الركاب إلى الدكة وعقب ذلك نزلنا منه وحملت أثقال جميع الركاب إلى محل يقال له (منبر جودي) فكشف مأمور من طرف ولايتهم كل الأمتعة، وكان معنا فقبضه وأودعه، في محل هناك وأعطانا خطًّا حاصله، متى عزمنا من البندر يسلمه إلينا».

وذلك ما يعرف بالتفتيش وإيداع الأمانات يقول «لأنـه لا يأذنـون لأحد أن يدخل البندر بسلاحه وكل ولايات الإنجليز هكذا».

وبعد أن ينتهي من مراسيم التَّفتيش والحجز يترك لشأنه فيبحث عن أمر السكن وما شاكله «وعقيب ذلك خلَّينا فذهبنا لتحصيل محل ننزل فيه فلم نحصل مكاناً إلاَّ قبيل دخول المغرب» والسبب في ذلك ازدحام هذه المدينة بالسّكان والتجار فالحصول على فندق فيها ليس بالسهل يقول:

«كان البندر فيه عالم كثير حتى استغرقت فيه البيوت والخانات وجميع المحلات» ثم يلقي نظرة على هذا الميناء فيصفه بالعمارة وازدهار التجارة وكثرة المساجد «وهو من أعظم البنادر المشهورة في المساجد المتكاثرة بعضها مبنية من حجارة المرمر وهي في غاية النظافة والحسن».

وكان صاحبنا كعالم ديني كان أول عنايته مشاهدة المآثر الإسلامية وما فيها من مساجد ومزارات مشهورة فهو لا يكاد يتحرر من أمر السكن والاستقرار حتى يسأل عن جامع هذه المدينة يقول: «وفي نهار يوم الإثنين ٢٤ شهر محرم ذهبنا إلى الجامع الكبير وأخبرنا أنه أكبر المساجد في البندر فيه تقام الجمعة وهو في غاية النظام».

وفي الجامع يقف على مكتبة خطية قديمة يعجب بما فيها من نظام وكتب معتنى بها يقول «وفيه كتب خانة كثيرة موقفة على من أراد المطالعة في أي فن من الفنون وكنت أذهب في بعض الأوقات إليها للمطالعة».

ويجد فيها من الكتب المشهورة عند أهل اليمن (أمالي أحمد بن عيسى) وقد وصف طريقة المطالعة بها ونظام الإعارة فقال: «ومما وجدت فيها من المؤلفات المذكورة في اليمن (أمالي أحمد بن عيسى) وعلى هذه الكتب رجل مقيم بحفظها ومن أراد المطالعة أعطاه أي كتاب طلب ثم يرجعه إلى موضعه».

ولا ينسى وهو يرى بعض مظاهر الإسلام في هذا البلد العتيد أن يطلق حسرة على حال المسلمين وما أدَّى إليه بعد تغلب الطوائف الكفرية من فساد في الأخلاق وضعف في الدين يقول:

«خلا أنها لما صارت فيه الولاية للطائفة الكفرية الإنجليزية تداعت فيه أركان الإسلام وجاهر فيه بأنواع المعاصي أهل البغي والآثام وصار فيه أهل الإسلام والكفر سواء».

يقول فلا تفاضل لأحد هنا على أحد إلاَّ بما عنده من مال ولم يعد

للقيم والأخلاق مكانة في هذا البلد:

«لا فضل لأحد على أحد إلاَّ بجمع الصَّفراء والبيضاء وإلاَّ الإنسلاخ إلى التوسع في الدنيا ولقد كثر من هذا المتغلب الكيد لـلإسلام والهضم لجانب المسلمين بسياسة أعملها وشبكات خداع نصبها في كل محل اتصل به واستجلب الرؤساء والأكابر ببذل المال الجزيل» **﴿يريدون ليطفؤا نورَ اللهِ بأفواهِهِمْ واللهُ مُتِمُّ نورِهِ ولو كرِهَ الْكافرون﴾**.[1]

وهذه الصرخة التي يطلقها رحالتنا على حال الإسلام والمسلمين في الهند لا تمنعه من أن يلقي نظرة فاحصة على حياة الهند وعجائبها وغرائبها فهو ممن لا يفوته هذا وقد جبل رحـالتنا عـلى أن يتفقد الأمـور ويصفها بفضول ودهشة وقد وجد الميدان الذي يتحدث عن عجائبـه ولا حرج. ففي الهند ملتقى الغرائب ومجمع الأعاجيب وقد غصت بمختلف الأجناس والنحل فمن عابد بقرة إلى مروض ثعبان إلى آكل نار إلى غير ذلك من المدهشات التي تحير عقل اللبيب ويستنكرها العقل السليم.

وها هي الهند تظهر على رحالتنا بأعاجيبها دفعة واحدة وقد وصف أديان الهند ونحلها فقال: والمسلمون فيه قليل بالنظر إلى غيرهم من الكفار ففيه بعض من أهل السنة وفيه قليل من الإثني عشرية. وفيه من الطائفة الإسماعيلية شرذمة يقال لهم «البهرة» وأما البانيان والإنكليز والفرس فشيء متكـاثر ومنهم من يعبـد الأصنام وهم الإنكليـز ومنهم من يعبد الشمس والبحر وهم الفرس ومنهم من يعبـد الأصنام أيضـاً والبقر وهم البـانيان ومنهم طائفة يعبدون النيران كما ظهر لنا ذلك مدة البقاء في هذا البندر».

تلك نظرة عامة على أديان الهند كما أخبر بها الرحالة، ويقـول إنه سيذكر شيئاً من عجائب الهند وأديانها ليس من باب الإعجاب بها وإنما من باب الاستهزاء والسخرية بعقولهم الضالة تلك.

---

(١) سورة الصف آية ٨:

«وقد رأينا فيه من عجائب أهل الكفر ما لا ينبغي تسويد الأوراق بها إلا من باب الاستهزاء والسخرية».

إن رجلاً كرحالتنا يضع نصب عينيه أمر الدين وتعاليمه النيرة لا يفوته أن يقيس كل شيء بميزانه المستقيم وكيف به وقد التقى وجهاً لوجه بما يناقض الحنفية السمحاء إليك من هذه العجائب التي شاهدها رحالتنا:

«منها أن رجلاً جعل على رأسه نقبة من النحاس ويقود بقرة بيضاء في غاية السمن وبيده ناقوس يضربه وهو يمشي في سكك الأسواق فإذا مرّ به بانيان مسح على ظهر تلك البقرة وقبل يده ووضعها على جبهته ويعطي الذي يقود البقرة دراهم كأنه يتوصل بالبقرة إلى الاعطاء».

هذا حال قسيس البانيان مع بقرته وقد جعلها ذريعة لكسب المال من سخفاء العقول. ويقول إن شأن الهندوس مع البقرة شأن عظيم ومنهم من يجعلها أمام حانوته لتجلب له الرزق حسب زعمهم.

«والبانيان يتخذون البقر السمان المنعمات على أبواب بيعهم فيستلمونها حتى يمرون عليها» وبقي عليه من عجائب الهند أشياء يتجرد الرحالة لمشاهدتها ويتأهب للنزهة راصداً ما يلقاه أمامه.

وفي نهار يوم الإثنين غرة شهر صفر سنة ١٣٢٤ هـ ركبنا على العربية وذهبنا للتمشية إلى بستان «الراين» من البساتين المشهورة في البندر فيه من أنواع السحرة وقد جمعت إليه من أنواع الوحوش والفهود البرية والطيور ونحو ذلك.

ويدخل الحديقة المذكورة وقد جعل فيها نظاماً عجيباً حيث جعل لكل جنس من الحيوان قفص خاص به.

«وقد جعل لكل صف منها مكان مشبوك بالحديد محكم فمما رأيت فيه الفيل والأسود والنمور والسباع والذئاب والظبأ وغير ذلك مما لا نعرفه ولا يوجد بأرضنا».

ويقف عند بعض المظاهر العمرانية فيعجب لكثرة السكك الحديدية التي يسميها البوابير البرية وقد خطت الطرق بقضبانها المنعرجة يقول:

وفي البندر البوابير البرية المتكاثرة وقد أفردت لها مسالك مستقلة تجري فيها على سكة الحديد وهي تحمل الناس والمنقولات والفواكهة والخضروات من محلات الهند كبونه ودلّي وسورات ونحو ذلك مع أنها في غاية من القوة والسرعة في سيرها.

وكان الوقت صيفاً حين وصل رحالتنا بلاد الهند فوجد البلاد تزخر بالأجناس المتنوعة من الفواكه الشهية التي لم يكن لرحالتنا عهد بها من قبل.

«وحين وصلنا بومباي وفيه من الفواكه والعنب والتين والليمون المزوج والموز والحبحب والخيار واليقطين وكثير من الفواكه التي لم تكن بأرضنا» ولاحظ في بومباي كثرة قصب السكر الذي لم يكن له عهد به مما جعله يفرده بالتخصيص فقال: «وأما قصب السكر المسمى القند فشيء كثير».

حديث العودة إلى الوطن

وعلى الرغم من مباهج البلاد ومشاهدها لم ينسَ رحالتنا شأن الأهل وأمر الوطن فلا بد من السعي في إجراء بعض الأعمال بغية التوصل إلى ما يقله إلى بلده، وكان قد استلفت نظره أولاً قوة الحركة التجارية في ذلك البندر فقال:

ورأينا فيه قوة عظيمة وحركات قوية إلى غاية ونهاية وانقطاعنا في هذا المحل من أعظم المحن».

فكانت شدة الحركة والإقبال على وسائل المواصلات سبباً في تأخير

رحالتنا في هذا البلد مع عدم رغبته في ذلك حتى أصبح البحث عن مركب تقله أمراً ليس باليسير.

«لأن البابور الأول سافر منه إلى عدن ولم نشعر به» أما المركب الآخر فيبدو أنه من المراكب الفخمة وقد سأل عن أجرته فقيل له إنه مبلغ كبير لا تحتمله ميزانية رحالتنا.

«وأما الثاني سألنا عن نوله فأخبرنا أنه كثير».

ولم يستمر البحث عن مركب كثيراً فالميناء يزخر بالعديد من المراكب ولا يعدم أن يقف رحالتنا على واحد متوجهة إلى عدن أو الحديدة حتى وقف أخيراً على بغيته المطلوبة».

«فهيأ الله تعالى الركوب في مركب العجم المسمى (نادري)».

فيعزم على الرحلة فيه وما يكاد يأتي «يوم «الربوع» «الأربعاء» عاشر شهر صفر حتى جمعنا أمورنا».

وتحسب عليه أمور أخرى يجب إنجازها من ترخيص بالسفر واستعادة ما تركه سابقاً من أمتعة في رصيف المراكب كما سبق ذكره يقول:

«أخذنا خط الركوب في البابور ثم ذهبنا أولاً لأخذ السلاح فسلمه المأمور الذي أخذه منا إلى عسكري وأمره أن يسلمه إلى قبطان البابور الذي سنركب فيه وأمره أن يسلمه إلينا متى وصلنا عدن».

وغير هذه الإجراءات الإدارية ثم تأتي أمور أخرى تتعلق بسلامة الأبدان وحفظ الصحة فهنا الحجر الصحي الذي كان يسمى في ذلك الوقت بالكرنتينة وهي أجنبية يقول:

«ثم دخلنا الكرنتينة فاعترضنا الطبيب لأنهم لا يأذنون بالسفر إلاَّ لمن كان في صحة فإذا كان به مرض أمروه بالذهاب إلى بيت التداوي إلى أن يصح ثم يسافر».

وكانت العادة في ذلـك الوقت قبـل انتشار التصـوير الفـوتوغـرافي واستعمال البيانات أن الصحيح من الذين دخلوا المستشفى. التي يسميها الرحالة بيت «التداوي» يختم على يده اليسرى عـلامة لسـلامة الشخص المقصود من أي مرض. «ومن وجده الطبيب صحيحاً في الكرنتينة ختم عليه في ظاهر يده اليسرى».

وفيما يتعلق بالمركب نفسه هناك احتياطيات أخرى منها حصر الركاب وعددهم.

وأخيراً يقلع بهم المركب وقد غص بأجناس من الركاب، ويمر على عدة سواحل يمر عليها رحالتنا مرور الكرام.

«شمر في ساعة عشر في نهار الربوع المذكور وركابـه من المسلمين والبانيان والفرس وغيرهم إلى عدن وسواكن وجدّة».

وما زال بهم المركب يمخر البحار على الرغم من بطيء سيره لقدمه حتى يلقي مرساته على ميناء عدن.

«فلم يزل بنا في سيره ليلاً ونهاراً خلا أنه من البوابير القديمة بطيء في سيره وفي صبح يوم الجمعة تاسع عشر شهر صفر ساعة ثلاث وصل بنا مرسى عدن» وفي عدن لنا وقفة أخرى نعرف منها بعض ملامح هذا الميناء العريق في بداية القرن العشرين.

في عدن:

وأخيراً «في صبح يوم الجمعة تاسع عشر من شهر صفر ساعة ثلاث وصل بنا مرسى عدن».

وفي عدن تعترضه صعوبات أخرى مشابهة لتلك التي مـروا بها في الهند، فكلاهما يخضع لنظام واحد هو نظام الاستعمار البريطاني وأخلاقـه

وعاداته، ففي عدن يحصرون لمراعات الكشف الطبي وكان التخوف شديداً من انتشار الأوبئة بين القادمين فلذا تجد بريطانيا تحسب لهم ألف حساب حتى لا تكون هناك عدوى بين جنودها.

يقول رحالتنا «وحين وصل المركب وقف بنا خارجاً من المرسى حتى طلع الطبيب».

وفي المركب يتأكد الطبيب من سلامة الركاب «فلما نظر الركاب وجدهم الجميع في صحة، أذن بدخول المركب إلى المرسى».

وليس هذا كل أمر التفتيش الصحي وإنّما يتبعه احتياط آخر وهو الحجز في الكرنتينة يقول:

«وبعد وصولنا أنزلنا الكرنتينة التي في الجزيرة التي بالقرب من المعلا وقت خلال سفر هذا المركب».

وكان قدم المركب سبباً في تأخير الركب يقول: «وإلا فمن المراكب ما يقطع مسافة ما بين بمبي إلى عدن في خمسة أيام وفي ستة أيام».

في الكرنتينة:

ويكون الحجز الصحي وهو موضع أشبه بالسجن ولكن يسَّر الله لهم من يتعاهدهم بمحتاجتهم من الأكل الضروري.

«وبعد وصولنا الكرنتينة، وصل إلينا رجل بساعيته لتحصيل المحتاجات فما زال يختلف إلينا بالماء الحالي والدقيق والفحم واللحم والخبز، وكل المحتاجات وكنا نسلم إليه أجرته فيما أوصل إلينا من مطالبنا».

ويمكث في الكرنتينة من يوم السبت حتى يوم الأحد ٢٨ من شهر صفر، فيصل إليهم الطبيب ويقوم بتفتيشهم فيجد الجميع في صحة تامة فيأمر بإطلاقهم يقول وسبب هذه الكرنتينة «المرض الكائن في بندر بمبي».

في طريق العودة:

وبعد إطلاقه يخرج رحالتنا حراً طليقاً من عناء الحجز والمحافظة، ويكون همه الأول أمر العودة إلى مسقط رأسه صنعاء، وما يكاد يضع رجله على اليابسة حتى يستأجر سنبوكاً ليقله إلى الجزيرة التي بالقرب من التواهي حيث ينتظره تفتيش آخر «وعقيب أن أطلقنا استأجرنا سنبوكاً أوصلنا إلى جزيرة بالقرب من التواهي وفيها فتشوا أمتعة المكرتنين وصناديقهم».

وبعد الانتهاء من التفتيش يتوجّه إلى التواهي ويمكث فيها ضحى ذلك اليوم حتى يحين وقت العصر فيستأجر عربية ويتوجه إلى مدينة عدن.

«وبعد كمال التفتيش طلعنا التواهي وبقينا فيه للغداء ثم صلينا العصر واستأجرنا عربية ودخلنا بندر عدن».

ومن عدن يتهيأ لأمر العودة إلى صنعاء فيجتمع فيها بمن يعرفه هناك من التجار وغيرهم ثم يشد أمتعته ويدخل:

«وبقينا في عدن لقضاء بعض المحتاجات وللمناظرة ببعض تجار أهل صنعاء والمعروفين عندنا ليكون السفر بمعيتهم».

وما تكاد الشمس تبزغ على وجه البسيطة حتى يكون رحالتنا قد جمع أمره مع صحبه لشأن الرحلة فيذهب عن طريق مدينة الشيخ عثمان فلحج.

«وبعد شروق شمس يوم الأحد خامس شهر ربيع الأول وقع عزمنا من عدن من طريق البر».

ويصل إلى الشيخ عثمان فيمكث فيه إلى وقت صلاة الظهر ثم يتوجه إلى لحج ويصفها بضعف المعيشة وشدة الحر يقول:

«فلما وصلنا الشيخ عثمان بقينا فيه إلى بعد دخول وقت الظهر وثم عزمنا منه فوصلنا لحجا عند دخول وقت المغرب وهو محل من أضعف ما

ّينا شديد الحر ضعيف المعيشة وأما بيوته فمعمورة من الطين وفيه عشش وفيه سوق وفي جوانبه أشجار من النخل وغيرها ومتوليه السلطان أحمد بن فضل العبدلي».

كان ذلك عند بداية القرن العشرين وكانت حالة أكثر البلاد اليمنية على هذه الوتيرة ضعف وحرمان وذلك لتأخر الحضارة وعدم نشاط العمران بعد.

ثم يسرع رحالتنا بالرحيل من هذه البلدة مع قافلة تلازم السير جميعاً، وكأن الطرق غير آمنة والبلاد على وشك مواجهة بين الدولة العثمانية وبريطانية المستعمرة ولا يعطينا الرحالة تفاصيل تذكر عن اجتياز الحدود بين المناطق التي يتولاها العثمانيون في الجهة الشمالية وبين المناطق التي تستعمرها بريطانيا، وقد اتسم رحالتنا في غالب رحلته بالاقتضاب والسرعة في الوصف، وإن كان قد بدت منه فلتات في الوصف الاجتماعي والحضاري فهو شيء يسير.

ويدركهم الليل فيصلون السدة ويبيتون ليلتهم تلك فيها حتى يصبح عليهم الصباح فيشمرون عازمين على مواصلة الخط وتمضي بهم المراحل حتى يأتي عليهم يوم السبت فيكونون قد وصلوا مدينة ذمار وقد قربت المسافة.

«وبعد دخول العشا في ليلة الثلوث رابع عشر من شهر ربيع أول وصلنا السدة وفي نهار يوم السبت أول أيضاً وصلنا مدينة ذمار وبتنا فيها ليلة الأحد».

وفي ذمار يلقي نظرة على المدينة فيهوله تدهور الحال بها وكان قد دخلها قبل هذه المرة سنة ١٣٢١.

«وقد صارت مبعثرة الحال إلى غاية ونهاية بالنظر إلى الأيام السابقة

التي عرفتها حتى وصلت إليها في شهر ربيع أول سنة ١٣٢١ فإني عرفتها معمورة لكثرة الناس وحياة أهلها».

الوصول:

وأخيراً بعد حل وترحال يصل إلى مسقط رأسه مدينة الروضة ويختم رحلته الطويلة التي بدأها من صنعاء ثم منها إلى عدن وموان متعددة حتى وصل إلى العراق ثم انعطف على الهند ثم عدن مرة أخرى وأخيراً صنعاء فبلدته الروضة.

وتنتهي رحلته الظريفة العجيبة وقد صوّر فيها انطباعات وخواطر تميّز بها رحالتنا الغيور على دينه ووطنه وقبل إيداع رحلته نقف عند آخر الجمل التي شملت الوصف حين ألقى عصا الترحال في قريتـه «روضة حـاتم» يقول:

«وفي صبح يوم الأحد بعد شروق الشمس وارتفاعها عزمنا من ذمار وفي نهار يوم الثلوث أحد وعشرين من شهر ربيع أول سنة ١٣٢٤، وذلك بعد دخول وقت العصر وصلنا الروضة المباركة، فصحّ جملة السفر من يوم العزم إلى يوم العود خمسة أشهر واثني عشر يوماً وبهذا بلغنا الوطن وانتهى عنا وعث السفر والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات».

غمضان
في عاصمة الخلافة

إذا ذكر الرحالة في العصر الحديث من أهل اليمن، فلا بد أن يكون على رأسهم الرحالة العلامة محمد بن عقيل المتوفى بمدينة الحديدة سنة ١٣٥٠ هـ وقد جاب العالم المعمور شرقاً وغرباً وزار بلاد الصين واليابان والهند والحجاز ومصر وأوروبا والشام، وكان في رحلاته متطلعاً مستفيداً إلاّ أنه لم يدون ما شاهده.

ويليه في المكانة من حيث التجواب المؤرخ البحاثة عبد الواسع بن يحيى الواسعي المتوفى سنة ١٣٧٩ هـ وكان قد عمّر وساح في أرض الله في وقت يصعب فيه التنقل حتى أنه أدركته الحرب العالمية الأولى وهو بمدينة دمشق الشام، وقد قطع أهله بموته ـ كما أخبرني ابنه العلامة المرحوم أحمد ابن عبد الواسع الواسعي.

وإذا رجعنا إلى الرحلات المدونة في هذه الفترة سنجدها قليلة مطمورة في زوايا النّسيان لا يكاد يفقه أمرها أو يعرف مصيرها. وقد رأيت أن أهل اليمن قد اكتفوا في رحلاتهم بالمشافهة والتحدث بها في أسمارهم، ومن يجالس أولئك المغامرين يجد العجب العجاب مما لاقوه وشاهدوه في تنقلاتهم في مجاهل أفريقيا وطلاسم الهند ووداعة أهل جاوة وجزرها إلى غير ذلك.

وإذا كتب شيء من تلك الرحلات فإنما هو لغرض علمي بحت

يقصد منه التأريخ والعظة وقد رأيت منها مكتوباً رحلة العلامة اليمني شيخ ابن محمد الحبشي المتوفى سنة ١٣٤٨ هـ المعروفة بعنوان «الشاهد المقبول في الرحلة إلى مصر والشام واسطنبول». ورحلة العلامة القاسم بن الحسين أبو طالب المتوفى سنة ١٣٨٠ هـ المسماة «غاية الأشواق في ذكر السفر إلى العراق» وهما رحلتان يغلب عليهما الطابع العلمي والتأريخي، وقد ذكرناهما.

على أن هناك رحلة مغمورة كتبت في مادة الرحلة ذاتها، وهي تحتل الريادة على من سبقها وتلاها من حيث هي «تصوير ومشاهدة لرحلة قام بها صاحبها إلى بلد غريب يختلف عن موطنه من حيث التقدم والعمار.

لعل أهم ما فيها في رأيي أنها رصدت مشاهدات أول يمني في العصر الحديث خارج اليمن صور فيها انطباعاته وانبهاره نحو الصناعة والحضارة والتقدم الذي شهده عصرنا ولم يكن لليمن نصيب منه إلا بالصيت وما يسمع عنه على ألسنة المارة.

تلك رحلة العلامة اليمني محمد بن حسين غمضان المتوفى سنة ١٣٥٨ هـ وقد قام بها إلى استانبول بدافع سياسي دعت إليه الدولة العلية في ذلك الوقت.

غمضان صاحب الرحلة

وقبل أن نصحب العلامة غمضان إلى تركيا نقف قليلاً عند حياته الخاصة فنجده ولد سنة ١٢٧٧ هـ وأخذ العلم عن والده وعن العلامة أحمد بن محمد الكبسي وأحمد بن عبدالله الجنداري وغيرهما. وكان محققاً في الفقه كريم الأخلاق عين في عهد الأتراك في نظارة الأوقاف حتى سنة ١٣٢٥ هـ فقام به خير قيام، وعينه الإمام يحيى حاكماً بقضاء ذمار سنة ١٣٤٣ هـ ثم لواء الحديدة وسنحان وكانت وفاته في ذي القعدة سنة

١٣٥٨ هـ وقد توسع المؤرخ زبارة في ترجمته في كتابه (نزهة النظر) النسخة المخطوطة.

دوافع الرحلة

وكان مبعث رحلته إلى الأستانة استدعاء رسمي من قبل حكومة الخلافة العثمانية مع جماعة من أعيان اليمن ورؤسائها بعد أن ازدادت حركة الإمام يحيى ضد الدولة العثمانية فطلبت من والي اليمن أن يعين بعض الرجال من أهل اليمن للمشاورة معهم في تلك القضية.

فتوجه صاحبنا أولاً من صنعاء عن طريق متنة ومناخة إلى الحديدة للاستعداد للذهاب إلى تركيا عن طريق البحر، يقول غمضان:

«بقينا في صنعاء إلى يوم الجمعة ٥ ربيع آخر وعزمنا من صنعاء يوم السبت ٦ شهر ربيع آخر سنة ١٣٢٥ هـ/١٩٠٧ م مصحوبين بالسلامة وخرج لموادعتنا الأصدقاء والأحباء، وكثير من أعيان صنعاء إلى نقيل عصر ورجعوا ونحن توجهنا حتى وصلنا متنة ريثما تقهوينا فيها وعزمنا إلى مطرح الخميس وأمسينا فيه ليلة الأحد».

وتستمر به المراحل مضطردة إلى أن يصل إلى الحديدة، وفي الحديدة يستقر الركب ويجتمع بواليها، يقول:

«وصلناها في الساعة الأولى من يوم الجمعة ١٣ ربيع الآخر وتلقانا السيد أحمد الشراعي باشا إلى خارج الحديدة وأنزلنا في دائرة البلدية تحت ضيافته».

وقد تجمع في المدينة المذكورة سائر أفراد الوفد الكبير المتوجه إلى الأستانة وقد ذكر رحالتنا جماعة منهم:

عن قضاء حجة السيد صالح المؤيدي والشيخ يحيى الشوعي.

وعن ذمار: السيد حسين راوية والحاج أحمد عبدالله سلامة ومحمد بن يحيى منصور وحسين السوسوة، ومن يريم محمد بن علي المجنحي، ومن رداع صالح بن صالح الطيري وعبدالله عيقان، ومن إب القاضي العلامة عبد الرحمن الحداد وعبدالله يونس وعبدالله عبد الواحد ومصلح الشهاري. ومن تعز أحمد بن علي بن عبد الجبار والقاضي علي بن عبد الكريم المجاهد. ومن العدين مفتيها حسين بن علي، ومن ذي السفال نائبها القاضي محمد الجنيد والشيخ أحمد نعمان ومن أهل الحجرية الشيخ محمد أمين ويقول عنه رحالتنا «ولكنه خاف من البحر ورجع ودخل وكيله بدل اسمه» ومن أهل الحجرية الذين توجهوا مع الركب أيضاً الحاج محمد البحراني والشيخ الجماعي، ومن أهل زبيد وباجل وبيت الفقيه والحديدة - أحمد المساوي ويحيى بن عبدالله وأبو بكر بن عبدالله الأنباري وغيرهم[1].

---

(١) ومن الأعيان الذين شاركوا العلامة غمضان رحلته الأديب المنشد علي بن عبدالله العمراني المتوفى سنة ١٣٢٧ وقد ألف في رحلته هذه أرجوزة أورد بعضاً منها المؤرخ زبارة في أئمة اليمن ج ٢ ص ١٦٢ منها قوله:

حتى إذا جزنا عقود عصفره ... جاءت علينا محنة ومضجرة
لصاحب الإنشاء منشي الرحلة ... سقوطه من فوق ظهر البغلة
وإذ وصلنا كلنا مناخة ... جئنا ببيت جامع الوساخة
وكان صبح الجمعة السعيدة ... نزولنا ببندر الحديدة
فقابل الجميع بالإكرام ... والحسن والتبجيل والإعظام

ثم يصف ركوبهم إلى المركب فيقول:

اسمع أخي ركبة السّنبوك ... شقت على المالك والمملوك

ويصف مقابلتهم للسّلطان واجتماعهم به فيقول:

فأشرقت أنوار سلطان الورى ... وفي الصباح يحمد القوم السرى
جاء البشير قائلاً فيما حكاه ... حضوركم مع المليك للصلاة
وقبل أن صلى صلاة الجمعة ... في صحن عرش تحت تلك القبة
أدار ذاك الطرف كالحسام ... ملتفتاً يشير بالسلام
أولاده مثل البدور أربعه ... أسيافهم من ذهب مرصّعة =

وقد تجمع هؤلاء جميعهم في ميناء الحديدة استعداداً للرحيل.

التوجه إلى الأستانة:

ولم تمضِ سوى أيام قليلة حتى أقلهم المركب البخاري إلى عاصمة الخلافة العثمانية، ولنترك رحالتنا يصف لنا المشهد المثير بعباراته التي تتخللها أحياناً تعابير دارجة:

«وفي الساعة العاشرة من يوم الثلوث ١٧ ربيع الآخر عزمنا من الحديدة وركبنا البحر فأولاً دخلنا السنبوق وتحيرنا فيه من عدم الريح إلى ساعة خمس في الليل، ثم وصلنا البابور (مركب بخاري) المسمى «أزمير» المعد لنا من دار السعادة (استانبول) وأقمنا فيه إلى ساعة خمس في يوم الربوع ١٨ ربيع الآخر سنة ١٣٢٥ هـ».

في الطريق البحري:

أقلع بهم المركب البحري متوجهاً إلى السويس وكانت الرحلة سهلة مواتية ـ يقول رحالتنا: «شمر البابور نحو السويس فوصلنا «السويس» في الساعة الخامسة من ليلة الربوع ٢٥ شهر ربيع الآخر وبقينا في البابور قبال[1] «السويس» إلى الساعة الخامسة من ليلة الجمعة وشمر البابور ودخل بنا الكنار «القنال» حتى وصلنا بورت سعيد».

= ثم رأينا طلعة السلطان ... قد أشرقت بالبشر والإحسان
منتصباً في بابه مسلما ... وبعده أبو الهدى قد ترجما
بقوله نرجعكم دياركم ... مكرمين مثلما إقبالكم
وكلما قدمتم إلينا ... يجري فهذا واجب علينا
وبعد هذا كلنا نهضنا ... وكف سلطان الورى لثمنا

(١) أمام.

وتمر بهم السفينة من ميناء إلى ميناء حتى وصلوا إلى موضع يسمى «شنق» فتمكث السفينة برهة يصلهم فيها «ناس من تجار اليهـود للبيع والشراء» يقول «وبعض الرفقـاء اشتروا منهم قـماشات وأجـواخ[1] ونحو ذلك».

في عاصمة الخلافة «استانبول»:

ما يكاد يصل رحالتنا إلى استانبول التي يسميها «دار السعادة» حتى تبهره أضواء المدينة ببهرجها الحضاري وكأنه دخل عالماً ليس له عهد به من قبل، أسمعه يصف «الفندق» الذي نزلوا فيـه أول الأمر ومـا لاقاه هـو ورفقته من حفاوة:

«بداخله أمكنة ظريفة مزوقة البناء أنيقة ومن الجملة موضع جدارته «جدرانه» وسقفه من الزجاج وداخله أشجار».

وكان قد صدر الأمر إليهم بـالنزول من مـركبهم الكبير إلى آخـر صغير، فيقول:

«ثم أمر بنزولنا من بابور «أزمير» إلى بابور صغير معد لنـا وركبناه حتى وصلنا الأسكلة «المرفى» فتلقونا بالعربيات فركبناها جميعاً ووصلنا إلى دار الضيافة وفرشوها».

يقول وقد جعلوا لكل واحد منهم نزلاً خاصاً به بجميع ما يحتاجه، اسمعه يصف لنا ذلك بعبارته الدارجة:

«وجلعوا لكل واحـد منا يتكي «أي يسـتريح» عـلى حدتـه وجميع محتاجاته من الفراش والدفأ «أي ما يدفأ به» وآلات الشرب كـالقناديـل واللنبات «السراج» وغير ذلك».

---

(١) جمع جوخ معروف.

وقد احتفت بهم الدولة العثمانية وجعلت بين أيديهم جماعة من الخدم يلبون طلباتهم، ذكرهم رحالتنا بتوسع مع ذكر أسمائهم، فلا حاجة إلى الإعادة هنا. .

معالم المدينة ونزهها

وصف لنا رحالتنا كل ما شاهده باندهاش وكأنه طفل صغير بهره ما رآه، فقد زاروا بهم «دار المصوَّرين» ويعني به المتحف العسكري.

«ثم خرجنا منها - يعني جامع آيا صوفية - وعزموا بنا إلى دار المصورين التي فيها صور العسكر الإنجليز الذين أفناهم السلطان محمود رحمه الله فرأيناهم قائمين بذواتهم كأنهم على قيد الحياة باقية صورهم بدهان الزيبق وكل ثلاثة أربعة مشغولين بما كانوا فيه أيام حياتهم بعضهم ماسك «ممسك» السيف وبعضهم بالخناجر، وبعضهم يضرب آلات الملاهي. وبعد أن تفرجنا عليهم وعلى تلك العجائب التي تهبل العقول رجعنا إلى دار الضيافة».

ثم زاروا بهم عدة نزه وفرج ضمنها مدينة استانبول الحافلة من ذلك موضع يسمى «ظلمه يعجه» يقول في وصفه:

«رأينا فيها أنواع العجائب من المفروشات وحتى جميع آلاتها وقناديلها من البلور والفضة ورأينا جميع المصورات في جدرانها مطلية بالذهب من الحيوانات والأوادم (جمع آدمي). . . وبالجملة فإنها مما تبهر العقول حتى من الجملة رأينا في سوحها شذروان (نافورة) يطلع في الهواء مقدار الصومعة وينزل ماؤه كأنه اللؤلؤ بكل الإحكام والانتظام لا ندري كيف صنعوه».

مصانع ومستشفيات

وتكتمل الدهشة ويبلغ التعجب منتهاه عندما يقف رحالتنا على بعض

مستحدثات العصر الحديث من مصانع ومستشفيات وقد أخذهم الجماعة المكلفون بصحبتهم لمشاهدة بعض معالم المدينة الحضارية فهـذا مستشفى الأطفال التي يسميها المؤلف «خستخـانه» يقـول رحالتنـا في الحديث عن زيارتها:

«وفي يوم الثلوث ١٥ جمادى الأولى عزمنا إلى «خستخانة» الأطفال وتلقونا جمع الحكماء والأطباء التي فيها بالترحيب والإكـرام وفرجـونا عـلى آلاتها وعجائبها الغريبة التي من جملتها ماكنة تكشف حقيقة داخل الإنسان بجميع ما في وسطه من العظام والعروق[١] وغيرها، وبعد ذلك استرحنا وأكرمونا بالقهوة والشربات وأعطوا لكل منا قارورة من ماء المعدن».

«ثم يصطحبه المرافقون لمشـاهدة الأسـطول الحربي فيقف غمضـان منبهراً عندما شاهده: ويوم السبت صدرت الإرادة السنية بعزمنا للتفرج على ترسانة يعني البوابير الحربية[٢] فركبنا العـربيات إلى الأسكلة[٣]، ثم ركبنا في السنبوق، حتى وصلنا إلى البابور المسمى «المسعودية» ورأينا داخله المدافع التي تدور بلا مشقة، وهي نحو الأربعين مدفعاً في أعلاه مدفع كبير طوله نحو خمسة أذرع مركب إذا تحرك أدنى حركة دار إلى جميع الجوانب بسهولة حتى أن ولد الشيخ عبد الواحد الصغير حركه بيده فتحرك بـلا مشقة. . . وتفرجنا داخله على المـوسيقى التي تترنم بـالمرش[٤] الحميـدي وكلهم قائمين احتراماً. . . وهذا البابور بغاية الانتظام والمفروشات الأنيقة وجدرانه مزخرفة إلى الغاية حتى أن المطهار[٥] مصنوع قاعته وسقفـه من

(١) الشرايين.
(٢) المراكب البحرية.
(٣) المرفا.
(٤) لفظة أجنبية وهي الموسيقى العسكرية.
(٥) محل قضاء الحاجة.

الزجاج، الذي لا ينكسر في غاية النظام والإحكام وجوانبه من المرمر الأبيض والرخام».

وفي نزهة أخرى يذهب لمشاهدة المصانع الأخرى ويتأمل ما فيها من آلات ومعدات فيقول:

«ودخلنا محل عمل التجارة ورأينا عجائب من سرعة العمل... الذين يعملون السروج على حالهم والذين يعملون آلات عجيل[1] المدافع على حالهم وغير ذلك بالسرعة بالماكينات والمدافع يخدرونها[2] كما يخدر قطب المداعة[3] في السرعة».

وعن مصنع الأقمشة يقول:

«ثم عزمنا إلى «فاسخانه» للتفرج على الفابريقات (المصانع) التي تشتغل الأجواخ والطرابيش وسائر الصنائع وذلك مما يذهل العقول من اتساع تلك الأماكن والفابريقات التي تحرك جميع الدواليب عجلة واحدة إما بالنار أو بالماء».

في الحدائق والمتاحف:

ولا تنتهي مشاهدة الرحالة غمضان عند وصف بعض المعالم المدنية وإنما يمعن الوصف لما رآه من طرائف أخرى في حدائق المدينة ومتاحفها، وها هو يتوجه لمشاهدة أحد البساتين فيقول في وصفه «رأينا بستاناً أنيقاً فيه الأشجار المنتظمة والأنهار لكونها للنظارة فقط أكثرها غير مثمرة، وفيه الأزهار الطيبة وفي وسطه مواجل[4] ماء، وأيضاً داخله أمكنة ظريفة البناء

(١) جمع عجلة عجلات.
(٢) يثقبونها.
(٣) النارجيلة.
(٤) جمع ماجل (بركة ماء صغيرة).

مزوقة أنيقة، ومن الجملة موضع جدارته وسقفه من الزجاج الخ . . .».

أما حديقة الحيوان فله معها وقفة طويلة حدثنا عنها في صفحات كثيرة من ذلك قوله:

«دخلنا فرأينا من جنان الدنيا الأشجار الملتفة بها من كل جانب البرك الكبار ملآنة بالماء، والطيور في الأشجار تسبح الملك الغفار، ورأينا فيه الحيوانات المختلفة الألوان من الجملة النعام والكركن (وحيد القرن) في رأس كل واحد نحو عشرة قرون والكركن وهو يشبه البقر ورأينا الظبا والغنم، وألوان وأشكال وكذلك جمال الحبشة (البخت) التي لها سنامين، ورأينا البقر الكبار في وسط صبل[1] كبير، البقرة لو تذبح يخرج منها ألف رطل لحم، من عظم جثتها، ومحلبها مثل الخيارة الكبرى وبالجملة فإن هذا البستان لا يدخله أحد ولكن إكراماً لنا دخلناه.

ثم يخرج إلى زيارة المتاحف وأغلبها مما يؤرخ لعظمة الدولة العثمانية وأبهتها فمن ذلك زيارته للمتحف المسمى «سلاح خانه» يقول في وصفه:

«وهي دار كبيرة لا بد أن طولها من باب الحكومة حتى صنعاء إلى باب القصر على ثلاث سقوف ورأينا في كل سقف منها جميع أنواع السلاح القديم والجديد من البنادق والدروع ـ والفؤوس وعجائب المصنوعات».

وبعد ذلك يدخل المتحف العثماني ويقف على صور وتماثيل ملوك آل عثمان فيقول:

«فأولاً دخلنا مكاناً فيه جميع المجوهرات من الزمرد والزبرجد، والياقوت والمرجان شيء كثير من الجملة قطعة من زمرد قدر وقيتين ورأينا الكرسي الذي غنمه السلطان مراد من ملك العجم مكلل بالدر والياقوت» الخ . . .

---

(١) اصطبل.

وبعد ذلك يدخل صالة التماثيل ويصف لنا ما شاهده:

«ثم نقلنا إلى مكان وسيع فيه السلاطين آل عثمان من أولهم إلى عند السلطان عبد الحميد وهم قائمون على هيئة الرجل بأقدامه من غير تصوير لأوجاههم ولكن كل واحد منهم لابس ملبوسه التي لا توجد في زماننا، والعجب أنها باقية إلى الآن لا تغيرت ولا عشثت[1] وفي أوساطهم سكاكين ممنطقين بها مرصعة بالماس والدر والياقوت وغيرها» الخ...

وأخيراً يدخل إلى موضع التحف القديمة:

«فيه جميع الأشياء العتيقة حق حمير ومن بعدهم إلى الآن من المصنوعات القديمة والأخيرة كل ما صنعته الأيدي والاختراعات حتى من الجملة رأينا مواقيد[2] وجفين[3] مدر وشميل[4] وغيرها من مصنوعات اليمن ومن آلات الزراعة كالشريم[5] والحلي[6] ونحوهما.. ثم نقلنا إلى طارود[7] طويل فيه صور مختلفة الأجناس تماثيل مركوزة[8] وممدودة من الأحجار البلق والرخام، وغيرها من صور ملوك حمير وملوك الأعاجم والأتراك والإفرنج وحتى رأينا تابوت الإسكندر عليه حجر ممدود كأنه سينطق من إحكام صنعته».

إلى آخر اندهاش الرحالة غمضان، وهي رحلة طريفة تصور لنا انطباع الإنسان اليمني عندما يرى شيئاً غريباً عليه ومن ثم تقبله للجديد والإعجاب به دون تحجر وانكماش.

---

(١) أي أكلها الدود.

(٢) جمع موقد معروف.

(٣) جفان.

(٤) جمع شمله.

(٥) المنجل.

(٦) هو ما يوضع على الثور «النير».

(٧) دهليز.

(٨) منصوبه.

الحبشي: ورحلته الشاهد المقبول في الرحلة إلى مصر والشام واصطنبول

في أوائل القرن الرابع عشر الهجري والخلافة العثمانية في بدايات الاحتضار، كان لعلماء اليمن ولع كبير بزيارة عاصمة الخلافة، وكأنّهم يحسُّون بأنهم يودّعوا آخر أمجاد المسلمين والحضارة الإسلامية وفتوحها المجيدة.

وقد رأينا جماعة من أهل اليمن يحدوهم الشوق إلى تقبيل الأعتاب المقدسة ومشاهدة بقية المجد الغابر، حيث محمد الفاتح والسلاطين العظام من ال عثمان، وكان العلامة شيخ بن محمد الحبشي واحداً من أولئك الذين زاروا الأستانة وانعطفوا قبل زيارتهم لها إلى مصر والشام.

الحبشي صاحب الرحلة

هو الأديب العلامة الفاضل شيخ بن محمد بن حسين بن عبدالله الحبشي، ولد بمدينة تريم من حضرموت سنة ١٢٦٤ وقد أخذ عن العلماء في ذلك الوقت منهم العلامة محسن بن علوي السَّقاف والعلامة عيدروس ابن عمر الحبشي وغيرهما وكان أكثر تلقيه على أخيه علامة حضرموت وصوفيها الحبيب علي بن محمد الحبشي وقد ولع بالتطواف فرحل إلى جاوة سنة ١٢٩٢ ثم عاد إلى وطنه سنة ١٣١٠ واستقر مع أخيه وشاد بيتاً بجانب الرباط الذي أنشأه أخوه وكان من الأفاضل الأجلاء يذكر بالورع

وكثرة العبادة، وكانت وفاته في ٢٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٤٨ وقد رثاه الأديب الكبير علي أحمد باكثير بقصيدة أولها:

نعاه فتى الحي رئبا له ... فبالأمس أزمع ترحاله
قضى نحبه بعد أن قد قضى ... من السؤدد المحض آماله
وما فارق العيش حتى استعا ... ض حياة من الذكر أبقى له

رحلة الشاهد المقبول(١)

هذه الرحلة من أوسع ما وقفت عليه في مجال الرحلات عند أهل اليمن، ويكاد الوحيد الذي تصدَّى لكتابة الرِّحلة عن قصد وعناية من أهل حضرموت فهم على الرغم من كثرة هجراتهم ورحلاتهم، لم نجد منهم من قام بكتابة رحلة مستقلة لنفسه، وإنما هي أخبار شفهية تقال هنا وهناك، وقد اضمحلت بانتهاء أهلها، فكان العلامة شيخ بن محمد الحبشي رائد هذا الفن عند الحضارم، وقد بدأ الرحلة وهو بمكة حيث عزم من مكة إلى جدّة في يوم ٣ شهر صفر سنة ١٣٢٨ فوصل جدة عند الشيخ أحمد بن محفوظ يوم الاثنين يقول «قابلنا كمال المقابلة وأقمنا عنده سبعة أيام» وفي ليلة الأحد ١١ صفر يتوجّه إلى «رابغ» على سنبوق «وأخذنا في البحر أربعة أيام وذلك لعدم هبوب الرياح».

ويصل «رابغ» في اليوم الخامس، وقد نزل عند أحد أهلها، وهو الشيخ حسين بن مبيريك الذي يصفه بالكرم والحماسة «وهو من كبار قبائل حرب من قبيلة يقال لها زبيد، وفيه محبة للإسلام وغيرة على الدّين حتى أنه لا يوجد في القرية التي هو فيها من يبيع الأشياء المنهوبة أو المسروقة من شدة فحصه وتدقيقه».

---

(١) أهدى إلي مخطوطة هذه الرحلة الفريدة ولد المؤلف الأديب علوي بن شيخ الحبشي فجزاه الله خيراً.

وكان عزمه من «رابغ» إلى المدينة المنورة، بعد يومين من وصوله رابغ في يوم الأحد ١٧ صفر «وكان المسير من طريق سطح الغائر، وكانت مدة السّفر ست مراحل من رابغ» ويصل المدينة في يوم السَّبت ٢٣ صفر وكان دخوله عن طريق بئر عروة «فتوضأنا منها، وكان البرد شديداً، ثم توجهنا نمشي الهوينا ودخلنا من باب العنبرية» وفي المدينة يقصد منزل السيد صافي ابن عبد الرحمن الجفري، وكان في ذلك الوقت غائباً فتلقاه ابنه أحمد «وقابلنا كمال المقابلة» ثم يتّجه إلى زيارة القبر الشريف وبعد فراغه من الزيارة يعود إلى بيت مضيفة ويلتقي بجماعة من علماء المدينة وغيرهم منهم الشيخ العلامة يوسف بن إسماعيل النّبهاني والشيخ حسن الإسطواني وغيرهما، وكانت أيامه في المدينة كلها أيام سرور وانشراح يتقلب بين ضيافات واسعة أقامها له أعيان المدينة وبين مذاكرات للعلم وبحث عن الكتب النادرة، وقد وقف في بعض المكتبات على مؤلفات لابن عربي والقشاشي وأجزاء من شرح البخاري للأبيّ وفي يوم اثني عشر ربيع أول أقام المولد النّبوي الذي أنشأه أخوه قطب حضرموت السيد علي بن محمد الحبشي في الحجرة الشريفة وحضره جمع غفير من أهل المدينة وتمضي أيامه في المدينة هكذا حتى يحين الحين لذهابه إلى دمشق.

الرحلة إلى دمشق

أشرق الصّباح وإذا جمع غفير في محطة السكة الحديدية لوداع الرَّحالة، وهنالك وضعوا ما معه من أمتعة «في واحد من الفراقين المعدة» وهيؤوا له أمره ولم يبقَ إلاّ وداعهم وتوجّه القطار الذي يسمّيه «الشهمندوفر» يقول «ثم ودعنا الجميع وركبنا في بابور البر المسمى عندهم في اصطلاحهم بالشهمندوفر. ثم توجه البابور على بركة الله قاصداً إلى دمشق الشام».

وكانت أجرة القطار إلى دمشق «أربع جنيه اسطنبولي، وكان التوجّه ساعة خمس من النهار وقبل صلاة الظهر» وما زال القطار يمشي بهم حتى

وصل إلى «تبوك» يقول «وصلناها على ليلتين من المدينة المنوّرة» وهناك يجد مكتباً للحجر الصحي «الكرنتينة» يقول «ومع عناية الله ولطفه قابلنا أهل (الكرنتينة) كمال المقابلة ومن حسن تدبير الله أن صحبنا صاحب البوسطة الكبيرة، وكانت له كلمة نافذة فصار يراعينا ويأمر بمراعاتنا».

ثم أخذوه ومن معه ووضعوه في خيمة كبيرة، «مع كمال الاحتشام والرئيس الكبير صاحب الكرنتينة هو إسماعيل أفندي أحبّنا حبًّا شديداً، وصار يتردّد علينا ويقضي أغراضنا ويصلّي معنا الجماعة» وفي إحدى الليالي طلب منه أن يقرأ المولد النّبوي «فاجتمع في الخيمة خلق كثير ثم إنا شرعنا في قراءة المولد» ووقع حضور تام، وبعد انتهاء المولد قام وخطب فيهم «دعوناهم إلى الله ووعظناهم».

وهكذا لم يشأ الرحالة أن يترك الفرصة تمر عليه دون أن يدعو هؤلاء الجند إلى الله وحثّهم على ملازمة الفروض المكتوبة إلى غير ذلك وكذا يجب أن يكون المسلم إذا انتقل إلى أي بلد لا أن يجعل الرحلة لمجرد النزهة والاستمتاع.

واصل القطار سيره بعد أن مكث في تبوك خمسة أيام وظل يقطع بهم الفيافي والقفار، حتى وصل إلى محطّة يقال لها (معان) يقول «وهي محطّة كبيرة فيها استعداد كبير للوارد والصّادر من جميع ما يلزم، وقبلها محطّة يقال لها (بطن الغول) وهو محل مرتفع لا تمشي فيه العربيات إلاَّ بآلتين، آلة من أمام وآلة من خلف» وقد لاحظ أثناء سيره في تلك الرّمال تشكلها وتلونها «منها الأحمر ومنها الأخضر، ومنها الأصفر، والأزرق حتى أن بعض العساكر أهل الفطنة والذّكاء النازلين في ذلك المحل يأخذون البطحا الملونة ويضعونها في قوارير بيض بوضع لطيف وتركيب حسن ونقشة حسنة وبعضهم يمثّلون فيها صور أوادم حتى أن أحد العساكر كان فطيناً جدًّا فمثل صورة نيازي المشهور وأنور، وباع القارورة بجنيهين، وبعضهم يكتب آية قرآنية فإذا نظرها الإنسان يتعجب غاية العجب، لأن هذه

البطحا رملاً ناعماً في غاية النعومة والحكمة الغريبة هي وضع كل لون على حدة من غير اختلاط بالآخر».

ثم يصل إلى محطة أخرى هي عمان، وفي عمان استوقفته الخضرة وجنس من الشراكسة استغرب وجودهم في تلك البلاد يقول «وعمان هذه هي محطّة كبيرة ومن هنا يبتدي ظهور الأشجار والزروع المختلفة وفيها جملة من الشراكسة المهاجرين من أرض الروس يزيدون على ألفين يزرعون أنواع الحبوب وغيرها من الخضروات لأن هذه الأرض ذات مياه وتربة طيبة، وهم أهل فلاحة فاستحسنوا الجلوس في تلك الأرض وهم أناس مشهورون بالشجاعة والحماسة ولا يمشون إلاّ متسلحين حتى أن البادية لا تحوم حولهم لما يعلمون بأسهم وأكثر حرثهم وشقهم الأرض بالآلة المعروفة على الخيل بدل البقر مع أن البقر موجودة».

وأخيراً يصل إلى دمشق في يوم الأربعا ثلاث خلت من صفر يقول «نزلنا من بابور البر وجمعنا ما معنا من أثاث ووضعناه في عربية يجرها بغل وكراها ريال مجيدي ونصف» وهنالك في دمشق وجد من يستقبله من سماسرة الفنادق يقول «ووجدنا أهل «اللوكندات» وهي مواضع نزول الغربا معارضين «مستقبلين» المسافرين فاجتمعنا مع واحد منهم فقال أنا مرسول من لوكندة مكة المكرمة رئيسها الحاجي توفيق فقلنا له النزول يكون عندكم» ثم بعث أمتعته إلى الفندق المذكور مع العربية وخادمين أما هو فاستقل الترام يقول في وصفه:

«أما نحن مشينا خطوات مع ذلك الرّسول حتى وصلنا محل التراموي وهي عربيات تمشي على سلك الكهربا في غاية الحسن والتنظيم فركبنا فيها وقد جنّ الليل وكأنه لا ليل فيها لما فيها من الأنوار الكهربائية ونول الشخص «بشلك[1]» عن ربع ريال فرانصة» وفي الفندق يستقبله صاحبه «وقابلنا كمال المقابلة وأنزلنا أحسن منزل ووصلت العربيات التي فيها

(١) من العملة معناها ذو خمسة انظر «النقود الاسلامية» للمارند رانى ص ١١٦

الأثاث» ويصف الفندق والمنزل الذي جلس فيه: «واللوكندة المذكورة هي في غاية التنظيم والحسن فالمنزل الذي جلسنا فيه في غاية من النظافة مفروش بالقطف «البسط» الجميلة وفيه ثلاث ناموسيات «سرر» في غاية الحسن وفيه مشرق نور الكهربا وطاقات المنزل كلها مصفّحة بالقزاز «الزجاج» تحصّنا من البرد، وكان موضع جلوسنا في ثاني قصر يطل على الجادة المسلوكة ويمرّون فيها العدد الكثير من الناس ما بين راكب وماش. واللوكندة المذكورة كبيرة في غاية من البناء المحكم وأرضها مفروشة بالرّخام الملون، وفيها فسحة واسعة جدًّا في وسطها وفي تلك الفسحة بحيرة ماء صاف فيها شاذروان ينفر «ينثر» الماء في قصبة وعلى حافات البحيرة أنواع الأزهار» وبعد هذا الوصف المستفيض يمكث في الفندق يومين ثم يتسامع به علماء الشام فيصلون إليه منهم الشيخ عبدالله الكزبري والشيخ عبدالله السفر جلاني والشيخ أبو السعود والشيخ عبد الجليل الدرّا وطلبوا منه سماع الحديث المسلسل بالأولية.

وفي صباح الخميس يخرج قاصداً زيارة الجامع الأموي «فوصلنا المسجد وزرنا نبي الله يحيى بالجامع الأموي، وصلَّينا الظهر، وهو جامع عظيم متسع، نصفه مسقوف على أعمدة حجر كل عمود حجرة واحدة وفوق كل عمودين عقد من الحجارة وفوق تلك الأعمدة والعقود عقود أخرى وأعمدة ولكنها أقل من السّفلى في الطول ثم ما فوق ما ذكر من الأعمدة والعقود السقوف من الخشب الأبيض، وهي مضروبة بالرّنق «الطلا» الملوَّن فزادها حسناً».

وبعد خروجه من الجامع الأموي يجد باعة الكتب تحت فنائه «فمررنا على رجل يبيع الكتب منها القلم «المخطوطة» ومنها الطّابع «المطبوعة» فأول ما نظرناه شرح البخاري للشيخ العجلوني».

ويشهد مجلس الشيخ بدر الدين محدث الشام في عصره «وبعد صلاة الجمعة جلسنا لحضور درس الشيخ بدر الدين وهو درس عظيم حافل فيه

ما يزيد على ثلثمئة نفر وهو في الحديث يأتي بالحديث سنداً ومتناً ثم يتكلّم على رجال السند ثم يتكلّم على متن الحديث».

وبعد ذلك تكثر زياراته لعلماء الشام وصوفيتها فيلتقي بالشيخ محمد المبارك في منزله الذي يجده مكتضًا بالزوّار، وقد قابله الشيخ كمال المقابلة ثم يزور الشيخ عبد الجليل الدّرا مع جمع من المريدين وقد استأذنه الشيخ المذكور في «إدخال ابنه وابنته عليّ كي يقرأ الفاتحة فدخلا والبنت في غاية الذكاء والفطنة فقرأت الفاتحة ثم قال الأب فضلاً منكم أسمعوها حديث الأولية فأسمعتها ثم قال أتأذن لها أن تسمعك الحديث فقال لها أبوها بسم الله فنطقت البنت بأعذب منطق وأفصح لفظ وقالت: حدّثني شيخي فلان عن شيخه فلان إلى تمام الحديث. فتعجبت غاية العجب من ذكائها ثم قال الأب أتأذن لهما أن يسمعاك المحاورة الأصمعية فقاما وسط المجلس وتحاورا وتجادلا على أنها أعرابية وأخوها أعرابي وسمعنا منهما ما يبهر العقول من منظوم ومنثور فبارك الله فيهما وأنبتهما نباتاً حسناً ومع ذلك يحفظون القرآن».

ومن المشاهد التي زارها في دمشق المدرسة الظاهرية «وهي مدرسة عظيمة فيها من طلبة العلم ما ينيف على مئتين نفر وكلهم شبّان والمعلم والمدرس فيها هو الشيخ العلامة أبو السعود وهو في أعلا المدرسة في محال منظمة ومحلة لنفسه فقابلنا كمال المقابلة وأجلسنا على الكراسي وسقانا القهوة، ثم إنه نادى على بعض التلامذة الأذكيا فقال اخطب ورحب بالسادة فخطب خطبة بليغة ثم قال له قل الأبيات فانتدب الصّبي المذكور واستدار في محل آخر وقال:

بني الحبشي أهلاً ثم أهلاً ... بكم نلنا سنى الحظ الجزيل
وقد طبتم لعمري في كمال ... وطيب الفرع من طيب الأصول
وكيف وأنتم غرر البهايا ... وكيف وأنتم آل الرسول
عليكم من إله الخلق أزكى ... صلاة عرفها حسن القبول»

وبعد هذا الاستقبال الحار والحفاوة البالغة يتجه إلى أسفل المدرسة حيث المكتبة الظاهـرية ويجـد فيها من نفـائس المخطوطـات شرح التّنبيه للزنكلوني والنهاية وكتاب الخادم للزركشي، ثم يعود إلى منزله في الفندق وفي المساء يأتي إليه جماعة من الأفاضل «للسَّمر معنا منهم الشيخ عبدالله الكزبري والشيخ أحمد نجيب كيوان».

وفي يوم من الأيام يقوم بزيارة للمدرسة الريحانية التي يرأسها صديقه الشيخ عبد الجليل الدرا، ويقابله تلامذة المدرسة بالترحيب يقول «دخلنا إلى محل واسع وفيه التلامذة مستديرين على كراسي وإلى جانب هذا الموضع بحيرة ماء يتوضؤون منها للصلاة، فاستقبلنا التلاميذ وقبّلوا أيدينا بأمره، وهم نحو المئة تلميذاً» ثم يقوم ابنه السابق ذكره ويلقي قصيدة في الترحيب برحالتنا أولها:

بـقـدومـك يـا سـامي المـجـد تـمّ الإيـنـاس لـذى الـوجـد

يقول «فلما فرغ من الإنشاد ناولني الورقة التي فيها الأبيات فإذا في أسفلها مكتوب خادمكم مستمد الـدعوات الخـيرية أحمـد شفيق بن عبد الجليل الدّرا ثم تكلمت معهم، وأثنيت عليهم بالثناء الحسن».

وفي يوم الأربعاء لتسع خلت من ربيع أول يتـوجّه إلى الصـالحية لزيارة الشيخ محيى الدين ابن عربي مع جمع كبير من علماء البلاد.

وما زال أهل دمشق يحتفلون برحالتنا حتى أن أحدهم وهو الشيخ عبد القادر الخطيب عمل ضيافة كبيرة بمناسبة قدومه «وهو من بيت علم وقد توفّي والده قريباً» وطلب من الرّحالة الحضور وحضر جماعة من علماء دمشق منهم الشيخ المبارك وأبو الخير الموقع يقول «ثم إني سألت صاحب البيت عن والـده واشتهاره بـالعلم فأخـبرني بصفات والـده واجتهاده في العلم، وكان جميع الكتب التي يقرؤها يكتبها بيده حتى أخبرني أنه كتب

بيده مئة وثلاثين مجلداً في فنون متعدّدة ثم أخذني إلى خزانة كانت هناك وأراني الكتب».

وهكذا كان احتفال العلماء بدمشق برحالتنا حتى جاء وقت الرحلة والتوجه إلى بيروت وقبل مغادرته البلد بيوم طلب منه الإجازة الشيخ محمد ابن محمد المبارك فكتبها له بعد امتناع «ثم إنه عرض علي كتبه وقال الذي تريده من كتبي خذه بفرح قلب فأخذت الذي لم يكن عندي منه مثل شرح الجامع الصغير وكتاب العروس لمحمد وفا وغيرها» وقبل ذلك كان قد استضافه الشيخ نجيب كيوان «فحضرنا عنده بعد صلاة المغرب وحضر جمع من أهل الشام وتناولنا طعام العشاء ثم جلسنا في موضع لطيف مفروشٍ بأنواع المفروشات الجميلة فقابلني صاحب المجلس، وجلس أمامي وقد قيل إنه يحفظ القرآن بالسبع فطلبت منه أن يقرأ شيئاً من القرآن الكريم فقرأ سورة النجم بصوت حسن فطربنا غاية الطّرب، والرجل المذكور ذو تجارة واسعة ولكن مع الورع التام وللتّجار عمائم معروفة يتميّزون بها عن غيرهم».

ثم يزور محلاً يقال له المزّة وآخر يقال له الرّبوة «وهو محل مرتفع جدًّا وهو من البلد على مسافة ساعة فلكية، ونحن راكبون على عربية، ومن حين خرجنا من البلد ونحن نمشي بين أنهار وأشجار مثمرة بأنواع الأثمار».

وبعد ذلك يتوجّه لزيارة المشاهد بدمشق فيزور قبر الشيخ أبي البيان ابن رسلان ويزور قبر بلال، وقبر بنت سيدنا أبي بكر وعبدالله بن جعفر الصادق ثم فاطمة بنت الحسين وعبدالله بن مكتوم وغيرهم كثير. وفي يوم آخر يتوجه لزيارة دار الحديث حيث العلامة الشيخ محمد بن بدر الدين «فطلعنا إلى محله واستأذنا عليه فأذن لنا فوجدناه منفرداً لنفسه فقابلنا ورحّب بنا ثم سألنا عن أوطاننا فأخبرناه ثم أخذ يتكلم في أمر المسلمين ويستدل بأحاديث وهو عالم فاضل».

وحضر في أحد الأيام زيارة المولوية بزاويتهم «فدخلنا الزاوية فوجدناها زاوية عظيمة وفيها منازل متعدّدة فقابلنا شيخ الطريقة، وهو لابس عمامة خضراء فأجلسنا في محل معد للزّائرين ثم إنها حضرت صلاة الظهر فصلّينا ثم قاموا جميعاً إلى محل آخر متّسع وعليه شباك مستدير على محل مصفّح بألواح الخشب وهو في غاية من النظافة ومن حول الشباك من خارج جميع الذين ينظرون ومن داخل الشباك وهم أهل الطَّريقة، وعددهم عشرون وشيخهم جالس على حافة مستديرة ثم إن الشيخ قام ودار ثلاث دورات ثم جلس ثم قام عشرة منهم فخلعوا الثياب العليا فظهر ثوب أبيض وهو واسع من أسفل ومخصّر من الوسط فصاروا العشرة يدورون بدورة قوية فأسفل الثوب أبيض يفترش مع الإستدارة حتى يصير كالقبّة الصغيرة وعلى رؤوسهم كوافي طول الواحدة ذراع وهي من لبد وفي ذلك المحل محل مرتفع وفيه المنشدون بالطبل والناي ثم يقف العشرة وتقوم عشرة أخرى وهكذا» إلى آخر، وصف حفلهم ذلك يقول «ولهم إنشاد لطيف وسماع على النّاي والطبل والأصوات حسنة جدًّا ولهم أسلوب غريب في استدارتهم».

وصف دمشق

وقبل مغادرة دمشق والتوجّه إلى بيروت كما أسلفنا أراد أن يعطينا وصفاً لدمشق أجمله في صفحة كاملة من رحلته ننقله كما هو يقول:

«هي بلدة عظيمة واسعة ويقال لها جلق وتحتوي على ثلثمئة ألف نفس ما بين مسلمين ومسيحيين والغالب أن المسلمين أكثر، وفيها ألف جامع وزيادة ويقولون للمسجد جامع سواء كان يصلّى فيه الجمعة أم لا وفيها نحو خمسين مدرسة ابتدائية، ونهائية للمتعلمين وجامعها الكبير هو الجامع الأموي والبلدة المذكورة واسعة الأطراف كثيرة الأسواق وأسواقها مستطيلة والحوانيت عن اليمين والشّمال، وكل صنف من البضائع له سوق

معين وفيها الصنّاع خلق كثير في كل حرفة مثل النّجارة والخياطة وأسواق الحبوب مثل القمح والذرة والأرز وباقي أصناف الحبوب وفيها المأكولات المطبوخة ففي طرف كل سوق منها دكاكين وأثمان المطبوخات في غاية الرّخص وهي منوعة أشكالاً أشكالاً، وهي كثيرة البرد الشديد وله استعداد في منازلهم لسدّ الطاقات بالقزاز المتين ويذبح في كل يوم من الغنم ثلاثة آلاف من غير البقر والجمال، وغنمها الضّأن في غاية السّمن لأن المراعي خصبة، وقد يوجد فيها الماعز والبقر فيها كثير واللّبن الذي فيها غالبه من البقر، وهو رخيص جدًّا حتى أنه من كثرته برد في البرد في مزاود من جلود محمولة على الجمال وفيها من أنواع الخضروات والبقول شيء كثير، مثل بامية وملوخية ودبا أنواع وخس وباذنجان. وتتخلل تلك البلدة أنهار سبعة وبعضها يجري تحت البيوت، وتمر على مواضع بيت الخلا فتراها في غاية النَّظافة والأنهار التي يشرب منها الماء تجري على جوانب البيوت في قصب من حديد ومنها ما ينسكب في البحيرات الواقعة في وسط البيوت وفي كل بحيرة شاذروان يرتفع في الجو قدر ذراعين، وأكثر ثم يفترش أعلا جوانب البحيرة ويسقي أواني الأشجار المستديرة بها بهيئة لطيفة ومنظر حسن، ومنها ما يتفرق في الحنفيات الكائنة على حافات الطرق يشرب منها الذّاهب والآيب وتحتوي على خمسين حماماً في غاية الحسن، وقد دخلت بعضها وفي أطراف البلد بساتين متعدّدة في غاية من التنظيم وفيها من أشجار الفواكه شيء كثير وقد ابتدأت في إظهار أثمارها وهي الخوخ والمشمش والتفاح والتِّين والعنب والسفرجل والأترج والأجاص والتوت والكمثري ومن خلف البساتين الجبال المتعدّدة المخضرة بأنواع النّبات ويعلوها الثلج مثل العهن الأبيض المنفوش ونظرناه، ويقال إنهم أيام الشتاء يخزنونه في مغارات فإذا دخل وقت الصّيف يحملونه إلى داخل دمشق، ويقال إنه كل يوم تدخل إلى دمشق ثلاثمئة حمل يسعرونه فيها».

وهذا الوصف يدل على عناية تامة من قبل رحالتنا بمدينة دمشق، إلاّ

أن أيامه فيها كانت قليلة وقد آثر مغادرتها والتوجه إلى سائر البلاد الشامية الأخرى فبدأ بزيارة بعلبك.

في بعلبك

كان عزم الرحالة من دمشق في يوم السبت عشرين ربيع ثاني وما كاد أصحابه يعلمون بتوجهه حتى هرعوا إلى محطة الحديد يقول «فوجدنا جملة من الأحباب قد سبقونا للوداع فودعناهم وهم ودّعونا وكل منّا في غاية الحزن على فراق صاحبه فلقد صارت بيننا وبينهم من المحبة ما يقضي بأنا أهل وطن واحد بل بيت واحد فجزاهم الله خيراً».

ويسير القطار حين يصل إلى بعلبك وهنالك ينزل الفندق وقد طلب منه أهل بعلبك الانتقال إلى منازلهم «فاعتذرنا بأنا على سفر» ومما شاهده في بعلبك «البيت الكبير القديم المشهور المحتوي على العجائب» وأظنه المتحف الذي يضم آثار المتقدمين.

يقول «توجهنا مع الشيخ حسن الأسطواني حتى وصلنا إلى محل الاستئذان فطلبنا منهم الدخول إلى المحل المذكور فأذنوا لنا وجعلوا معنا معرِّفاً من أصحابهم ولم يأخذوا منا ما يعتاد أخذه من الدّاخلين وهو مجيدي فتقدم ذلك الرجل المعرف أمامنا ففتح باب البيت فدخلنا فأول ما سألناه عن تاريخ بناء ذلك البيت فقال وجد تاريخه أنه قبل الهجرة بألفين سنة وكان من بناء نبي الله سليمان» ثم يصف ما شاهده من غرائب آثار المتقدمين منها «التماثيل العظيمة وصور الحيوانات أشكال وألوان غريبة ونظرنا إلى جدران البيت المذكور فإذا هو مبني بأحجار عظيمة طول الحجر نحو عشرة أذرع» إلى آخر وصفه لتلك التحف وهي معروفة عند من زارها.

في حمص

وفي الصباح يتوجّه إلى سكة الحديد ذاهباً إلى حمص وذلك في يوم الاثنين ٢٢ ربيع ثاني يقول «دخلنا حمص بعد صلاة الظهر ونزلنا في اللوكندا المسماة «المنظر الجميل» فلما جلسنا قدر ساعتين وصل إلينا العمدة الأفندي عبدالله بن مفتاح الكحالة من تجار حمص، وهو حسن الأخلاق لطيف الذات فاستدعانا إلى منزله ومعه رجل من أصحابه فرحّب بنا وقال رجل مثلكم لا يصلح له الجلوس في هذا المحل فالأولى أن تنتقلوا إلى بيتي وكلّف علينا في ذلك فما وسعنا إلاّ مساعدته» وينتقل إلى بيت المذكور فيجده «محلاً عظيماً منظماً فأنزلنا من ذلك منزلاً لطيفاً كامل الأواني والفرش في غاية الحسن وبتنا عنده تلك الليلة».

وفي عشية اليوم التالي خرج مع مضيفه الشيخ عبدالله كحالة يطوف بحمص «راكبين عربية على خيلين حتى انتهينا إلى محل لطيف فوق رصيف نهر العاصي فجلسنا على ضفاف النّهر نتنزّه على النّهر الجاري والأشجار المثمرة على حافته حتى دخل المغرب».

ويصف نهر العاصي وحمص فيقول «نهر العاصي هو نهر عظيم عرضه نحو خمسة عشرة ذراع مع قوة في جريه وعذوبة في مائه ونهر العاصي أصله من عيون في محل يقال له الهرمل من أطراف جبل لبنان ويمر على محل يقال له المياس حوله أشجار ملتفة في غاية الحسن والنظارة وبلدة حمص هي دون الشام «دمشق» في المساجد وأهلها أقل وفوق حماة في الكبر فيها أسواق عجيبة وفيها من الألبان شيء كثير وما ذلك إلا لكثرة بقرها وغنمها ومواشيها غالبها في غاية من السمن واللّبن يدخل به أهل البر على جمال في مزاود من جلود بكثرة بل يظنه الإنسان أنه ماء، وفيه التجارة العظيمة وهم يحوكون الأقمشة الحسنة من الحرير أشكالاً وألواناً منها «الدرباموج» ومنها «الشامي أبو قلم» من حرير وقطن ويحوكون فيها القطف «البسط» والحنابل والمناشف المخلوط قطنها بالحرير».

وفي مساء ذلك اليوم يستضيفه أحدهم وهو محمد أفندي علي أبو عمر الكحالة وينزل عنده في بيت كبير بهر بصره بجماله وضخامته يقول «وجدناها داراً حسنة البناء وفيها محل متسع في وسطه وأرضه وجدرانه مفروشة بالرخام الملوّن وفي قلب ذلك المحل بحيرة ماء في وسطها شاذروان ينثر الماء يميناً وشمالاً وعلى حافة البحيرة أشجار في غاية الحسن مزروعة في أواني من صين ومنها شجرة تسمى شجرة الهوى أغصانها مثل الحرير وأشجار أخر جميلة ذوات ريح طيبة».

ثم يحين تناول الطعام فيصف عادتهم في الأكل ونوعه يقول «وضعت لنا كراسي على حافة البحيرة ننظر ماءها ونستنشق من تلك الأزهار الذكيّة العرف حتى حضر الطَّعام فقمنا نتناول الطَّعام وهو «كرضل» على عادة تلك الجهات يوضع صحن بعد صحن ثم لما انتهى الطعام دعينا إلى محل آخر في غاية من الحسن مفروشاً بالمفروشات الحسنة وأديرت علينا فناجين القهوة وكؤوس الشاهي».

الوصول إلى بيروت

في الصباح انتظر «البابور البري» الواصل من حماة، ثم توجّه فيه إلى بيروت وكانت أجرة السيارة مجيدين يقول «وشق البابور جبل لبنان المشهور بصفاء الجو وطيب الهواء وعذوبة الماء والقرى المسكونة في اليمين والشمال منها زحلة وعاليه وصوفر» ويصل إلى بيروت نصف الليل وينزل فندق «المنظر الجميل» «فلما أصبح الصباح سلمنا لصاحبها ما هوله من الكرا وهو على النَّفر ربع ريال» ثم ركب عربية قاصداً منزل الشيخ عبد الرحمن الحوت «فوصلنا إليه فقرعنا الباب فخرج إلينا الشيخ وقابلنا كمال المقابلة وأكرم نزلنا» وفي بيروت يلتقي بجماعة من العلماء منهم الشيخ محمد خرما والشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني، وكان مضيفه المذكور الشيخ عبد الرحمن الحوت من أهل الورع والصّلاح «وهو شافعي المذهب مسموع الكلمة».

وفي اليوم الرَّابع يلقي نظرة على بيروت ويخرج بقصد النزهة والتفرج «توجهنا إلى خارج البلد راكبين الترامووي وفي صحبتنا الشيخ محمد خرما إلى محل يقال له «الحرش» وهو محل متّسع وفيه أشجار الصنوبر، ألوف عديدة قريبة من بعضها البعض، وهي طويلة طول الشجرة نحو عشرة أذرع وورقها ورأسها كالمظلة المستديرة وهي قوية الأغصان وقد يوضع فوق الشجرة منها خشب مرتص قد يكون كالسَّرير للجلوس ولها ثمر عجيب أخضر حجمه وشكله مثل القلب اللَّحمي فلهذا ترى بعض الواصفين لشكل القلب يقول هو صنوبري الشكل والشجر المذكور هو من ناحية بيروت الجنوبية ومن ناحيتها الشرقية جنينات متعدّدة فيها من الأشجار ذوات الأثمار والأزهار شيء كثير، ويتخللها جداول تجري بماء معين وفي مواضع منها بحيرات فيها شاذروان يرتفع ماؤها في الجو بأحسن منظر».

في اللاذقية

بعد زيارته بيروت رأى التوجه إلى اللاّذقية «سألنا عن البابور الذي يتوجَّه إلى اللاّذقية، فأخبرنا عنه أنه يتوجَّه الساعة ثمان عربي في ذلك اليوم فتوجَّهنا إلى محل الوكالة وبمعيتنا فضيلة العالم الفاضل الشيخ عبد الرحمن الحوت والشيخ محمد الخرما فنولنا في الترامووي محل نمور «ا» وطلعنا في حفظ الله وسلامه» وفي أثناء سيره مرّ البابور على طرابلس الشام «ووقف بها فنزلنا إليها، وكان يوم الجمعة، فقصدنا الجامع وصلّينا الجمعة واجتمعنا بالعلامة الفاضل عبد الفتاح الزّعبي الكيلاني» سمع منه حديث الأولية وكذا اجتمع بالعلامة عبد الرحمن بن عبد الرزاق الرَّافعي وأعطاه شيئاً من مصنفاته. ثم سار بهم البابور «السيارة» إلى اللاّذقية وأخذ يقطع بهم الطريق اللّيل كله حتى أصبح الصَّباح «وإذا باللاذقية أمام البابور معترضة في البر فوصل البابور فنزلنا» وهنا يجتمع بالشيخ سهل بن فضل ويحل عنده ضيفاً، وفي اللاذقية يتقلّب بين ضيافات وزيارات لصلحاء البلاد حتى يأتي

«يوم الربوع ١٦ جمادى الأولى توجَّهنا من اللاَّذقية في بابور «الإيطاليا» إلى بيروت» ويعود إلى بيروت مرة أخرى وينزل في فندق «قصر البحر» ويجلس فيه ثلاثة أيام ثم يستدعيه الشيخ رشيد جبري أحد التّجار ويطلب منه التّوجه إلى مصنعه «وفيه الكيرخانات «المكنات» التي تصلِّح الكنافة والمعكرونة والشعيرية والحلوى الطحينية والخشاف المقطع من الزبيب وغير ذلك وأطعمنا من جميع المذكورات».

التوجّه إلى يافا

تثير رحلة علامتنا الحبشي مشاعراً فياضة من الحزن والأسى حيث تذكرنا بفلسطين المسلوبة أعادها الله إلى أحضان المسلمين وكان الرّحالة قد زارها قبل وجود الاحتلال اليهودي، ودخل يافا فبيت المقدس متوجهاً إليهما من بيروت يقول «في اليوم الثاني (١٧ جمادى الأولى) توجهنا في البابور الفرنصاوي إلى بلدة يافا وأخذنا ليلة في الطريق وصباحاً وصلنا إليها وتوجّهنا في سكة الحديدة قاصدين زيارة بيت المقدس وأخذ نحو ست ساعات إلى بيت المقدس وفي صحبتنا المزور المعروف الشيخ عبدالله الأنصاري» وفي بيت المقدس ينزل بفندق الأروام «كل ليلة بمجيدي ونصف».

زيارة بيت المقدس

ما كاد يستقر في الفندق المذكور حتى يتوجه إلى المسجد الأقصى وهناك يحدثنا عن زيارته ومشاهده يقول «قصدنا قبّة الصخرة، ودخلنا تحت الصَّخرة في موضع قدمه ﷺ وصلينا ركعتين ورأينا الصخرة مرتفعة ومن تحتها جدرات وإلى جانب المدرج محلّ النّزول عمود رخام صغير عن يمين الدَّاخل متصل بالصّخرة فركعنا ودعونا الله في المحل الذي عرج منه النّبي ﷺ ثم زرنا محراب سيدنا داؤد وسيدنا سليمان ثم خرجنا من تحت الصخرة

وقبّتها إلى ناحية المسجد المعمور الذي يقال له المسجد الأقصى فتوضأنا من بحيرة وسط المسجد وقصدنا المسجد فوجدناه في غاية من الحسن وعلى منبره مكتوب فرغ من صلاحه سنة ٥٦٤ عمارة الملك نور الدين ثم توجّهنا إلى محل مغلق فتح لنا فنزلنا في درج تحت المسجد الأعلا فرأينا من أسفل مثل الأعلا وهو مبني بأحجار عظيمة، فمشينا في ذلك المحل بين أعمدة مبنية بناءً، حتى وصلنا محل وفيه مهد من حجر منحوت قيل لنا إنه مهد سيدنا عيسى في حال التربية ولم ننظر من هذا المسجد الأسفل إلا القليل لأنه متباعد ومتسع ثم خرجنا من ذلك المحل وتوجَّهنا إلى البيعة الكبرى التي فيها ضريح سيدتنا مريم عليها السلام فوجدناه موضع قديم البناء له باب واحد فنزلنا نحو قصرين في الأرض ومن أسفل محل متسع مزخرف وفيه من المصابيح مئين مسرَّجة، وفيه الشموع الكبيرة وشمعدانات ذهبيّة وفيه القسوس والرهبان وبسبب كثرة المصابيح كأنّ المحل في رابعة النّهار فلما توسّطنا المحل رأينا الرهبان والقسوس قائمين نحو السّيدة مريم ورأينا النساء ساجدات نحو الراهب الكبير وهم يرفعون أصواتهم ويضربون بالصنج فأجلسنا المدير لهذا المحل على كراسي وقال: اصبروا حتى يخرج الرهبان من موضع الزيارة فنسمعهم يتكلّمون بأصوات مختلفة لباسهم السَّواد ذكوراً وإناثاً فانتظرنا حتى فرغوا فأخذوا إلى ناحية ثم دخلنا إلى محل مزخرف بالذّهب والفضّة والمباخر فيها العنبر وأصناف البخور فوجدنا ضريح السيّدة مريم إلى جانب الجدار وعليه من السَّتائر وإلى جانبه الشموع فدخلنا فقابلنا الضريح فوجدنا صورة سيدتنا مريم وسيدنا عيسى فوق القبر في الجدار، ثم أقبل إلينا القسوس والرّهبان ينظرون إلينا ماذا نفعل ثم أني قمت أمام القبر وزرت بالزّيارة المعروفة فوقعت زيارة عظيمة ثم أن القسوس عند رفع أيدينا بالدّعا رفعوا أيديهم وأخرجوا القلانس من على رؤسهم حتى انتهينا فتعجّبوا منا ثم رفعوا أيديهم بالتّسليم وخرجنا من ذلك المحل».

وفي أثناء مروره يقف عند «المدرسة» بناء كبير مكتوب عليه بخط فصيح «بسم الله الرحمن الرحيم هذه المدرسة المباركة وقفها مولانا صلاح الدنيا والدّين سلطان الإسلام أبو المظفر يوسف بن أيوب بن شاذي. . على الفقهاء من أصحاب الإمام الشافعي» الخ يقول «ثم إنا سألنا عن هذا المحل فقيل لنا إنه الآن صار كنيسة للفرانصيص فدخلنا فوجدناه محل متسع وفيه ألواح معلقة مكتوب فيها بالعربية أحاديث رواها الشيخان».

ويستمر رحالتنا في وصف ما شاهده في بيت المقدس من مآثر دينية فيتوجّه إلى «كنيسة أخرى وهي كبيرة جدًّا تسمَّى بالقمامة يدّعون أن بها قبر سيدنا عيسى فدخلنا إليها مع المدير والبواب فرأينا النّصارى فيها أصنافاً كل صنف له موضع وهم فرق فرقة يقال لهم الكاثوليك وفرقة الأروام، وفرقة اللاّتين فدخلنا فرأينا محل الصلب وهو مسوّد وصورة سيدنا عيسى كأنّه مصلوب ورأينا أشياء تقشعر منها الجلود قبّحهم الله ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم حتى أن البوّاب مسلم يقول انظروا إلى قلّة عقولهم فقلت كيف ترضى بالجلوس في هذا الموضع فقال: أقامني الله في ذلك».

في مدينة الخليل

وبعد فراغه من مآثر بيت المقدس الدينية يتوجّه إلى مدينة الخليل لزيارة نبي الله إبراهيم يقول «أخذنا عربية بخمسة مجيدي وتوجهنا لزيارة سيدنا ابراهيم فأخذنا ست ساعات في الطّريق حتى وصلنا فنزلنا في موضع معد للضيوف والزّوار فجلسنا وتناولنا الطَّعام ثم توضأنا وكان ذلك الوقت وقت الظّهر ثم توجّهنا إلى مسجد عظيم وفيه ضريح سيدنا إبراهيم الخليل وسيدنا إسحق وسيدنا يعقوب وسيدتنا سارة وغيرهم من الأنبيا» وبعد فراغه من زيارة هؤلاء الأنبياء يجد موضعاً «كهيئة التّابوت ولكنه مكشوف الجوانب فرأينا في ذلك الموضع مثل البئر وفيها السّرج «المصابيح» كثيرة وعليها بوّابين فسألنا عن ذلك فقيل لنا أن في هذه البئر أرواح سبعين من

الأنبياء فقرأنا عندهم ما تيسر» وقد وجد في هذا الموضع من الروحانية والخشوع «ما يشهد له بأنه مقام نبوّة».

في بيت لحم

ثم يتّجه إلى بيت لحم وهو موضع ولادة سيدنا عيسى عليه السلام «فوجدناه قرية عظيمة فيها أبنية عظيمة وسكانها الجميع نصارى وفيهم من الجمال شيء غريب فأتينا إلى دير عظيم مرتفع البناء له باب صغير، وبالاتفاق مع وصولنا إلى عند الباب خرج من النّساء الراهبات ما يزيد على مئة امرأة لابسات السَّواد فلما خرجن دخلنا ومعنا البواب حتى وصلنا إلى موضع الولادة وهو في محل مظلم، وفيه من المصابيح والشموع ولم يسرجوا بالقاز ولا بالزيت والشَّمع فرأينا موضع الولادة» ورأى في هذه الكنيسة موضع تعليم القسوس حيث يجلس الرَّاهب على كرسي ويتكلم «وقد يرى عليه أثر البكاء والناس من حوله من العجائز والشيبان».

ثم يعود إلى بيت المقدس وفي الصَّباح يتوجّه على المركب البري «السيارة» قاصداً يافا مرّة أخرى ويمر في طريقه على مواضع قديمة منها رملة فِلسطين.

في يافا مرّة أخرى

يصل يافا وينزل عند الفاضل رشيد طاهر أفندي في بيت له «في طرف البلد وحوله بساتين محتفة به وفيها من أشجار الفواكه والأزهار شيئاً كثيراً والفواكه مثل تين ورمّان وبرتقال وعنب وخيار وقثا والأزهار مثل ياسمين وبهار ونسرين وفي وسط البستان بيت عجيب في غاية من الحسن مبني بالحجر الأصفر والرّخام الملون وفيه من الآلات شيء كثير والاستعمالات مثل المرايات والنجفات وللبيت مفرج يشرف على البستان

وعندها فابريك تطلّع الماء من البئر على أدنان (جمع دن) تدور على عجلة متصلة بالآلة التي تدير العجلة والأدنان نحو مائة وثلاثين دن كبار وتقذف الماء في موضع متسع ثم ينساب في جداول إلى البستان» وقد أعجب الرّحالة بهذه الآلة الغريبة وسأل صاحب البيت عن ثمنها فقال «مِئة وخمسين جنيه وتمشي الفابريكة على القاز كل يوم نصف بليق «صفيحة» فتمنَّينا أن لو كان مثلها بحضرموت» وفي تطوافه بحديقة رشيد طاهر المذكور سابقاً يجد شجرة عنب «تثمر في السنة ثلاث مرات» وفي الصباح يسأل عن السيارة المتّجهة إلى بيروت فقيل له بعد العصر فذهب إلى سوق بيروت وسأل عن عصاء لوز «مرّ» لورود حديث شريف في فضلها فأخبره رجل بجانب دكان عنها وعرف قصده منها ثم توجه إلى محل رجل ثري هو صادق طاهر ورأى في مصنعه «كارخانات الصَّابون» ثم تأهب لأمر السَّفر إلى بيروت وهناك نزل في فندق يسمى «قصر البحر» ومكث فيها أياماً ثم عزم إلى الأستانة.

السفر إلى الأستانة

بعد يومين من وصوله بيروت وجد مركباً أمريكياً عازماً على الذهاب إلى الأستانة فدفع أجرته وهي أربع جنيه ثم استقله «وذلك ليلة الثلاثاء ٢٩ جمادى الأولى سنة ١٣٢٨ وشمر البابور نصف الليل» ومر المركب على مناطق متعدّدة منها «إياس» وأخرى تسمَّى «مرسين» يقول «وهي أكبر من التي قبلها وأهلها أكثر وفيها فواكه كثيرة وثمنها رخيص جدًّا أخذنا مكتل مشمش ملآن بنحو ربع ريال» ثم توجّه المركب منها إلى بلدة يقال لها «رودس» يقول «وهي بلدة عجيبة وكلام أهلها بالتركي والعربي وشوارعها نظيفة وفيها من الفواكه شيء كثير» وفي اليوم الثالث من جمادى الثاني وهو اليوم الرَّابع من سفرهم يصل إلى بلدة تسمى «شاكس» يقول «وهي من أملاك الدَّولة العثمانية ومنها يخرج المستكي الغالي، وفيها أنواع الأزهار شيء

كثير وأهلها غالب صنعتهم يستقطرون ماء الزهر وأخذنا منها مستقطر زهر الياسمين فوجدناه في غاية من الرائحة الطيبة النّفيسة وهي بلدة عجيبة حسنة البيوت جيّدة الهوا في غاية من النظافة، ودخلنا جامعها فوجدناه جامعاً مفروشاً بالسجاجيد الجميلة حسن البناء لطيفاً وجوانبه مزخرفة بأنواع الصّباغ الملون، وعليه سقف مرفوع، ومن تحته مكتوب بماء الذهب أسماء الخلفاء الأربعة» ولا ينسى النزهة ووصف أهل هذه البلدة بعد أن طاف بجامعها وصلَّى كما هي العادة عند أهل العبادة والورع يقول «تنزّهنا في تلك البلدة وغالب أهلها أروام وفيها جملة من الترك، ووجدنا في جامعها جملة من طلبة العلم ولهم قاعدة غريبة في التدريس يملى عليهم الشيخ المسائل وهم يسمعون وينقلون ما يمليه عليهم مع أدب وسكينة وتواضع».

ثم يواصل المركب سيره ويصل إلى «أزمير» فلما دخلها وجد الميناء يزدحم بالبواخر «وجدنا الرصيف مزدحم بالبوابير نحو مئة بابور فدخلنا من بينها ورسى البابور» وفي أزمير ينزل خاناً «فندقاً» معداً للقادمين إلى أزمير من الغرباء ثم يتجه بالوصف إلى هذه البلدة ويذكر محاسنها ونحن سننقل قوله هنا على بساطته وعدم فائدته القصوى لأننا ننقل في هذه الرّحلة انطباعات أولية لرجل من أهل اليمن يرى الحضارة الحديثة لأول مرة يقول:

«وبلدة أزمير بلدة كبيرة يقال لها اسطنبول الصغرى وعدد من فيها من الخلق ستمئة ألف منهم الترك ومنه الأروام وهي متسعة الأطراف يركبون من طرفها إلى طرفها بطريق البحر لأنه أسرع في بابورات صغار معدة لذلك ولأن المسافة بطريق البر بعيدة جدًّا لكثرة الأسواق والبيوت وهي كثيرة الأسواق وفي كل سوق صنف من البضائع حتى أتيت على سوق واحد مستطيل تباع فيه النّعال والأخفاف من الجلود الطيبة وبعضها يباع فيه الصّوف الأنقوري وبعضها تباع فيه الحنابل «البسط من القطن» والقطف «البسط من الصوف» الجميلة وبعض القطف ثمنها خمسمئة ريال،

وفي طرف البلدة المذكورة على ساحل البحر محلاًت للتنزّه وجنينات وقهاوي يجلسـون فيها بـاللّيل جملة من الخلق مـا ينيف على الألـوف وهي محتفة بالبساتين وفيها ضوء الكهربا ساطع النور».

ثم ينتهي وصفه لأزمير ويتجه على مركب آخر فرنسي إلى الأستانة وكان قد مكث في البلدة المذكورة ثلاثة أيام وَفي طريقه في البحر مرّ على «جنق قلعة» ولما وصل إلى استانبول وجد فيها «من الخلق عدد كثير فأقبل لملاقاتنا الشيخ المكرم محمد علي خوقير بأمر مولانا الشريف ناصر بن علي أحد أعضاء مجلس الأعيان» وهنا يلتقي بمضيّفه وجماعة من الأعيان ويتقلب بين ضيافات وإكرام .

ثم يذكر من مشـاهداتـه في استانبـول متحفاً خـاصاً بـالانقشاريـة «فقصدناه للتفرج على ما فيه فوجدناه سرايا عظيمة ولها باب عظيم وعليه بوّابون وخدمة فدخلنا ثم سلمنـا من الدَّراهم مـا يلزم على كـل داخل للتفرّج والنظر ثم دخلنا موضعاً لا يسع في الدخول إلاّ شخصاً واحداً وله حديد مستدير ينعـطف للداخل بحيث لا يـدخل شخص آخـر إلاّ بعد استدارته ثانياً ثم طلعنا في درج من الرخام الأبيض فوجدنا في أثناء الدرج رجالاً ظننا أنهم رجالاً حقيقية ويكادون ينطقون من إتقان التَّمثيل وهم في هيئة الغفر يعني الحجاب ثم طلعنا في الدّرج الأعلا فإذا محل عظيم متسع وفيه من التماثيل المشخّصة ما يقطع الناظر إليهـا من خارج المنـزل بأنها أجسام حقيقية من إتقان الصنعة».

وفي يوم آخر يدخل المتحف الكبير يقول «وهو سرايا عظيمة يحتوي على سرايات أخرى من جملتها خزانة همايون وهي محل واسع محكم البناء وعليه أبواب الحديد» ثم يصف ما شاهده فيه وهو عبارة عن غرف وطوابق متعدّدة تجد وصف بعضها وما تحويه من تحف في أثناء حديثنا عن رحلة غمضان وقد مرّ.

وفي يوم من الأيام بلغ السلطان محمد رشاد وصول رحالتنا إلى الأستانة «فأرسل إلينا بعض خدمه وطلب منا أن نحضر معه صلاة الجمعة في مسجده».

ثم يأتي يوم الجمعة فيتقدم إليه ذلك الخادم «بالعربية السلطانية فركبنا ومشينا إلى الجامع المسمى جامع شكطاش فوجدنا أمام الجامع عساكر كثيرة مجتمعة وهم أجناس مختلفة في زيهم ولباسهم مرتصّين مناظرين وصول السلطان فتقدمنا إلى زاوية معدة للجلوس قبل الصلاة فوجدنا فيها من كبار الضباط والبوش جملة فجلسنا على الكراسي، وقدمت لنا القهوة فلما قرب وقت وصول السلطان دعونا للخروج لمقابلة السلطان على عادة القادم الغريب فخرجنا وجلسنا إلى جانب وإلى جانبنا جملة من الرؤساء وبيدهم مباخر العنبر والند فأقبل السلطان في موكب عظيم تؤمّه العساكر الخيالة، وعليهم كوافي الحديد التي تسمى بالمغافر ثم طائفة أخرى خيالة أيضاً بيدهم الرايات ثم تقدّم رجال كانوا منحازين في موضع بمباخر العود والنّد وهم كبار السن وعليهم اللباس الفاخر حتى وصلت عربية السلطان إلى جانب المحل الذي نحن قيام فيه حتى صار بيننا وبينه نحو ثلاثة أذرع فنزل السلطان من العربية وسلم علينا بسلامهم المعتاد فرددنا عليه السلام، ثم تقدم مولانا السلطان إلى الدّرج «السلم» وطلعنا خلفه حتى قصد إلى محل خاص به، ونحن جلسنا إلى جانب الرؤساء».

وبعد صلاة الجمعة يبعث السلطان إلى رحالتنا «الباشا منجي يخاطبنا ويقول السلطان يسلم عليكم وهو ممنون منكم ومتشكر جدًّا ويقول حصلت البركة بحضوركم».

ثم يخرج السلطان ويعود صاحبنا إلى موضعه الأول.

وفي اليوم التالي يزور المابين ويدخل «موضعاً واسعاً وفيه المرايات الكبيرة طول المرآة خمسة أذرع وعرضها ذراعين ونصف وفي الموضع المذكور

قطيفة «بساط» واحدة مفروشة وفوقها الكراسي الحسنة».

وفي الأستانة يتعرف على أحد العلماء المغاربة وهو الشيخ محمد مكي بن عزوز يقول «فاجتمعنا به وطاب الحديث معه فوجدناه عالماً متبحراً، ثم إنه ذات يوم دعانا للضيافة في بيته فوجدنا منزله ملآن بالكتب النفيسة ومنها القلم والطابع وطاب المجلس معه فكان كلما أسمعته شيئاً عمد إلى الدواة والقلم وكتبه ثم أطلعني على كتبه وقال خذ منها ما تحب فأهدى منها كتاب الشفا وهو خط اصطنبولي وأهدى لي ديوان قابودوا المغربي وهو ديوان بديع وبعض رسائل من تأليفه وصارت بيني وبينه محبّة كاملة».

وتكثر مثل هذه الزّيارة للصّلحاء والمشاهد الصوفية حيث أن رحالتنا من أهل العقيدة القوية في العلماء والأخيار.

وفي يوم ٢٠ رجب شاهد أمراً عجيباً لم يكن له عهد به من قبل وهو مناورة عسكرية أقاموها بمناسبة ذكرى تولية السلطان يقول «دخل وقت تولية السلطان ودخول عيد المشروطية وهي القواعد التي أسّسوها على عقد مجلس الشورى وهو المسمى الآن بالمبعوثان فنصبوا الخيام ونشروا الرايات وفي تلك اللّيلة أوقدوا السرج والفوانيص ألوفاً وفي صباح تلك الليلة كانت المناورة في البوغاز وهو البحر الحاجز بين قطعتي اسطنبول الشرقية التي تسمى الأناضول والغربية التي تسمى الروملي والمناورة هي عبارة عن سير البوابير الحربية في البوغاز المذكور يميناً وشمالاً مع رفعها للبناديرِ «الأعلام» وضرب المدافع واجتمع من الخلق في ذلك اليوم عدد كثير وكان يوم السَّبت وكان الاجتماع للتَّفرج على رصيف البوغاز واجتمعت نحو سبعين بابور من البوابير الحربية التي باسم الدولة وبوابير الأجانب عدد كثير ومولانا السلطان محمد رشاد في بابور حربي كبير معدّ له ولمن يليق بمجالسته وعلى البابور المذكور من الزينة والرَّايات المنشورة المنوعة الألوان شيء كثير وبوابير الأجانب معدة لمن أراد التَّفرج يسلم قدراً من الدَّراهم ويطلع إلى البابور

وأما بوابير الدولة فهي معدّة للمأمورين وأهل الرّتب عندهم أو من كان نزيلاً عندهم».

وقد قام بعض أصدقائه المرافقين له بشراء تذكرة لركوب بعض تلك المراكب المذكورة بقصد النزهة ومشاهدة تلك المناورة، يقول «فلما وصلنا إلى الرصيف رأيت كثرة الخلق واختلاف ألسنتهم وأديانهم لم أستحسن الطلوع وأما الولد محمد بن حسين فتوجّه وطلع معهم إلى البحر وأنا رجعت مع بعض الأحباب له بيت جميل مطل على البوغاز فترى جميع البوابير وترى كيفية المناورة، فطلعنا إلى البيت المذكور وتفرّجنا على ما صار مع كمال الرَّاحة» وهكذا سلم من المشقة وشدة الزحمة، وفي ذلك البيت رأى ما طاب له «والتي أوقدوها من السرج والفوانيص المنوعة الشكل شيء كثير فترى على كل بيت من بيوت أهل الرّتب نحو من ثلاثة آلاف فانوص، وفي ذلك الوقت كان خديوي مصر في اسطنبول فالتي وضعها من السّرج والفوانيص نحو من اثني عشر ألف واجتمع ذلك اليوم مئات الألوف من الخلق» ثم تنتهي هذه المناورة وبانتهائها تنتهي زيارته للأستانة، وكان قبيلها بيوم قد استضافه الأفندي علي اليمني، وفي مروره في الطريق يشاهد السوق والقطار الكهربائي يقول «ثم توجَّهنا في يوم من الأيام إلى «بيوغلي» حارة كبيرة في اسطنبول وإلى جانبها «القسمة» وهما حارتان في غاية من الانتظام وعلو القصور وهي محل للبيع والشراء وفيها من البضائع الغالية والمجوهرات النفيسة ومن سكانها الأفندي علي يمني دعانا للضّيافة فتوجَّهنا إلى بيته في سكة حديد تمشي تحت الأرض بالنّور الكهربائي وفيها مواضع للجلوس جميلة تمشي تحت الأرض بقدر نصف ساعة حتى وصلنا إلى بيت الأفندي المذكور».

التوجه إلى مصر

كان عزمه من الأستانة في يوم الثلاثاء ١٣ شعبان سنة ١٣٤٨ على

باخرة «الشركة الخديوية» المسمّاة بالعثمانية فحضر جماعة لوداعه على رصيف الميناء ثم يشمّر بهم ويصل إزمير ويقيم نحو خمس ساعات ثم يواصل سيره ويصل إلى «بيرة» يقول «وهي أسكلة عاصمة اليونان المسمّاة «أثينا» وغالب سكانها نصارى أهل تجارة».

وأخيراً يصل بهم إلى الإسكندرية على سبعة أيام من إقلاعهم في البحر يقول «وتوجّهنا إلى خان القرتلي وفي صحبتنا الشيخ بكري زقزوق وأما باقي الأصحاب فتوجّهوا إلى السويس وقصدهم إلى جدّة» وفي الإسكندرية يمكث ثلاثة أيام في الفندق المذكور «على كل فرد من الأشخاص في مقابل الأكل ستة قروش مصري عن نصف ريال فرانصة».

وفي اليوم التّالي من وصوله الاسكندرية يأخذ في النزهة بعد أن أخذ معه شخصاً يدله على معالم المدينة وقد خرجت مشاهدته السريعة بهذا الوصف الدقيق يقول «وجدناها بلدة منظمة في غاية من الحسن وفيها القصور العالية وأزقتها مضروبة «مرصوفة» بالحجارة وبعضها بالإسمنت الإفرنجي وفيها مغازات (؟) ودكاكين وبنوك ومستودعات قل أن يوجد في غيرها من حسن البناء وتركيب الأبواب التي من القزاز «الزّجاج» المتين وفيه محل يقال له المنشية شارع كبير متّسع منظم وفي وسطه جنينة فيها أصناف الأشجار الملونة وحولها محل منظم بالكراسي وفيه تمثال محمد علي باشا راكب حصان والتمثال من حديد يكاد التمثال ينطق، والحصان يكاد يتحرك من حسن الصنعة، هذا منظر البلد بالنهار، ولما نظرناها ليلاً فكأنها بلدة أخرى من إشراق نور الكهرباء فيها بأنواع مختلفة وزجاجات ملونة وفي كل محل متسع قهوة يعد لشراب الشاهي والقهوة واللّبن المعقود بالثلج والعربيات فيها تجي وتروح».

هذه صورة الإسكندرية في مطلع القرن العشرين كما رسمها لنا الرحالة رحمه الله.

ولما كان اليوم الثالث يتجه إلى طنطا لزيارة صوفيها الشهير أحمد البدوي ويصحبه إليها الشيخ محمد راضي الذي أتى إليه خصيصاً من بر مصر لما سمع بوجوده في الإسكندرية ثم يمر بعد ذلك إلى المنصورة مع الشيخ المذكور حيث يبيت ليلته بها وفي الصباح يأخذه المذكور إلى بلدته المسماة جمالية دقهلية يقول «فخرجنا على اسم الله وإذ بالسيد هاشم مجاهد وصل من بلاده لملاقاتنا فاجتمعنا وسرنا معاً إلى سكة الحديد وركبنا فيها إلى محل الشيخ محمد راضي في البلاد المذكورة فلاقانا جملة من أهل البلد بالخيول والبغال والحمير واركبوني على فرس جميل جدًّا هي للشيخ طه رئيس الكَفْر الجديد وبقية الأصحاب ركبوا كذلك».

وفي اليوم الثالث يتّجه إلى محل يقال له المطرية «ومعنا جملة من الأحباب ووصلنا إليها وقت العصر وصلينا» ثم واصل سيره إلى القاهرة على «سفينة صغيرة يقال لها «الذهبية» تمشي في طرف البحر فسافرت بنا تمشي بالشّراع حتى وصلت بورت سعيد نصف الليل» وهناك يجد القنال فيصفه بقوله «وصلنا عند الكنال وهو الموضع الذي تمر فيه السّفن ما بين البحر وهو في غاية الانتظام والقوة وعلى جوانبه شباك حديد من الطرف إلى الطرف».

ومن هنا يزمع على التوجّه إلى القاهرة حيث يستقل القطار الحديدي

وفي القاهرة ينزل عند صديقه الشيخ عمر بن محمد باجنيد ويتفرغ لزيارة المآثر والمشاهد العديدة بمصر فيزور جامع الحسين ثم السيدة زينب يقول «وزرنا إلى جانبها وهو في صحن القبة سيدنا القطب العارف بالله عبد الرحمن بن مصطفى العيدروس وحصل للقلب كمال الأنس عند ضريحه» ثم يتوجه في اليوم السادس إلى «كتب خانة الخديوية المصرية وهي مستجدّة البنا حسنة الموقع في غاية من القوة فدخلنا بابها وطلعنا إلى الدرج حتى وصلنا إلى محل وهو أول ما يدخل الدَّاخل وعليها حجاب فدخلنا فوجدنا دواليب مقفلة وأبوابها من الزجاج ويرى ما في داخلها من خارجها

من غير مسّ المنظور من الخارج أوراق وجلود وألواح وعظام مكتوب فيه الخطوط القديمة وهي من قبل البعثة ومن البعثة ورأينا كتاب المقوقس الذي كتبه النبي ﷺ ووجدنا كتاباً في خوص النّخل وورق أشجار وهي من قديم الزمان».

ثم يدرج إلى غرفة أخرى «وجدناها مغتصّة بالخلق جالسين على كراسي وأمامهم طربيزة «طاولة» كبيرة وفوقها مجلّدات موضوعة وهي الفهرست للكتب الموجودة في المحل المذكور وفي الجانب الآخر كراسي معدّة للجلوس عليها لأجل المراجعة في الكتاب الذي تطلبه» ويجد في المكتبة من ظنائن المخطوطات كتاب «الإمتاع في حل السّماع» للأدفوي «ورأينا شيئاً كثيراً من التّفاسير الغريبة وكتب الحديث وكتب الفقه والتواريخ ومنها تاريخ حمير ذكر فيه اليمن وحضرموت وملوكها وهو تاريخ حافل جامع».

ومن زياراته المشهودة في مصر زيارته للجامع الأزهر يقول «جامع عظيم محكم البناء وإلى جوانبه الأربعة أروقة متعددة كل رواق مختص بأهل إقليم من الأقاليم السبعة وجهاتها المتعددة فرواق خاص بأهل الهند ورواق للشوام ورواق للأتراك ورواق للمغاربة ورواق لليمانية وغيرهم وفي رواق اليمانية جملة ممن نعرفهم وشيخ الرواق الشيخ محسن أبو حربة» ثم تقام الصلاة فيصلّي الناس صلاة الظهر وبعد الصّلاة يتفرق الجميع في حلق متعدّدة «نحو ستين حلقة والمدرس يجلس على كرسي والتلاميذ من حوله. ورأيت من جملة المدرسين ولد صغير سنّه نحو أربع عشرة سنة يقرر في أوصاف الماء فشرع يقول: الماء جوهر شفاف يتلون بلون إنائه فتكلم أولاً على الماء ثم على معنى الجوهر ثم على الشفاف بعبارة رشيقة لطيفة».

ويصادف أثناء قدومه مصر مجيء رمضان فيشهد فيها الصلوات والعبادات حتى تأتي العيد وفي اليوم الثالث منها يتوجّه إلى الجيزة بقصد الفرجة على حديقة الحيوان يقول «توجّهت في السكة الحديد إلى الجيزة لأجل التفرج على مواضع الحيوانات فوصلنا إليها ودخلنا المحل الذي فيه

الحيوانات فوجدناه بيتاً كبيراً فيه موضع متّسع فدخلنا الباب وسلمنا ما يلزم تسليمه على الدَّاخل ودخلنا فأول ما قابلنا شباك حديد على محل كبير وفيه أصناف الأسود والنمور وأنواع السباع وكل واحد منها في قفص لنفسه ثم إلى موضع آخر فيه أصناف الطُّيـور المشكلة الألوان فمنهـا الأبيض ومنها الأخضر، ومنها الأصفر وبعضها طوال الرّقاب قدر ذراع وفيه الطَّواويس وطير النّعام، وإلى موضع آخر وفيه الزُّرافة يديها أطول من رجليها وإلى موضع آخر فيه بقر الوحش وحمار الوحش وجلده مثل بيوت الشّطرنج وإلى موقع آخر فيه أصناف الوعل وعليه شبَّاك حديد ومن داخل الشباك مثل الجبل عليه وفيه شبه الغيران «جمع غار» ورأيت فيه الوعول ذوات القرون الطويلة في كل قـرن نحو أربعـين عجرة[1] ورأينـا فيه أصنـاف الحيوان الكركدن وله قرن في جبهته واحد وهو محدود مستطيل ورأينا حيوانـاً له بطنين بطن أصليّة وبطن خارجة من أسفل ولها فم مثل فم الجراب إذا ولدت الأنثى تحفظ أولادها بالتربية في ذلك المحـل حتى يستطيـع المشي فيخرج، وذلك الحيـوان رجليه أطـول من يديـه، عكس الزرافـة، ومن أعجب وأغرب ما رأينا وهو حيوان البحر المسمّى بجاموس البحر وفيه شبه من الجاموس وشبه من الخنزير وهو مهول الخلقة وله رأس كبير، مساوي ربع جسمه وهو أسود اللون وجدناه واقفاً على رأس بحيرة ماء يأكل من الشجر فاجتمع إليه خلق كثير ينظرونه وبيننا وبينه شباك من حديد فلما رأى كثرة الخلق انحدر إلى البحيرة وغاص فيها فانتظرنا ساعة حتى عاد ورجع إلى محله الأول فسبحان الصّانع الحكيم».

وتكثر مثل هذه المشاهدات والطرائف الغريبة التي اندهش لها رحالتنا فوصفها في رحلته بشيء من الاستغراب والإعجاب حتى تأتي أيامه في مصر على الانتهاء فيغادرها لعشر من شهر ذي القعدة سنة ١٣٢٨ هـ والحمد لله رب العالمين.

---

(١) العقدة في القرن.

السقاف ورحلته إلى مصر والقدس

تمضي الأيام سراعاً والرحلة عند أهل اليمن باقية على وتيرة واحدة فهم يرحلون إمّا لطلب العلم أو بقصد الزّيارة والتبرك بالمشاهد المقدسة وكثيراً ما تكون الرحلة لطلب الرزق لقوله تعالى **﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه﴾**[1].

حتى جاء القرن العشرين الميلادي وظهرت مستحدثات عجيبة من المخترعات الجديدة سهّلت على النَّاس أمر السفر وشقته ولم نعد نرى تلك الرحلات الخطيرة التي لا يكاد يسلم أحد من أهوالها، وكان علينا أن نقف عند شيء من تلك الرحلات التي عاصرت عصر الراحة والأمان في هذه الأسفار وخير ما نجده كشاهد عليها هو رحلة العلامة الصُّوفي الناسك محمد بن هادي السَّقاف، فهي نموذج من تلك الرحلات المشبعة بجو من الإيمان والعبادة والزّهد وقد جعلها صاحبها رحمه الله خاصة لقصد المآثر والمشاهد الصوفية.

السقاف صاحب الرحلة

هو العلامة الصوفي الزَّاهد محمد بن هادي بن حسن بن عبد الرحمن بن حسن السقاف ولد بمدينة سيؤون من حضرموت سنة ١٢٩١ ونشأ تحت رعاية والده ثم تلقّى العلم على كبار شيوخ عصره منهم السيد شيخ بن محمد الحبشي صاحب الرحلة السابقة وأخوه الصُّوفي الكبير علي بن محمد

(١) سورة الملك آية ١٥

والعلامة جعفر بن عبدالله السقاف والإمام الحجه أحمد بن عبد الرحمن السقاف وغيرهم وعنه أخذ طلاّب العلم حتى بنى منزلاً خاصاً بهم وتخرّج على يديه عدد كبير وصار مَرْجعاً للناس وكهفاً للملهوفين وانتهت إليه المشيخة في العلم والتصوف توفي رحمه الله سنة ١٣٨٢.

رحلته المسماة بالرياض الوردية

هذه الرحلة تقع في مجلد كبير جمعها عنه تلميذه وملازمه الشيخ محمد ابن أحمد بن بكران الصّبان وهي تدون أخبار سياحته في الدّيار الحضرمية ثم مصر والقدس بدأها في يوم الثلاثاء ٢٨ شهر ربيع الثاني سنة ١٢٤٣ هـ/١٩٢٤ م وأسماها «الرياض الوردية في الرحلة المصرية والقدسية».

وكان الانطلاق من بلد صاحب الرِّحلة مدينة سيؤون يقول كاتب الرحلة «خرج سيدي محمد من بيته آخر ليلة الثلوث لثمان وعشرين خلت من ربيع الثاني سنة ١٣٤٣ هـ الساعة العاشرة بالعربي[١] ليلاً، وقصد مسجد جده لأمه الإمام علي بن عبدالله السّقاف وتوضأ وركع به ثم طلب الفاتحة ممن يقوم آخر اللّيل في ذلك المسجد» ثم يزور بقية المآثر في بلدته سيؤون وبعد ذلك اتجه إلى طريق بلدة تسمى «تريس» لزيارة من بها فالغرفة فذي أصبح وهي قرى بحضرموت تفيدنا هذه الرحلة أسماءها ومواضعها حسب التَّرتيب، ومن ذي أصبح يتجه إلى «الحوطة» حيث يستضيفه فيها أحد آل الحبشي يقول كاتب الرِّحلة «ووقع مجلس عظيم ذاكر فيه صاحب الرحلة بمذاكرة وجلت من سماعها القلوب وتحرّكت بها النّفوس إلى طاعة علاّم الغيوب، واغرورقت بالدموع الأجفان وحصل بها طمأنينة» وفي الصباح لليوم الثاني يتّجه إلى شبام ويقف عند مقبرتها «جرب هيصم» بالدّعاء الطويل حتى تكل الأرجل ويسأم المرافقون، ثم يتّجه إلى «الباطنة»

(١) يعني بالتوقيت العربي الذي يبتدي من الفجر وينتهي بالمغرب ثم من المغرب إلى الفجر

قرية هناك، ثم هنين «فوصلناها الساعة الرابعة نهار» من اليوم الثالث للرحلة «وبتنا بها وبعد صلاة الصبح قرأنا الأوراد على المعتاد، ثم مشينا من هنين. الساعة الواحدة نهاراً وبردنا «إسترحنا» بحوطة الهويمل مكان السيد شيخ بن عبدالله العيدروس وبعد ذلك يتحول إلى «حريضة» مدينة هنالك فيصل الساعة الحادية عشرة ويمكث بضعة أيام بين كرم أهلها واحتفالهم به حتى يتهيّأ للذهاب منها إلى «المشهد» ثم «الهجرين» ومرّوا بعد ذلك على موضع يسمّى «الغار» وتريّثوا فيه قليلاً حتى استعادوا نشاطهم وواصلوا سيرهم إلى «قيدون» ثم إلى «بضه» ومنها إلى «القويرة» وبات فيها، وفي الصباح اتجه إلى «القرين» وهناك يجد القوم في الدّرس والقراءة يقول «طلعنا إلى زاوية مسجد العلامة عمر بن عبد الرحمن البار لحضور الدرس في البخاري ووجدنا قراءتهم في تفسير القرآن في سورة ألم نشرح ففرح صاحب الرّحلة بالموافقة وطلب من الله شرح الصّدر بالإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور» ومن القرين يتجه إلى «الخريبة» ثم «الرشيد» وبعد ذلك إلى «الرّباط» وهذه وغيرها قرى عامرة بطلاب العلم والعباد تدخل ضمن جهة دوعَنْ من حضرموت.

ثم يتجه بعد ذلك إلى المكلاء وهو ميناء حضرموت، وفي الطريق من دوعن إلى المكلاء يمر على «السّرين» و«مولى مطر» و«مربعة بازرعة» بوادي حمم يقول صاحب الرّحلة «وهو مكان ينبسط به الخاطر ويستريح فطابت فيه أرواحنا وتواترت أفراحنا وتعشّينا وجيء بليمون فأخذنا منه بثمن رخيص وبتنا به».

ثم يرحل إلى «بندر المكلا الساعة الواحدة نهاراً قصدنا أولاً «البقرين» ووصلنا الساعة الثالثة ونصف واسترحنا به واغتسلنا فيه من غبار الطريق والأبدان والثياب للقاء الإخوان والأخدان».

وبعد ذلك يتهيّأ الجميع لدخول البندر «وجيء بالموتر «السيارة»

فركب فيه صاحب الرحلة وولده عبد القادر، ومنّا من ركب معهما ومنا من ركب على قاري «عربية» الخيول والباقون طلعوا على المواشي فدخلنا المكلا ونزلنا في بيت بالكرا».

ثم يستقر في المكلا وكانت أيامه في هذا البلد كلها مواعظ وزيارات للمساجد والمآثر الدينية، ومن تذكيره ووعظه في هدا البلد ما نقله كاتب الرحلة يقول في بعضها مخاطباً أهل المكلا «إني لما دخلت هذا البلد حصل معي قبض[1] شديد ولا علمت السبب في ذلك وبقيت متحيّراً فرأيت انحرافكم وعدم وجهتكم وميلكم عن المعالي وما يقربكم إلى الله مولى الموالي ونظركم إلى المشتهيات والملونات ولعل ذلك هو السَّبب فيما حصل من عدم البسط فالآن نريدكم تتوجهون بهمّة قوية للأمور العلية» إلى آخر وعظه رحمه الله.

الرحلة إلى عدن

لم تطل كثيراً أيامه في المكلا فإنه تأهّب للعزم إلى عدن بعد أن وجد ركباً متجهاً إلى المدينة «ركبنا في البحر متوجّهين إلى بندر عدن وحصل معنا في المركب تعب كثير ودوران وتمثّلنا بما تمثل به سيد ولد عدنان:

هل أنت إلاّ أصبع دميت وفي سبيل الله ما لاقيت»

وقد سار المركب بهم السادسة ليلاً ووصل عدناً الساعة الحادية عشر نهاراً فاتجه الجميع مباشرة إلى زيارة ضريح الصوفي الكبير أبي بكر بن عبدالله العيدروس ثم يزور بقية المشاهد وفي إحدى الزيارات يحضر الجمع الغفير ويتكلّم صاحب الرحلة بالوعظ الرقيق الذي تنشق له القلوب وتنهمر لسماعه العيون وفي بعضها قال في آخرها مذكراً برحلته هذه «ونطلب من الله أن تكون سفرتنا هذه سفرة أخروية لا دخل فيها للأمور الدنيوية

---

(١) ضيق نفسي.

والإنسان إذا نوى في ابتداء كل ما يفعله نية صالحة صار المباح طاعة».

وهكذا يكون السفر عند هذا الفاضل وغيره من أمثاله ليس إلاّ دعوة إلى الله ونشر ما يفيد الناس وكأن المقام لم يطب له كثيراً في عدن فاتجه إلى بلدة تحت عدن تعرف بـ «الوهط» يقول كاتب الرحلة «توجّهنا إلى الوهط الساعة الثانية نهاراً يوم السبت تسع وعشرين جمادى الأولى خرجنا أولاً إلى الشيخ عثمان في مواتر «سيارات» ومنه ركبنا في سكة الحديد إلى صبر ولما وصلناه، وجدنا به أربع مواشي «دواب للركوب» مرسلات من السادة أهل «الوهط» فركب سيدي محمد صاحب الرحلة واحدة والثلاث الباقية نتناوب الركوب عليها، ووصلنا «الوهط» الساعة الرابعة نهاراً ومن صبر إلى الوهط مشينا ساعة إلاّ ربع ونزلنا عند الفاضل حسن بن جعفر الزين وتغدّينا عنده» ويقوم بزياراته هناك ثم يعود إلى عدن في اليوم التالي وفي عدن يمكث أياماً ثم تكون الرّحلة إلى مصر التي من أجلها تجشّم المشاق.

الرحلة إلى مصر

توجّه المركب إلى السويس وفيه الرّحالة وصحبه ليلة الجمعة الساعة السادسة يقول كاتب الرحلة «وانتبهنا الساعة الحادية عشر وصلينا الفجر وسنته وقرأنا الأوراد وجلسنا في المركب عشية للرّوحة على العادة».

وجرى نقاش بين الرحالة وصحبه حول نجاسة الكلب «وذلك أن بعض النصارى الذين في المركب معه كلب يخدمه غاية الخدمة فاشمأزّت النّفوس حذراً من التنجيس حيث أنه يسير به في مواضع من المركب».

ثم يصل المركب إلى السويس في ليلة الأربعاء اثني عشر جمادى الآخرة الساعة الرابعة ليلاً «وتلقانا عبدالله بن صالح بالترحيب والتّأهيل والتكريم ونزلنا في بيت بالكرا» وفي اليوم التالي توجهوا إلى القاهرة «الساعة الواحدة وعشر دقائق راكبين في سكة الحديد ومررنا في الطريق بأراض

كثيرة لا نعرف أسماءها لكون السكة تمشي بقوة فلم نستطع أن نسأل عنها».

وفي القاهرة ينزلون فندقاً يسمى دار السلام وهناك يشرعون في زيارة المشاهد والمعابد حتى تدركهم صلاة الجمعة فيتوجهون إلى مسجد الإمام الشافعي ثم يمضون بعد ذلك في استكمال الزيارة يقول جامع الرِّحلة «فما أشرفها من زيارة هبت على القلوب منها نسائم القبول وهطلت غمائم الرّضا على جميع التلول قد نشقنا من عرفها المسك الأذفر والنّد الأفخر».

وبعد رجوعهم إلى البيت في الساعة العاشرة زارهم في منزلهم العلامة محمد بن علي[1] الأهدل «وجرت بينه وبين صاحب الرّحلة مذاكرة في المدارس العلمية وما حدث في الجهات من الجمعيات فقال سيدي محمد: أرضنا حضرموت ما تحتاج للجمعيات لأن أهلها على مذهب واحد وعقيدة واحدة وجمعتنا الشريعة المحمدية».

وقد أفاد كاتب الرحلة كثيراً من المشاهد التي زاروها في مصر وطنطا وغيرهما وفيها ذكر حشد كبير من الصلحاء والصوفية مر عليهم جميعهم بالذكر والدعاء ومع ذلك فهم لا ينسون زيارة شيء من المآثر التاريخية بقصد العظمة والاعتبار وقد زاروا الأهرامات يقول «ويوم الخميس ٢٢ جمادى الآخرة بعد الشروق خرجنا إلى الأهرام لأجل الاعتبار والادكار والنظر إلى قدرة الله العزيز القهّار وبديع صنعه وهو بناء من حجر كبار مرتفع في الهوى مائة ذراع بذراع العمالقة[2] وخمسمئة ذراع بذراعنا الآن والذي بناه رجل من العمالقة يقال له سنان بن المهلهل بناه وأحكم بناه وأعده لخزن الغلال».

وفي نفس اليوم يتوجّهون لزيارة حديقة الحيوان «ورأينا فيها أنواعاً من الحيوانات تدل على باهر قدرة الله وكثرة مخلوقاته وغرائب مصنوعاته

(١) هو مؤلف نثر الدّر المكنون في فضائل اليمن الميمون (طبع).
(٢) أظنه يعني الفراعنة.

فمنها حمار الوحش وهو موشّى بأخطاط[1] سود وبيض واليربوع وهو قصير اليدين طويل الرجلين عكس الزرافة، والنعامة والزرافة وبقر الوحش، والغزال والأسد والخنزير والتّمساح وسيد إشطة[2] وهو حيوان عظيم يعيش في البر والبحر وأنواعاً من القردة وأنواعاً من الطيور وغير ذلك ممّا لم أحفظ أسماءها وعلى كل منها درب[3] من حديد».

ثم تنتهي زيارة مصر بما فيها من المآثر الدينية ويكون عزمهم بعد ذلك إلى بيت المقدس لزيارة القدس وما فيها من مقدّسات.

زيارة بيت المقدس

في ليلة الأربعاء ٢٦ من جمادى الأولى سنة ١٣٤٣ عزم صاحب الرحلة العلامة محمد بن هادي السقاف ومن معه إلى القدس يقول كاتب الرحلة الشيخ محمد بن أحمد الصّبان «توجهنا من مصر المحروسة إلى بيت المقدس في سكة الحديد الساعة الواحدة إلاّ ثلث لزيارة من بها من الأولياء والأنبياء والصالحين ومرت بنا على قرى وأماكن كثيرة وأشجار متنوعة لم تعهد بقطرنا وجبال صغيرة وكبيرة».

حتى يصلوا إلى القَنطرة وهو موضع بينه وبين مصر أربع ساعات بالسكة الحديد فيخرج الجميع من ذلك القطار ويتحوّلون إلى قطار آخر «خرجنا من السكة إلى سكة أخرى إلى القدس وبين السكتين بحر صغير فيه مركب صغير مكتوب بأعلاه المرور مجاناً يمرّ فيه من نزل من سكة القنطرة إلى سكة القدس ثم مشت «سارت» بنا على بحر قريب من الطريق وأشجار لم تعهد بقطرنا أيضاً وجبال صغار وكبار وقرى كثيرة أيضاً».

---

(١) خطوط.

(٢) كذا ينطقه على لغة أهل مصر في إبدال القاف همزة.

(٣) يعني قفصاً.

وكان وصولهم بيت المقدس السَّاعة الرَّابعة يقول «وبين القنطرة وبيت المقدس عشر ساعات بالسكة» وهناك قصدوا زاوية نبي الله داؤد ريثما استراحوا من تعب السفر ثم واصلوا الزيارة للمشاهد المقدسة. وقد مرّ علينا ذكرها في رحلة العلامة شيخ بن محمد الحبشي ولم يترك مشهداً إلاّ زاره، ورحل إلى الخليل وزار نبي الله إبراهيم وما هنالك من المآثر، واجتمع في القدس بالسيد أمين الحسيني «وبعد الصلاة سرنا إلى بيت السيد الشريف الحاج أمين الحسيني مفتي الحرم القدسي، ووقعت عنده جلسة عجيبة ولما جلسنا أتى إلينا بعض خدمه بالتنباك[1] ظنًّا منه أنا نشربه لكونهم لا يرون به بأساً فأعرضنا عنه جميعاً، فقال السيد أمين المذكور: لم لا تشربون التنباك أحرام هو أم حلال فأجابه سيدي محمد إنا لا نألفه لأن أبناء جنسنا وأجدادنا المتقدّمين ومن رأيناهم من مشائخنا لا يتعاطونه ولا يستعملونه شرباً ولا نشوقاً ولا مضغاً فلذا نجد أنفسنا تعافه».

فأجابه السّيد أمين المذكور بالموافقة وقال «هو أولى بكم وأحسن وأنتم المغبوطون إذ غاية الأمر فيه أنه لو كان مكروهاً فهو ضياع مال بلا فائدة فالأولى والأحسن إعدامه من بلاد الإسلام».

ثم سأله عن السياسة وأحوال العالم فقال صاحب الرحلة: «ما عندنا تحقيق في ذلك فقال له كيف والجرائد تخبر عن الأحوال فقال: ما لنا اطّلاع على الجرائد لعدم وصولها إلينا. فقال لكنكم لا بد أنكم تسمعون الأخبار من الغير، فقال سيدي صاحب الرِّحلة نحن نقول اللهم أصلح من في صلاحه صلاح المسلمين وأهلك من في هلاكه صلاح المسلمين ونسأله أن يعز الإسلام على يد من أراد من العباد المؤمنين» ويبدو ان قضيه اليهود لم يستفحل خطرها بعد وإلاّ كان لهم فيها خوض.

ثم يعودون إلى مصر على القطار، وفي القطار يحدث لهم أمر نترك

---

(١) السيجارة.

كاتب الرحلة يصفه: «توجهنا من بيت المقدس إلى مصر وركبنا في سكة الحديد لتسع وعشرين من جمادى الآخرة، ولما جلسنا في السكة أتى رجل يسأل عن سيدي محمد فدلّ عليه فقال له: قم فقام وذهب معه إلى أن غاب عنّا فخفنا عليه لعدم علمنا بحاله ولما مضت مدّة يسيرة رجع إلينا ذلك الرّجل وقال لنا إن السيد محمد عند السيد محمود الدجاني - وكان قد عرفه في بيت المقدس ونزل في زاويته - في فص قلاس[1] وهو أحسن موضع في السّكة ثم أتى بعده السيد محمود يخبرنا بأن سيدي محمد عنده لتطمئن قلوبنا من الخوف عليه».

في مصر مرة أخرى والعودة إلى الوطن

وقف القطار بهم في القنطرة واستقلّوا قطاراً آخر إلى مصر، وقبل الدخول «خرجنا منه إلى محل التّفتيش وقابلنا من يتولاه بوجه بسّام وأكرمنا غاية الإكرام وبادرنا بأمتعتنا قبل غيرنا من أهل الإسلام والكفرة الطغام من غير تنكيل، فخرجنا من محل التنكيش «التفتيش» بلا عناء كثير، وأخذنا ورقة كرا «أجرة» ركوب السكة وركبنا فيها إلى مصر» ويسير بهم القطار يقطع الفيافي والأودية حتى وصلوا مصر الساعة الخامسة ليلاً «ودخلنا الجامع وبتنا فيه وبعد صلاة الفجر قرأنا الأوراد».

وقبل انتهاء رحلتهم يذكّرهم أحدهم بزيارة المتحف فيتوجّهون إليه ويسميه كاتب الرحلة بدار العجائب يقول: «ذهبنا إلى بيت العجائب لقصد الاعتبار والادكار والنظر إلى قدرة الله العزيز الغفار، فدخلناه فنظرنا فيه الملوك المتقدّمين مصبَّرين «محنّطين» عليهم شعورهم وبالي أكفانهم وصورهم قائمة وعيونهم غائرة فنظرنا منظراً ما أشنعه ومرأى ما أفجعه فهم عبرة لمن اعتبر، وتذكرة لمن تذكّر ورأينا آنيتهم القديمة وآلاتهم وغير ذلك

---

(١) لفظة انجليزية بمعنى درجة أولى.

من العجائب والغرائب فأخذ بنا العجب أقصاه».

وفي يوم الاثنين ستة عشر رجب يتوجّهون إلى السّويس لركوب البحر إلى عدن فينزلون الفندق وفي اليوم التالي يرحلون إلى عدن وفي الطريق في خلال البحر «وقعت لنا ضربة شديدة وهاجت الأمواج، حتى صار المركب يضطرب يميناً وشمالاً وأماماً وخلفاً وقاسينا مشقة، وليلة من الليالي اشتد الريح حتى خفنا الهلاك وقرأنا ثلاثة أجزاء من صحيح البخاري» حتى وصلوا عدن بعد مرور اثني عشر يوماً في البحر «لأنه مر في أماكن كثيرة منها برّ السّودان والحديدة والمخا ومصوع وعصب ومكثنا في مصوع يوماً وليلة».

ثم تنتهي هذه الرحلة، وفيها كثير من الاختصار حيث حشاها كاتبها بوعظ صاحب الرّحلة وكلامه رحمه الله إذ الهدف من كتابتها والرحلة عموماً الإرشاد والتذكير بأيام الله، والحمد لله على الختام.

الحامد ورحلة جاوة

رحلة الأديب اليمني الكبير صالح بن علي الحامد من الرَّحلات الأدبية القيِّمة، وهي تتميّز بالجمع بين الأسلوب الوصفي الحديث وبين جمال التَّعبير؛ وإشراق البيان، ولا غرابة في ذلك فكاتبُها أحد الأدباء الكبار الذين قالوا الشعر الحديث، وجاروا فيه أصحابَ المدرسة الحديثة في مصر والشام، ورحّالتنا هو الرَّائد لهذا النوع من الأدب في اليمن كما بيّنا ذلك في بحث مستقل.

وتكادُ تكونُ رحلتُنا هذه الرّحلة الوحيدة التي خّطها يراعُ أديب يمني متمرّس بفن الكتابة، ولذا فهي تنفرد عن زميلاتها بميّزات لا نجدها في غيرها.

صالح بن علي الحامد:

ولد الأديبُ صالح بن علي الحامد بمدينة سيؤن من حضرموت سنة (١٣٢٠)، وتفرّغ للعلم، وسعى في طلبه، حيث هيَّأ له والدُه أسبابَ التَّلقِّي من شيوخ وكتب ونحوها، وكان دائماً - في حياته العلمية - توّاقاً للبحث والاستكشاف.

وقد تعرَّف بواسطة المجلات الأدبية التي كانت تصله إلى روح الحياة الأدبية التي يعيشها العالم العربي في ذلك الوقت، فما كان منه إلاَّ أن جاراهم، وبرّز في أساليبهم المعروفة عندهم، وقد أصدر ثلاثة دواوين من الشعر العصري الحديث، وكان لظهورها أثرٌ كبيرٌ في الحركة الأدبية في حضرموت. وكان مع اشتغاله بالأدب والتأليف قد تولّى عدة مناصب حكومية، وظلَّ يدأبُ في الإنتاج الأدبي والعلمي حتى أدركته الوفاة سنة (١٣٨٦).

رحلته إلى جاوة:

هذه الرّحلة لا تزال ضمن إنتاج أديبنا المخطوط، وقفتُ على نسختها بخط مؤلفها، وهو خط في غاية الجمال، وقد صاغ كتابتها على الأسلوب الحديث: من وضع للعناوين الفرعية، وكتابة الأسماء الأعجمية بالحرف اللاَّتيني، والاعتناء بالفواصل والعلامات، إلى غير ذلك. وكأنه هيَّأ هذا المخطوط للطباعة ولم يتيّسر له ذلك. والله أعلم.

ومن الدّيباجة يتجلَّى لنا أسلوبُ الأديب الفني. يقول شارحاً أسباب الرحلة:

«غيرُ خافٍ على القارىء اليقظ شأن جزائر الهند الشرقية، ومكانتها في العالم، وما آتاها اللهُ من حسن الموقع، وخصوبة التربة، وجمال المنظر، حتى أصبحت من أهم بقاع الدنيا وأشهرها، وذلك راجع لجمالها

ولخصوبتها ولكثرة ما تنتجه من المواد الضرورية وما تصدّره من ذلك إلى العالم».

وبعد الإشارة إلى مكانة جاوة الجغرافية والاقتصادية يقول إنه سبق له الرّحلة إليها عام (١٣٤٦) وعام (١٣٥٠) وعام (١٣٥٤): «وقد عنّ لي عند هذه الزّيارة الأخيرة أن أكتب ما تيسَّر لي كتابته عن هـذه الجزيـرة الجميلة، وتاريخها، وسكانها، وهجرة العرب إليها وتطورهم، ووصف ما يمكنني وصفه من محاسن هذه الجزيرة وعجائبها».

بداية الرحلة:

والآن إلى السّفر، ففي «يوم الثلاثا ١٨ رجب سنـة (١٣٥٤) جدّ عزمي على الرحلة إلى جاوة، فقصـدت إدَارة شركة بـواخر «المنسفيلد» الإنجليزية، وأخذتُ تذكـرة في إحدى بـواخرهـا المترددة بـين سنغافـورة وأستراليا، وهناك أُحِطْتُ علماً بميعاد سفر الباخرة».

وقد أبحرت بهم الباخرة، وهي من النوع الكبير الجيّد: «تجافت بنا الباخرةُ عن رصيف سنغافورة شيئاً فشيئاً، ثم انحرفت إلى اليمين، ودارت حول نفسها، ذلك لأن سنغافورة كانت نهاية مدى رحلتها من أستراليا. فبعد أن كان رأسها إلى جهة الغـرب صار إلى جهـة الشّرقِ وبينـا ترى الرَّصيف إلى يمين الباخرة إذ أنّا نراه عن يسـارها. فعـرفتُ عزمهـا على الإقلاع، فذهبت إلى خلفهـا، ووقفتُ على سيـاجها نـاظراً إلى صفحـة البحر؛ فإذا هي بدت خلف الباخرة تتكسَّر وتَبْيضُّ من الرّغوة؛ حتى كأنها صفحة زبرجد أصابها تهشّم من صدمة».

تلك خواطرُ أديبٍ مزج فيها الوصفَ بالخيال. وقد أدرك رحّالتُنا أن باخرته قد أقلعت، فما عليه إلاّ أن يواصلَ الأحلامَ مع عليـل النّسيم، وصفاء الجو:

«أدركتُ أن البَاخرة تحرّكت للجري، فنظرت فإذا الرَّصيف وعليه

بعضُ المودِّعين يبتعدُ، فكأنما يجري بهم هارباً على عكس الواقع. ومضت الباخرةُ تدوس غوارب الموج، وتشق أديم البحر، فصرتُ أرى البحر الجارف يجري إلى خلف، وأرى الجزائر من حولي كأنما تجري معنا لتشيّعنا، حتى إذا أعوزها اللّحاقُ بنا تركتنا».

وهكذا استمرّ في خواطره عبر صفحة الموج، وقد شق بهم المركب حِطَمه[1]: «ولبثت أرسل النظرة تلو النظرة إلى سنغافورة، حتى إذا غابت عنِّي قصورُها الشاهقة وعماراتها الفخمة، ولم تبق إلا أشجار نخيلها السَّامقة ودعتها قائلاً: وداعاً يا عروسَ ولاية المضيق، ولكن إلى الملتقى».

إننا الآن في رحلة أدبية يصحبنا فيها صاحبها بمشاعره وأحاسيسه، وهو شيء جديد علينا لم نعرفه من قبل وفيما سبق في هذا المجموع من الرحالة، فكان أديبُنا الرحالة بِدعاً بينهم.

وفي الباخرة، وقد أوى إلى فراشه، يستوقفه مقالٌ في مجلةٍ أخذها معه، يذكر فيه صاحبه «النّعي على الشرقيين حرمانهم من متعة النَّظر في النجوم، والتملّي، للقمر، وعدم الانتفاع بسطوح المنازل إلاّ عند الحاجة».

وقد أثار هذا المقالُ في نفس رحالتنا مشاعرَ نفسيّة حول وطنه في حضرموت «فأذكرني ذلك متعةً كنتُ حرمتها منذ زمن، أعني منذ فارقتُ وطني إلى ذلك اليوم، وبعث لي ذكريات صارت لي وأنا في رحلتي إلى جاوة، وهي الأنس بالظَّلام والقمر، والتَّنعم بالنظر إلى النّجوم، والتمتع بمطالعة وجه البدر الحبيب. ذلك أنّا معشر سكان حضرموت، وكذلك غالب سكان الجزيرة العربية، لسنا كغيرنا ممن حُرِموا الانتفاع بسطوح منازلهم، بل كانت السّطوح في الانتفاع بها كالغرف تقريباً، ففي الصَّيف لا يوجد من يبيت مختاراً تحت السّقف إلاّ نادراً».

وقد أثار في نفسه مقالُ صاحب المجلة الشوقَ إلى رؤية السَّماء،

(١) «حطمه»: يقال: راع حُطَمة: كأنه يحطم المالَ لعنفه في السوق.
والمعنى: يشق المركبُ الموج بقوة وعنف.

فيغادر غرفته، ويصعد إلى سطح الباخرة مع أحد أصدقائه: «وعلوتُ سطح الباخرة لأتنزّه قليلاً، وأجتمع ببعض الزملاء العرب. وجلسنا ننظر إلى البحر وهو كأحسن ما يكون هدوءاً وجلالاً، وكان البرّ لا يزال ماثلاً عن بعد الجهتين، إذ لا نزال نقطع ما بين الجزائر. وكان المنظرُ مهيباً رائعاً؛ إذ كانت الشمس قد مالت إلى الغروب لولا أن حالت دونها طبقات من السحب ذات الألوان، وكأنما حجبت عنها الشمس لكي لا يشغلنا منظر الشمس عنها، مشعرة بأنها أحقّ بالنظر إليها هي، وكانت أشعةُ الشّمس تبعث لنا من بين لفائف تلك السّحب؛ فنرى في ذلك منظراً رائعاً كاللَّهيب خلف الدخان الكثيف».

وتمضي الباخرة تشقُّ أمواجَ البحار، وأدبنا بين أحلامه وخيالاته، حتى يصل إلى البلد المقصود وهو جزيرة جاوة

«في ضحى يوم السّبت ٢٢ رجب ظهرت لنا جزيرة جاوة الخصيبة، وما كانت الساعة الثانية عشر إلَّا ربع إلا وقد ألقت الباخرة مراسيها في مرسى بتافيا، ونزلنا من على ظهرها حيث تلقانا لفيف من الإخوان العرب».

وهنا يستطردُ في وصف جاوة وتاريخها وسكانها ودخول العرب إليها مما لا حاجةَ لنا به هنا، حتى يشرعَ في ذكر الرحلة، ويقول في الحديث عن شأن الجمرك وأمر التفتيش:

«لقيتُ عناءً شديداً من التفتيش في هذه المرة مما جعلنا نؤمن بأن هناك إيعازاً سريًّا علينا، أو على ما يظهر على بعض الزّملاء، وأنّ الأَمر لا يخلو من دسّ وسعاية، فقد فتشت حتى باطن أحذية بعض الزّملاء وعمائمهم، وكأنما أرادت السلطاتُ حين أصبحنا على شاطىء جاوة تحقيق أنَّ جاوا جنة، ومن شأن الجنة أنما حُفَّت بالمكاره».

وبعد الفراغ من أمر التفتيش ينزل ضيفاً عند أحد أقربائه في تلك

البلدة، وتبدأ أحداث الرّحلة وهي في الغالب لقاءات واتّصالات بأصدقائه من الجالية العربية هناك، وما أكثر الولائم والمآدب التي كانت تقام بمناسبة قدومه! مما يدلّ على مكانته في نفوس النَّاس في تلك الأصقاع، وهم قومه من العرب المهاجرين الذين هاجروا لأجل البحث عن لقمة العيش، وقد تأثلوا[١] هناك، وأصبح لهم مكانة تجارية كبيرة.

وفي جاوة يستقر في بلدة هناك تسمى «بتافيا»، وفيها مجموعة من المهاجرين الحضارم، وكان بينهم في حفاوة بالغة شملت أكثر فصول الرّحلة.

ومع هذا الاحتفاء فقد زار أكثر بلدان جاوة، ووصفها بما يناسب المقام من إسهاب واختصار، على أنَّ إعجابَه كان متركّزاً في الإنبهار بجمال الطبيعة في تلك البلاد؛ من ذلك إقليم هناك يسمَّى «الفرياغان» يقول في وصفه:

«وسكانُ هذا الأقليم هم جنس السّند، ولهم لغة خاصة لها جرس لطيف، وهي بلاد زراعية كسائر جاوة، غير أنها تمتازُ بأشياء لبرودتها الناتجة من ارتفاعها، وكونها جبلية كثيرة الهضاب تصلح لبعض الأنواع التي لا يلائمها الحر. وجبالُها في الغالب مزروعةٌ، وقد شاهدتُ بعض الجبال المزروعة إلى قممها. وهي إقليم جميل المناخ في الجملة اختصّ بكثرة مباهجه الطبيعية، ولذا خصّته الحكومةُ بمزيدٍ من عنايتها في الطرقات وغيرها؛ فكان لا يبرحُ طول السّنة متنزهاً للسواح والمتنزهين. وكأنَّ جمالَ هذه البلاد قد انعكس على سكانها، فامتاز أهلُ الناحية بزيادة وداعتهم ولطفهم وحسن أذواقهم وأناقتهم في اللّباس وغيره حتى ساكني القرى والجبال النائية».

ويزورُ في هذا الإقليم بلدة تسمَّى «سوكابومي»، وقد أعجبه فيها مظاهر الحضارة وجمال الطبيعة: «وزاد من حسنها وشهرتها ما يوجد بجوارها

(١) تأثلوا: أي تأصلوا.

وضواحيها من المتنزهات وأماكن الرِّياضة، كما يوجد بجوارها من المباهج الطبيعية الشيء الكثير، ومن فنادقها المشهورة فندق (سالابنتانا) الجميل المطلّ على البركة الجميلة. ولا أنسى أنستا في يوم من أيام جني «البطاطس» إذ ذهبنا في فسحةٍ حيث أممنا في جوسق مطلّ على تلك المزرعة في سفح الجبل العالي، المنحدرة من أعلاه سواق تتسلسل بالمياه، وما احيلاها! إذ تنسابُ بين تلك الحقول والمزارع، فيبعث مرآها في النفوس الرّوح والبهجة».

وفي تلك المزرَعة يعيش أكثر يومه في سرور وبهجة: «ظللنا في ذلك الموقع الجميل تبهجنا تلك المناظر الطبيعية السَّاحرة، وتنعش أرواحنا تلك النّسمات المعطرة بأعراف الزّهر والأعشاب، وتطربنا بالإضافة إلى أنغام الطيور أنغام شَتَّى من الأغاني».

وهناك يقف على زراعة الشاي وطريقة حصاده وصناعته، ثم يواصل رحلته: «ومضينا في ذلك الطريق في جبال ووهاد تنهب بنا السّيارةُ المسافاتِ نهباً، بين تصويب وتصعيد تحفّنا من الجهتين مناظر الجبال الخصيبة والتلال المجللة بسْنادس الأعشاب. ومررنا على موضع يقال له أبرق» حيث تنصبّ المياه لتوليد، القوة الكهربائية في أنابيبَ ضخمة جدًّا يقف الرجل قائماً في عرض جوف الواحدة».

وقد استوقف نظره هناك في جموع الناس نظافة ملابسهم وعنايتهم بالأناقة: «أعجبت من أناقة سكان هذه الأقاليم ولطافة أذواقهم وحسن ملابسهم».

وبعد هذه الرِّحلة القصيرة لذلك الإقليم يعود إلى مقرّ سكنه في العاصمة «بتافيا»، ويقترح عليه مضيّفه أن يزور متحف البلدة: «فذهبنا إليه معاً، وقد راقني حقًّا هذا المتحف، فقد طفت في أقسامه، وأعجبت جدّاً بحسن نظامه، ودقة تنسيقه، وأدهشني ما اشتمل عليه من بدائع

الطرف والنفائس، علاوةً على ما فيه من الأدوات التاريخية لهذه البلاد، وقد رأيت فيه من الجواهر النفيسة والألماس ما قطره قطر بيضة الحمام. ومن عجيب ما رأيت في هذا المتحف تلك الخريطة العظيمة المجسّمة لجزيرة جاوة؛ التي ملأت قاعة الغرفة المعدة لها».

ومن «بتافيا» ينطلق أيضاً إلى «سورابايا» من مدن جاوة الكبيرة، وقد اكتظَّتْ بكثير من المهاجرين الخضارم. وقبل الوصول إليها يصف الرحلة بالقطار، وما شاهده في الطريق من مباهج الطبيعة:

«وما هو إلَّا أن زفرت القاطرة زفرةً كأنما تنفست الصّعداء سآمة للإقامة، وعند ذلك تُبودلت حركات الأيدي بين الركاب والواقفين وجرت باسم الله مجراها ومرساها، تمشي رويداً، حتى إذا ابتعدت قليلاً أطلق لها العنان ومضت كالعاصفة الهوجاء تعتسف السّهول، وتقتحم الأودية، وتتسلق حيناً ظهور التّلال في غير كلال ولا ونى، فتستقيم حيناً كما يمضي السَّهم، وتتلوّى تارةً كما يتلوّى الثعبان.

مضَينا في ذلك القطار السَّريع تحفّنا عن قرب وبعد آياتٌ من بدائع الطَّبيعة؛ تملأ الفؤاد غبطةً، وتفعمه جلالاً وسحراً، حتى لقد خيل لي أننا في معرض للجمال الطبيعي حافل، جمعت فيه الطبيعة كلّ ما تملك من مظاهر الروعة والجمال. وأن هذا القطار ليس إلا دليلاً خرّيتاً يذهب بنا في عجائب ما أبدعه بديع السماوات والأرض من بديع إلى أبدع، على نماذج سامية من الجمال الطبيعي، أو كأنما يقرأ بنا سطوراً من آيات الجمال ناطقة بجلال الله وقدرته، فمن روضة غناء إلى غيطة لفّاء، إلى نهر جميل، ومن جبال موشّحة بحلل مزركشة من الأعشاب إلى أودية سحيقةٍ فسيحة، تكسوها حللٌ سندسية بما نسجته أيدي السّحاب، يبهرك انخفاضُها بجانب ما يتجلّى حولها من مناظر الهضاب المريعة».

تلك صورة لمشاهد الطَّبيعة كما مرَّ عليها رحّالتنا، رسمتها يدُفنّان

قدير لا يعوزه دقة التَّعبير وجمال الوصف، وهو الأمر الذي نكاد نفقده عند مَن سبق مِن الرَّحالة الذين عرضنا لهم.

وما زلنا في القطار مع الرّحالة وقد بهره ما رآه يقول: «ومع بعد المسافة وطول الجلوس على مقاعد القطار لم يعرض لنا مع يعرِض في مثل ذلك عادةً من السآمة والملل لتنوّع ما يعنّ للعين من مباهج الطّبيعة، ولتطلّع النفس لما سيعرض لها من مناظر جديدة، فممّا يثيرُ الدهشةَ والإعجاب أنّ القطارَ يقطع بين «بتافيا» و«سورابايا» نحواً من ثمانمائة كيلومتر، وكأنما يجري في مزرعة واحدة متصلة».

وأخيراً في «سورابايا»:. وهي مدينة عظيمة عامرة، ذات أهمية تجارية، وبها كثير من المعامل للمطاط والكحول والصّابون وغير ذلك، وفيها دور لصناعة السفن، كما يوجد بجوارها مصانع كبيرة لتكرير البترول وغير ذلك. وفيها مبانٍ عجيبة تعدّ النهاية في الفخامة بالنّسبة لتلك البلاد. كما أنها تحوى على فنادق جميلة وملاهٍ عديدة، ومنتزهات ومطاعم ومتاحف ودور للكتب، إلى غير ذلك.

أما ميناؤها فحسن، وهو قاعدة للأسطول الهولندي في الشرق الأقصى، وشوارعها جميلة وفسيحة تناسب فخامة مبانيها، على أنَّ أغلبَ مبانيها يتركَّبُ من دورٍ واحدٍ شأن سائر بلدان جاوة».

ومن «سورابايا» يلقي نظرة على مدن قريبة لها أسماء أعجمية يصعب كتابتها هنا، فنكتفي بمشاهدته في بعضها يقول: «أحسستُ أنني في أسعد أيامي وأضوئها، ونسيت كلّ المشاغل والهموم التي كنتُ منغمساً فيها إلى ذقني» وذلك عندما كان في قرية من تلك القرى.

وفي هذه الرِّحلة يدركه رمضان فيصوم شهره في تلك الأصقاع، وهو يشرح روحيّة ذلك الشهر الكريم في نفسه فيقول:

«لرمضان كما يعرف النَّاسُ لذّة روحية عميقة الأثر، يرى بها الصَّائم

الانقلاب فجأة من جو الفطر إلى الصِّيام، ويحس بالخروج من كثافة ذلك وما ديّته إلى لطافة هذا وروحانيته، والروح دائماً تغالب الجسم في الميول والنزعات».

وقد انقضى رمضان، وتلاه العيدُ فتتراءى له مواكبُ النَّاس وفرحتهم بالعيد: «وفي فجره ابتسم صباحُ العيد السعيد، عيد الوفاء بواجب الصِّيام واستئناف الفطر، والتمتع بما أنعم اللهُ من طيبات ما أحلَّ من الطَّعام والشراب.. ها هي ذي الوجوهُ طافحة بالبشر، والصّدور فائضة بالهناء، فلا ترى أينما التفتَّ إلا ثغوراً باسمة، وقلوباً مرحة، ومنازل تكاد تطير بأهلها لما عراها من مظاهر الزّينة وعمها من أمارات الفرح والابتهاج».

وما كان له من نزه أخرى نجدها إلى جزيرة تُسمى «الرَّمل الأبيض» للتفرج: «على ما أبدع البارىءُ من مظاهر الحسن والجمال الطبيعي والصّناعي أيضاً في هذه الجزيرة البديعة، وما أسفر صباحُ يوم الاثنين ٤ شوال إلاّ وقد هيأتُ نفسي، وأعددتُ العدة، فلما بسطت الشَّمسُ سلطانها على الآفاق إلاَّ وقد استقلت بنا إحدى بنات النجار آمّة بنا ميناء «بناروكان».

حتى يصل إلى تلك الجزيرة: «وهو الموضع المقصود، وعرفتُ أنّ المحل كان فارغاً من المتنزهين المزاحمين تماماً، فعند ذلك خرجنا نعدو ونستبق، حتى ولجنا «أوتيل» المنتزه، وهناك ألقينا بعض معداتنا، وخرجنا على ذلك الشاطىء المنير نلهو حيناً ونمرح تارة».

ومكث يومه يستمتع بنزهته تلك: «إذ لبثنا نملأ الصدور من أنفاس ذلك الهواء المعطّر المشبع بأعراف الزَّهر الباسم، وكان الجوّ بهيجاً، والبحر رَهْواً منيراً زاهراً؛ يملأُ الفؤادَ روعةً وجلالاً، والمناظر تبدو عن قرب وبعد وعلى الروابي حافلة بآيات من بدائع الطبيعة وروائع الجمال». إلى آخر ذلك الوصف الأدبي لتلك النزهة الرائعة، وهو لا ينساها في عمره، حتى

إنه يقول في هذا الشأن:

«حقًّا إن من الأيام ما يكون غرّة في جبين السنين، كما إن منها ما يكون غرّة في جبين الحياة كلها، ذلك اليوم الذي يخرج بصاحبه عن جميع تكاليف الحياة وقيود المادة إلى التفكير في ذينك جميعاً إلى عالم الروح الطلق، فيغدو كالطفل الغرير؛ الذي لا يرى في الوجود مقلق لسعادته ورفهه، وإذ كل ما وجد وسيوجد لم يكن إلاّ وسيلة للعبه ولهوه».

وعلى كلّ فقد انتهتْ هذه الجولةُ بين المروج سريعاً: «وعدنا إلى الأوتيل «المطعم» المطلّ على الضّفة المنيرة، وقعدنا على مائدة حضرت عليها أكواب من ماء الليمون المبرد وبعض الفواكه الشهية، وجلسنا مصوّبي الأنظار نحو الخضم، وما يحيط به من التّلال والجبال التي وشّحتها بخير ما نسجت من سنادس الأعشاب».

وبينما هو في تلك الجلسة تُعاوده خيالاتُ الشَّاعر وأحلامه: «وأحسست أنّي في تلك الساعة السَّعيدة واجداً تماماً اللذاذة والمتعة بالإحساس بنعمى الحياة الهنية؛ التي يقول عنها الشعراء أنها كأنما استعيدت من فردوس الخلود؛ تلك الساعة السَّعيدة التي لا أزال أرى أن التعبير يضيقُ ذِرعاً عن وصف شعوري بها ووجد اني فيها، حتى لقد يمعنُ بي التّفكيرُ حيناً فأعدّها من قبيل الأحلام التي ترتفعُ بالمرء عن مستوى الأمور المألوفة إلى ما وراء العقل والمادة».

وهكذا تكون الرّحلة والتَصوير عندما يكتبها أديبٌ شاعر، فهو لا ينسى أن يُدوِّن كُلَّ ما يخطر في باله من أحاسيس وأفكار؛ على أننا سنتابعُ مع رحّالتنا ما هجس به الخاطرُ في تطوافه ذاك، ونجده يخترقُ البلاد طولاً وعرضاً، مُعجباً ومُندهِشاً، وربّما وصل به الأمرُ في المشاهدة إلى الانبهار الشديد، وكأنه وَصَلَ إلى بلادٍ هي الجنة نفسها، وما ذاك إلا أنه عاش في بيئته الأولى حياة متواضعة ليس فيها من مباهج الجنة نفسها، وما ذاك إلا

أنه عاش في بيئته الأولى حياة متواضعة ليس فيها من مباهـج الحياة مـا يذكر، فكان وصولُه هنا علامة الاندهاش والإعجاب مع فـرحة بـالحياة وتطلع إليها.

إليك ما شاهده في منتزه يسمَّى «آيرمادة» من جزر «جاوة» الكثيرة: و«آيرمادة» هذا موضعٌ جميلٌ، ومنتزه بهيجٌ يحتوي على مجموعةٍ من البرك والمنابع المائية، وهو من العاديات القديمة لا سيّما البركة السفلى المطلّة على الوادي، وهي بركة عظيمة مستبحرة مستطيلة الشكل، ولم تكن على شكل هندسي بل كانت أقرب لأشكال الغُدُر الطبيعية، إذ كان جانبٌ منها أوسعُ من الآخر، وقد شاهد الماء ينحدرُ إليها من مجاري متعددة، منها ما كان على صورة الفيل وكان الماء يزخرُ من فيه، ومنها ما هو في هيئة غير ذلك، وإلى جانب هذه البركة هضبة أشبه بأن تكون صناعية، وإلى جانبها حائط صغير يحتوي على عددٍ من الميازيب الحجرية متفاوتة في كبرها وقطرهـا، يسيل منها الماء بقوّة واندفاع شديد، وإلى أسفل منها ساقية تندفعُ بشدّة متناهية من ثغرة واسعة حتّى لا يكاد يقرّ أمام اندفاعها الرّجلُ إلا متماسكاً. ويمتاز ماؤها ببرودة زائدة وأعلى من هذا بركة استحمام يظهر أنها حـديثة البناء والصنعة، إذ كانت على الطراز العصري».

وبعد هذا الوصف المستفيض للبركة الأثرية: «وصلنا إلى هذا المنتزه العجيب فارتعنا لحسن منظره، ومنظر المجالي المحيطة به، وأخذنا نطوف على البرك والميازيب، وانشرحت أرواحُنا جدًّا لهذا المرأى البهيج، الذي أنفقت الطّبيعة والصناعة عليه بسخاء زائد لا سيما في مياهه المتـدفقة في جميع نواحيه».

وتكثُر هذه المنـاظرُ عنـد أديبنا في رحلتـه، وهي جميعاً في الغـالب متشابهة الصّور والأشكال، وهي مـا بين مـروج وأزهار وأنهار، وَوَصْفُ الرَّحالة لهذه الأشياء يُعْتَبَرُ من بـدايات الأدب اليمني الحـديث، حيث لم يسبق أديبنا في مسلكه هذا أحدٌ قبله. ولذا سنعتبر أسلوبه الفني الأدبي في

هذه الرحلة وثيقة أدبية عظيمة؛ نكتشفها في رحلته المخطوطة هذه. فليعذرنا القارىء إذا أكثرنا من النَّقل عنها، فالحديث ذو شجون.

خذ من ذلك وصفه لحديقة هنا تسمى «ماجورة»، وقد أحيطت بها التماثيلُ والأعمدة: «كان هذا المنتزه مؤلفاً من بركة عظيمة مربَّعة الشكل؛ إلا أنها مستطيلة يبلغ طولها نحو مائتي متر؛ إذ كان عرضها لا يزيدُ على خمسين متراً، فهي لكبرها وسعتها عبارة عن بحيرة مهندسة، وقد نصب على طرفها تماثيل «باليه» الفن، يسيل الماءُ من أفواهها، وفي وسطها بيت عجيبٌ خشبيّ السقف يصله بسطها جسر خشبي. وكانت البركةُ على جانب الطريق لا يفصلها عنه إلا حائط من القضبان الحديدية. أما جانبها الآخر فإليه بستان جميل جمع أصنافاً من الأشجار المثمرة البهيجة منسّقة على أحسن نظام».

ويأخذ بمجامع لبّه روعة الماء وقد سلطت الشمسُ عليها أشعتها: «وما أبدعه منظراً آخذاً بمجامع القلوب منظر «تلك البركة وقد انعكست عليها أشعةُ الشَّمس وظلال الدّوح المتبرجة بحللها السندسية، وأي شيء أبهج للنَّفس من مرآى الماء وهو يجري منصبًّا إلى تلك البركة، بل تلك البحيرة الهندسية المتباعدة الأكناف، يزينها ذلك المنزلُ الذي يُرى كأنه طاف، على ظهرها تحفُّ به بعضُ التماثيل وإلى جانبها ذلك الرّوض المريع الأزهر».

ومن مشاهده في «جاوة» ـ وهو لا يزال في جزيرة منها تسمّى «بالى» ـ رؤية المعابد والطقوس الدّينية: «خرجنا من «ماجورة» فعلونا سَيَّارة قاصدين «ليسار» وهو ماء ينصبّ إلى غدير مُهندَس، مربَّع الشكل، وحوله معبدٌ يظهر أنه بُوْذيّ، زعموا أن قوماً هناك كانوا يتعمدَّونه. فعندما وصلنا هذا الموضع قصدنا البركةَ فإذا هي بركة واسعة ينصبُّ إليها الماءُ من فم تمثال تمساح عظيم، وهي شُبه بركة «آيرماده» السَّفلى ولكنها مربّعة الشكل. ويبدو عليها أن الحكومة أهملتها وتركت العناية بها إذ بدا الخرابُ في بناء

حائطها الحجري. وصلنا إلى المعبد وهو معبد بسيط لا يشبه المعابد «الباليه» بحال، وإنما هو عبارةٌ عن جوسق خشبي منصوب في صدره صنم صغير. وجدنا أمامه عجوزاً جاثية تهمهم ملوّحة بيديها فهمنا أنها راهبة هذا المعبد. وإلى جانبه مباشرة غدير ماء طبيعي، في أثنائه صخور عظيمة يغمرها الماء، قيل لنا: إن هذا الماءَ المقدَّس، وإن فيه أسماكاً تقبع في غضون الأحجار، وفي ثقوب بجوانبه. قالوا: وهذه الأسماك لا تُصاد، وإنما هي مُحترمة مقدَّسة عند هؤلاء القوم. وأشير علينا بأنه إذا أردنا ظهورها فما علينا إلا أن نلقي شيئاً من بيض الدّجاج الناضج، فقذفنا شيئاً منه فعند ذلك انهالت عليه الأسماكُ من شتّى النواحي».

ويشهدُ حفلةً في تلك الجزيرة في ذلك المعبد نفسه يقول: «وبجانب هذا المعبد جوسق أصغر كالمظلة، يرتفع عن الأرض بنحو متر، فجلست عليه، وجاءت فتاةٌ فجلست بجانب العجوز، وأوعزت إليها العجوز بإحضار ماء في كوب كان بجانبها، وأحضرت وعاء فيه أزهار وشيء من الحشائش الزكية الرائحة، فوُضِعَ إلى جانب الصَّنم. وأقبلَ قومٌ يزفّون ويرقصون في طبل وزمر وعزف بشتّى الآلات، وأمامهم ثلاث فتيات مزيّنات بالأزهار، ولما بلغوا إلى المعبد أسكنوا آلاتهم وأوقفوا من زمرهم ورقصهم، وجثوا حول هذه العجوز الدَّردبيس، ومكثوا كذلك برهةً. أما العجوز فلبثت تهمهم للصنم، ثم أخذت الماء والزهر وأمرت مَن طَافَ به على هؤلاء ليأخذوا حظَّهم من هذا الزَّهر الطيب، وليتناولوا من الماء المقدس عندهم ما يدلكون به أيديهم ووجوههم للتّبرك بزعمهم، ثم نهضوا وحملوا آلاتهم وعادوا لزينتهم وزفّهم، وأمامهم فتاتان من أولئك الثلاث ترقصان، وقد جمّلتا بالأزهار، وجعل لهما منه عصائب وَوُشُح، أما الثالثة فاعتزلت الرقص خجلاً منّا ودلالاً بحسنها» إلخ.

ويقف في تلك البلدة عند رؤية الأبقار وتمساح هناك وضع للمشاهدة، يقول: «ثم قمنا واستأنفنا السّير إلى حيّ يُقال له «نيور» لرؤية التمساح الأهلي، فحين دنونا ترجَّلنا من السيارة، ومن العجيب أن من

عادة أهل هذه البلاد أن يجعلوا لكل بقرة ناقوساً خشبياً معلّقاً بعنقها، ويطلقون البقر للرعي، فكنّا نرى قطعان الأبقار عن قربٍ وبعدٍ، ونسمع لهذه النّواقيس الخشبية قرعاً كقرع الطبول».

ثم يصل أخيراً إلى التّمساح الحبيس: «فوجدناه في زريبة عليها شبك من الحديد، وعندما شاهدناه لوَّحنا له من خلال الشّبك بشيءٍ من الخبز فدنا إلينا والتهمه، وظهر لنا أن هذا التمساح كبير السِّن جدًّا. والغريب أن هذا التمساح قد مضى له أكثر من ثلاثين عاماً وهو آنس بالإنس، مكتفٍ بالحياة البرية لا الماء إلاّ لشربه، وأغرب من هذا أنه يخرج كل يوم يدور حول زريبته ثم يعود إليها آنساً بأهله وأبنائهم الذين يتعهدونه بالطَّعام كل يوم».

ولا نزال في سياحتنا مع الرَّحالة في ربوع «جاوة» الخصيبة، فهذا منبع طبيعي يصادفه في تجواله في بلدة تسمّى «سرنادى» يقول:

«وهو موضع به منبع على جبل أخضر تحيط به مناظرُ بديعةٌ جدّاً، وعندما بلغنا سفح هذا الجبل نزلنا من السّيارة، وصعدنا مشياً على الأقدام، حتى بلغنا إلى المنبع وكان في بقعة مستوية مجللّة بالحشيش. ورأينا وسط هذا الحشيش حفرةً مربَّعةً غير عميقة تشبه البركة تماماً، لا يزيد عمقها على الذِّراع والنِّصف، وفي إحدى جهاتها الأربع شقّت من الوسط ساقية في مثل عمق هذه البركة إن صحَّ التَّعبير، يجري منها الماءُ إلى مسله إلى أسفل. شاهدتُ هذه الحفرة والماء ينبع منها، فرأيتها كقدر الأرز حين يشتَدّ غليانه إذ كان الماء يفور من جميع نواحيها دافعاً للرّمل إلى فوق، فكان منظرُه عجيباً ومدهشاً جدّاً».

كان هذا المنبع الطبيعي من المناظر التي اندهش لها الرَّحالةُ، بقي عليه في رحلته نُزَهٌ أخرى متعدّدة، نجده لا يبخل علينا بوصفها وتصويرها فيما كتبه، وهو ولوع دائماً بالنَّظر إلى سحر الطَّبيعة وجمالها، فنَّان في تذوق

واكتناه بدائع الصّنع في مخلوقات الله. وعندما عاد إلى «سورابايا» وُصِف له فيها منتزهٌ آخر لم يره مِن قبل، وهو يبعدُ عن البلد بمسافة، فلا يثني هذا عزمه، ويتجشَّم السَّفر والذهاب لرؤية ذلك المكان: «وهيّأتُ نفسي لهذه السياحة التي أتخيل أنها ستكون جميلة وممتعة. وجاء الزملاء الكرام فذهبنا إلى المحطّة، واستأجرنا سيارة إلى «مالاغ» ومن تلك السَّاعة بدأنا نستروحُ أرياح البهجة والانشراح؛ حينما انبرى النَّسيم يتابع قبلاته الناعمة على صفحات وجوهنا، وذهبت بنتُ البخار «السَّيارة» تجولُ بنا على نماذج عالية من فن الطَّبيعة السَّاحرة. مضينا وقد بدأ اللَّيل يُرخي علينا سدوله، وكانت وجوهُنا طافحةً بشراً، وأفئدتنا ممتلئة غبطة وانشراحاً، حتى بلغنا مدينة «مالاغ» بعد أن قطعنا إليها خمسة وتسعين كيلومتراً».

وبعد مشاق السَّفر، وتعثر السَّيارة أحياناً يصل إلى تلك المدينة وفيها المنتزه المقصود: «ترجّلنا ودفعنا الرَّسم المعتاد للدخول. ثم دخلنا فولجنا أولاً إلى قاعة عجيبة صُفّت فيها الكراسي على عدد الطَّاولات، وفهمنا أن هذا مقهى المنتزه، ومن هذا الموضع أشرفنا على البركة البديعة، وتحت هذا المقهى طبقة أخرى تتالت من غرف أُعدّت لتبديل ملابس المستحمّين. وعلى جانب آخر تطلّ على البركة بناية أخرى شبيه بمنظرها الباخرة، يمتد من أعلاها إلى البركة منزلقٌ يسيلُ به الماء أُعِدَّ للذين يحبّون التروّض بالانزلاق عليه إلى ظهر الماء. وإلى جانبيه يقع جبلان أخضران تنصبُّ من أعلى أحدهما المياه، وتنسحب عليهما السّحب حللاً بسنادس الأعشاب، وكأنما انشقّا عن هذا المنظر الزاهر انشقاق الصدفة عن الدُّرّة الفاخرة. وعند مدخل هذا الموضع غُرِسَتْ أشجارٌ من السرو الجميل المنظر، وفوق البركة إلى جهة المقهى يقع ملعبٌ للتنس مشرف على البركة».

وبعد هذا التَّصوير لمناظر ذلك المنتزه على اختلافها يُحدِّثنا عن شعوره في التفرّج على ما ذكر: «وامتلأت الخواطر بهجةً وغبطةً لجمال هذا الموضع؛ الذي تفنَّنَتِ الطبيعةُ في إبداعه، وساعدت الصناعة على إبرازه بهذا المجال

الرائع، كما لم يتمالك أكثرُنا أن يرمي بنفسه إلى البركة في نشوة من الطرب والسُّرور تشوّقاً للهو بالتروّض بالسّباحة».

وهكذا يكون التعبيرُ عن السّرور والفرحة، وكأنهم رجعوا إلى عهد الطفولة، على أنَّ رحلةَ الأديب صالح بن علي الحامدي أكثرها يدورُ حول البحث عن المتعة البريئة وتذوق الجمال الطبيعي في مواطنه وهي في الغالب من ذلك النمط الذي قدّمنا نماذجه فلا حاجة إلى الاستزادة.

لقمان في بلاد الظَّاهر

قليلٌ تلك الرَّحلات التي رحل فيها أصحابها داخل الوطن، وكأن الرّحلة عند أهل اليمن لا تسَمَّى رحلة إلاّ إذا خرج صاحبُها من أرضه، فعندها يصحّ أن يطلق عليه رحالة. وعندما بحثنا عن الرّحلات عند المعاصرين لم نجد من عني بشأن الرّحلة داخل البلاد سوى قلّة يعدّون بالأصابع، وكان الأديب الصُّحفي محمد علي لقمان واحداً منهم، وإن كان سبقه في هذا المضمار المؤرخ محمد بن هاشم المتوفى سنة (١٣٨٠) في كتابه «رحلة إلى الثغرين» «الشحر والمكلا» سنة (١٣٥٠).

لقمان:

هو مؤسِّسُ النَّهضة الأدبية في عدن، وأحد كبار العلماء المصلحين ولد سنة (١٣١٤) هـ، ودرس المحاماة، فكان أول محامٍ في اليمن، وأنشأ أول صحيفة في عدن سنة (١٩٤٠)م، وكان من المشاركين في الحركة السياسية والأدبية، وألف عدة كتب من أهمها كتاب «بماذا تقدّم الغربيون؟» الذي قدّم له الأمير شكيب بقوله: «ولا عجب أن تنسب إلى لقمان الحكمة وفصل الخطاب، فما شئت في إنشائه من أحكام سديدة، ونكات فَريدة، ومعان رفيعة، وعبارات سهلة منيعة، واطلاع وافر، وإحاطة تعدّ من النَّوادر».

وما زال لقمان في نشاطه الأدبي حتى أدركه الحِمام سنة (١٣٨٥) وهو متوجّه لأداء فريضة الحج.

رحلته إلى بلاد الظاهر:

هذا الكتاب على صغر حجمه كثير الفوائد؛ جمع فيه أخبار رحلته إلى تلك البلاد؛ التي كانت نحو سنة (١٩٤٥)م. وكان سبب الرِّحلة كما ذكر في المقدمة أنه لما عاد ابنه علي من مصر أعجبه التقدم العمراني فيها: «واقترح على أن أقضي عطلة الصّيف في الكنانة لأنعم بقرب عبد الرحيم وابراهيم وحامد» وهؤلاء أولاده واخوته، يقول «كان عليّ يصف مصر، وعلي شاعر، والشاعر كثيراً ما يغري عندما يصف». ووعده بالسَّفر إلى مصر، ولكن تصريح الدّخول تأخّر وصوله: «وجاءت عطلة الصيف ورأيت أن الرّحلة إلى القاهرة لم تعد ميسورة، فعزمت على البقاء في عدن إلا أنني التقيتُ في اليوم الثالث من أغسطس بالأستاذ أحمد نور السّوداني، وعرفت أنه يدبّر رحلة إلى بلاد «العواذل»، واتفقنا على أن نترافق» وهكذا كانت الرحلة.

في بلاد الظاهر:

يطلق الأستاذ نعمان على منطقة «العواذل» بلاد الظاهر، وهي البلاد التي تقوم على سفح الجبل «الظاهر»، وتلك التي تقوم عند أسفله «الباطن»، وإن كنا نجد اسم الظَّاهر يُطلق في الكتب اليمنية على البلاد المتاخمة لجبال همدان المرتفعة، وتشمل خمر والوادي ويشيع والعقيلي، وظاهر آخر في المحويث، وثالث في رداع، ورابع في باجل. وما ذاك إلاّ دليل على تقارب الأسماء وتشابهها في البلاد الواحدة.

و«ظاهرنا» هذا الذي زاره الأستاذ محمد علي لقمان هو مجموعة من المدن والقرى المحيطة بالعواذل، وهي بلاد عزيزة من بلاد اليمن، تميّز

أهلها بالفتوة والنّجدة وشيم الأخلاق، وعندما زارها الأستاذ لقمان كانت لا تزالُ في مرحلة مبكرة من النهوض، وهذا ما يعطي رحلة لقمان طابعاً تراثياً تاريخياً.

وكانت البداية في الرّحلة: «سيارة نقل عسكرية تحمل مقداراً كبيراً من الذُّرَة» وسارت بهم السَّيارة، وكان السفر على شاطىء البحر من عدن إلى مصب وادي «وفس» مسافة (١٨) ميلاً، في هواء معتدل الحرارة، يقول: «وكان النوءُ شديداً والهواء يهبّ بقوة وعلى الشاطىء أسراب عظيمة من طيور البحر منها البحري».

وكانت الطّريق قد عُبِّدت من قبل أهل السّيارات، وفرشوا الجانب الرّديء منها بشباكٍ من حديد، وقد لاحظ الرَّحالةُ أثناء مروره أن «الإهمال والجفاف أودى بهذه الحقول الخصيبة، ولم يبق في هذه المنطقة من أثر للنشاط سوى حصن مهدم يعرف بحصن «جعولة».

وفي أثناء مروره تعترضه سيولُ المطر في وادي «بنا»: «وبعد ثلاث ساعات اقترح علي الأستاذ نور أن نجرب السّباحة فاكتشفنا أن السباحة ممكنة، وجاءت سيارة كبيرة معّدة لإنقاذ السيارات التي تقع في حرج».

وأخيراً يصل إلى الضفة الثانية، وجاءت السيارة تخوضُ في الماء مع دليلين من أبناء البلاد وحتى وصلوا إلى موضعهم، ثم واصلوا السير إلى «شقرة».

وفي شقرة يصفُ الطَّبيعة هناك، ويشبهها لطبيعة البلاد في الصومال، إذ للمؤلف رحلة سابقة إلى تلك البلاد، يقول: «تشبهُ هذه الأرض بلاد الصُّومال البريطاني، فشقرة تقعُ على ساحل البحر مثل بربرة، ووراءها منبسط فسيح رملي، تغطيه بعضُ الأعشاب، وتجري فيه الأودية المنحدرة من الجبال القريبة حتى تبدو الأرض في سفح جبل العرقوب».

ثم يصل إلى «الكور» وهي تضم مدن «لودر» و«زارة» يقول: «وإلى

الغرب من «الكور» تقع منطقة الحصن وهي أرض زراعية تعيش فيها الدواجن، وتزرع الذرة والبرّ والشعير وتنمو فيها أشجار التين».

ومن مشاهداته في الكور سوقها: «وفي الكور سوق تُقام يوم الأحد يؤمّها عددٌ من القبائل المجاورة وأهل القرى البعيدة في أرض «العواذل» بمحاصيل أراضيهم: من سمن وحبوب وعسل وسجّاد مصنوع من الشعر أو القطن «جنابل»، وحطب للوقود وأغنام وإبل وحمير لبيعها وشراء ما يحتاجونه من «لودر» من: البزّ والمجاز والسكر والتّنباك والبن».

ثم «لودر»، وكان وصولُه إليها في غرّة رمضان: «فاستقبلنا الشاب النجيب عبد الله صالح غرامة، وأوسع لنا داراً أعدّها للوافدين، وهيَّأ لنا قوتاً، وجاء بالشاي فارتحنا ساعة من الزمن بعد أن أكلنا وشربنا واغتسلنا، وكان الهواء بارداً بالنسبة إلى حرارة عدن وشقرة».

وفي «زارة» يروز السلطانُ محمد بن جعيل، ويصفه بقوله: «سلطان يحبّ قومه، ويهبهم الشيء الكثير مما يقع تحت يده لكرم طبع عليه، وهو متواضع جدًّا.

ويتعرَّف على السّلطان صالح بن حسين جعبل، فيقول: «سألتُ السلطان صالح عن أصل سكان هذه البلاد فقال: إننا عرب من حمير، والملاحظ أن للقوم أنوفاً رفيعة مستقيمة ورؤوساً مستديرة، وقلّ أن تجد فيهم الطويل الفارع ويغلب على أغلبهم القصر لطبيعة بلادهم الجبلية، وفي النساء عفة وشمم ومروءة نادرة».

ومن عاداتهم في استقبال الضيف أنهم «إذا قدم الغريب إلى بيت في «لودر» أو «زارة» استقبله رب البيت وأفرد له مكاناً يقيم فيه، ويأمر النساء بطهي الطعام وتقديم القهوة من البن الممزوج بالزنجبيل الكثير».

ومنطقة «مكيراس» تتميز بتضاريس خاصة لقي صاحبنا منها عنتاً في رحلته هذه، وهناك جبل ثرة «ألقيت نظرة طويلة على جبل ثرة فرأيت طوداً

يقرع السّحب، تتهاطل الأمطار على قممه، ولا ينقطع الرّعد والبرق عنه إلاّ في الثلث الأخير من الليل حتى الساعة الثالثة بعد الظهر».

ويطلُّ هذا الجبل على وادٍ واسعٍ: «قطعنا الوادي الواقع بين «لودر» و«زارة» وهو يمتد أميـال إلى سفح الجبـل، فيها الخضرة، وهي أرض فسيحة زراعية تكثر فيها الطيور والماعز؛ أما الوادي فصخور ملساء وحرارة الشمس فيه شديدة محرقة، وفي هذا الوادي الطويل كثيرٌ من الأشجار تقطع منها الأخشاب للعمارة والألواح للأبواب والنَّوافد، منها أشجار الصُّر (بضم الصاد) العلب، ومن هذه تقـطع المعاصر لعصر السليط، والصّرح وهـو شجر قوي جدّاً والمضافي وعيدانه رفيعة يسبك بها السّقف بدل الألـواح والأثل والضبيان والسّمر، وهذه الأخيرةُ تستعملُ للوقود فقط».

يقول: «وفي الظاهر شجرة كبيرة تعرف بالطولقة وأشجار التين أيضاً تكبر وترتفع، ويعمل عدد من النَّاس في النجارة بيد أن أكثر النجارين من يافع أو اليمن».

وقد قطع الرّحالةُ الجبل سيراً يقول: «الجبل الذي أعيا السّفار في كل زمان ووقف سدّاً منيعاً في وجه الهجرة من الأراضي الواقعة في أسفله إلى الأراضي الواقعة على أعلاه، فكان سبباً لقلّة عدد السكان في المنطقتين رغم خصوبة النجد الكبير ووفرة مياهه في كثيرٍ من الأحيان».

وطريق الجبل «ضيقة مستقيمة متدرّجة يشكو منها كل من مَرَّ فيها».

وإليك هذا الحوار في أثناء الطريق:

«اصعد، اصعد، اصعد ولكن لا نهاية لهذا الصّعود.

أين نحن؟ في ربع الطريق.

أين نحن؟ ما زلنا في ربع الطريق.

أين نحن؟ قد قربنا من الربع الثاني.

مابال هذا الربع يطول ويطول؟

أين الماء؟ الماء مع الخادم، وهذا لم يستطع التّقدم خطوة واحدة فلننتظر إذاً.

ولكن الشّمس ستحرقنا إذا تأخرنا كثيراً والشمس محرقة رغم برودة الهواء، والماء ستجده عند تلك الشجرة». الخ.

ويعود إلى الحديث عن الجبل «ثرة» وهو الذي يقطعه الآن «طول هذا الرأس (١٢٠٠٠) قدم سيراً، وعلوه كما أقدر (٤٠٠٠) قدم إلاَّ أنَّ بعضهم يقول إنه (٧٠٠٠) قدماً، وهو مكسوٌ بالأشجار العلب والضبيان والصَّر والأثل والسّمر، وأكثر صخوره إما مائية أو متغيرة بالعوامل الطبيعية، أرضه صلدة، ولا يبعد أن يوجد الماء في قاعه بغزارة أو تنفجر من جوانبه العيون، وبعض أحجاره ملساء بفعل الضغوط والحرارة».

وأخيراً يصل إلى راس جبل «ثرة»: «وأنا ألهث من شدة التَّعب أحمدُ الله على اجتياز هذه العقبة الكؤود، وأرسلت نظري على ما يشرف عليه المرءُ من هذا العلوّ الشاهق وإذا بي أرى الجبال والوديان الممتدة من الكور إلى خليج عدن».

وبعد قَطْعِهِ الجبل ها هو في بلاد الظَّاهر كما سمى به رحلته: «والظَّاهر نجد طَويل، مؤلف من هضاب، ومنحدرات، وأودية خصيبة خضراء، ومسالك وعرة، وقرى صغيرة، ومزارع غنية، ومراعٍ، ومراتع للغزلان».

وكان يرى على هذا الخصب أن يكفي أهله في حياتهم المعيشية لولا أن سادت فكرة: «إذ يرى الكثيرون أن الفقر في شعب يُعْزى إلى عدم وجود المال بين أيدي أفراده وأن أنجع الوسائل لتوفير الرِّخاء والثراء في أمة مضاعفة قوة الشراء فيها».

وقد مَرَّ على بلاد «العواذل» فترات من الشدة ارتفع فيها سعرُ الطّعام، ووصل «الثّمين البر بريال وربع، أو ما يساوي ثلاث ربيات،

والسّمن بلغ ثمنه الرطل بريال واللبن شح، والذرة انعدمت بسبب القحط، مع العلم أن الأهالي لا يعيشوا على غير هذه الضروريات، وليس لديهم من الكماليات سوى التمباك «التبغ» والقشر الذي يصلهم من يافع، وقليل من الزنجبيل، ولباسهم هو المئزر الأسود للرجل والثوب الأسود للمرأة، ويتدثر الرّجل بفروة جلد ضأن تقيه برودة الهواء».

ثم يواصلُ السَّيرَ من رأس «ثرة» إلى «مكيراس» وفي الطريق يشاهد الحقول، والمنتزهات الخصيبة: «بين كل جبلين حقول تنزل فيها مياه المطر وهي بشكل أرصفة يعلو بعضها بعضاً، فعندما يُروى الحقل الأعلى ينزل المطر إلى الحقل الذي يقع تحته، وهكذا إلى نهاية الوادي السحيق» وهذه ما تعرف الآن بالمدّرجات الجبلية، وقد برع فيها اليمنيون منذ قديم الأعصر ويطول به السير حتى يصلَ إلى موضع يُسمّى (بالاس) وهنالك يضع رَحْلَهُ ريثما يأخذ قسطاً من الرَّاحة: «بعد أن قضينا ساعةً من الزَّمن في (بالاس) نزلنا إلى الوادي الأخضر الزَّاهر، تسقيه الآبار، يزرع البر والشعير والبرسيم والطماطم».

ثم يتجه إلى (عريب) وفيها يقابل السلطان عبد الله بن أحمد بن صالح: «وَأَمَرَ لنا في الحال بقوتٍ من البر والعسل والقهوة وعند المغرب جاؤونا بعشاء».

وما كاد القمرُ يهلّ بضوئه على البسيطة حتى ينسلّ رحالتنا ورفيقه مواصلاً السير إلى (مكيراس): «وهناك اشتدَّ البردُ علينا ولم نجد الجمال ولا المتاع ولا خادم دار الضيافة، فكانت ليلة ليلاء إلا أنَّ أهل (مكيراس) والعواذل بصورة عامة أهل كرم ونجدة، فقد جاءنا محمد مقعس حارس دار الضيافة وأخذنا إلى بيته ونمنا عنده على حصير».

وفي مكيراس يقضي يوم الأحد وبعض يوم الاثنين: «وكان الهواء يهبُّ عليلاً بارداً، وكان النسيم منعشاً، والمطر ينزل غزيراً متواصلاً. وعند

السَّاعة الخامسة مساء تحوّلت قطرات المطر إلى قطع من البَرد كل قطعة كحبّة الفول، وكان هذا المنظر مدهشاً لأنني شاهدته لأول مرَّة في حياتي، فكان سُرُوري برؤية البرد يتساقطُ من السماء لا حدّ له. وبعد لحظة أخذتِ السيولُ تجري كالأنهار ولها خرير وهدير حتى امتلأت الأودية، ورُويت الحقول، واخضرّت الأرض، وتضاحكت الرياض، وعمَّ البِشْرُ، وفرح الناس بهذا الغيث الهطَّال ».

وفي «مكيراس» يشهد سوق «الربوع» وهو يقام في «لورد» وقد لفت نظره حياة الاستقرار في تلك الرّبوع. يقول:

«يعجبُ المرء إذ يجد أكثر المدن والقرى في الظّاهر قائمة فوق التلال والهضاب العالية اتقاءً لغزو الأعداء، وفراراً من مجاري المياه؛ التي إذا طغت جرفت كل ما وقع على طريقها من بيوت وخيام، ويعجبُ أن النّاس لم يتعوّدوا حتى في هذا الزَّمن لبس الأثواب المخيطة، وأكثر النَّاس لا يتّقون البرد سوى بالنيل والزيت بدهنون بمزيج منهما أبدانهم ولا يعرفون من الطّبيخ سوى طبخ العصيدة أو الأرغفة من البرّ والذرة» الخ.

وفي الواقع أن رحلة الأستاذ محمد بن علي لقمان مزيج من التحقيق الصّحفي والوصف التّحليلي؛ الذي لا نعدم فيه لمحاتٍ فنيّةً أدبيةً قيّمة رائعة، ولولا ندرة نسخها لما عَرضنا لها هنا، حيث أن هذا النَّوع من الرحلات يخرج عن شرطنا الذي شرطناه في عرضنا لرحلات اليمنيين في التراث الإسلامي، القديم.

رحلات أخرى

مرّ بنا فيما سبق العديد من الرَّحلات التي وقفنا عندها طويلاً ويبقى أمامنا حشد آخر من الرّحالة لا بد من الوقوف عندهم، ولو إشارة حيث أن الحديث ذو شجون والموضوع لا بد أن يستكمل من شتى أطرافه.

العطاس ورحلاته

فنبتدي أولاً برحلات العلامة الصوفي الكبير أحمد بن حسن بن العطاس أحد أعلام عصره في الدَّعوة إلى الله والإرشاد، ولد سنة ١٢٥٧ وأخذ عن أغلب علماء عصره في حضرموت ومكة، ونشأ كفيفاً وما زال يترقى في سلم المعارف حتى بلغ رتبة الاجتهاد وقصدته الطلبة من جميع الجهات توفي سنة ١٣٣٤ وله ثلاث رحلات جمعها عنه الشيخ العلامة محمد ابن عوض بافضل المتوفى سنة ١٣٦٩ وقد وقفت عليها في مجلد ضخم ثم أتى ابن الرحالة وقام باختصارها وتهذيبها وتم طبعها في مصر سنة ١٣٧٩ ثم أعيد طبعها مرة أخرى سنة ١٤٠٦ في أبي ظبي، وهي تضم الرَّحلات الثلاث المصرية والمكية والدوعنية.

ففي الرحلة المصرية ذكر جامع الرحلة أن الرَّحالة دخل مصر سنة ١٣٠٨ والتقى فيها بشيخ الأزهر العلامة محمد الأنبابي وأولم له وليمة فخمة حضرها جمع من أعيان البلاد وعلمائها ثم سافر إلى الصعيد ومكث به مدة ثم عاد إلى مصر، وبينما هو يسير يوماً في التربة لزيارة بعض الأموات قال

تراءت لي ناحية بالكسر «من حضرموت» وقال: إني أجد ريح حضرموت في هذا المحل فسكت الحاضرون وتعجبوا فأعاد كلامه، فقال له أحد صلحاء المغاربة: نعم يا سيدي هنا بحذائنا قبور بعض أهالي حضرموت فقال رحمه الله إنه قد ولي القضاء بمصر جماعة كثيرون، وكانت منازلهم الكسر، من حضرموت. ثم سافر من مصر، بعد أن أقام بها نحو عشرين يوماً في باخرة إلى المدينة المنورة فرست به في ثغر ينبع فنزل به هو ورفقاؤه ثم توجّهوا إلى المدينة المنورة.

والرحلة المكية كانت سنة ١٣٢٥ وقد مرَّ في طريقه على مدن وقرى حضرموت حتى وصل المكلاً ومنه استقلوا مركباً إلى عدن في يوم ٧ ذي القعدة سنة ١٣٢٥ وسار به المركب ومن معه «يوم الجمعة الساعة السادسة ونصفاً نهاراً والبحر في غاية الهدوء والسكون» ثم وقف به المركب في مرسى عدن بعد المغرب يوم السبت في ثمان من ذي القعدة «وبعد ساعة استقبله جملة من تجار عدن وأعيانها وطلعوا إلى سيدي صاحب الرحلة برخصة أخذوها من حاكم البلد وبات من سواهم في المركب ولما أصبحوا أخرجوهم إلى جزيرة الكرنتينة «الحجر الصحي» وأقاموا يوماً ثم خرجوا ومكث في عدن أياماً حتى جاء المركب الذّاهب إلى الحجاز، وفي الطريق يمرون على مصوّع ويطلب منه النزول حيث يستقبله أهلها بالترحيب والإكرام يقول كاتب الرحلة «وخرجنا من مصوّع يوم الأربعاء ٢٠ ذي القعدة مسافرين إلى جدّة في مركب عثماني وفيه من أهل الحديدة وجهات اليمن نحو ستمئة نفر» ومن الحوادث في هذا المركب أن «بعض تجار المركب أصيب بصرع أو نحوه فأقبلوا على صاحب الرِّحلة ليقرأ عليه» وفي يوم الجمعة ٢٣ ذي القعدة «لما قارب المركب مرسى جدّة حاد عن المجرى واصطدم بصخر في البحر ومال إلى جانب فخاف أهله خوفاً شديداً، ثم ارتفع ومشى فجاؤا إلى سيدي صاحب الرحلة وهنوه بالسلامة فعد ذلك كرامة له».

وفي مرسى جدّة تأتي مشكلة الحجر الصحي يقـول جامـع الرحلة «أقبل مندوب الحجر الصحِّي فأُخبر به سيدي فقال اللهم إنا ندرأ بك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم ونستكفيك إياهم فطلع ولمح النَّاس بعينه وخرج وأذن لهم في الخروج إلى البلد، وحينئذٍ نزل سيدي وأصحابه في سنبوق فدخلنا جدة أول وقت الظهر يوم الجمعة» ثم يتوجه إلى مكة لأداء شعائر الحج، وبعد الفراغ كانت نيّته التوجه إلى المدينة لزيارة الرسول ﷺ يقول جامع الرِّحلة تأهب للمسير باستئجار الرَّواحل ونحوها فتواتر الخبر بأن الدرب غير آمن وأنه لا يمكن أحد من دخول المدينة إلاّ بعد الحجر الصحّي، مع شدة البرد والأمطار وغيرها من الأعذار والأخطار في تجشمها منازعة للأقدار فقال سيدي نوينا أن نعود للزيارة ورجع عن عزمه».

وتأخر العزم، ولم يعد أمامه إلاّ العودة إلى الوطن ويخرج من مكة إلى جدة يقول «خرجنا من مكة متوجِّهين إلى جدة وانصرفنا وللقلوب التفات، ووصلنا قهوة سالم على ساعتين» وفي الطريق أخذ المطر في الهطول «واستمر إلى عشية وفي تلك العشية سالت الأودية وشعابها، ولما وصلنا إلى بحرة بتنا فيها ومنها توجّهنا آخر الليل وكان الدّخول إلى جدّة صبح يوم الأحد وأقمنا بها إلى يوم الخميس».

والرحلة الثالثة للعلامة أحمد بن حسن العطاس تسمى «الموارد الهنية في الرحلة الدّوعنية» جمعها عنـه العلامـة المؤرخ الكبير علوي بن طـاهر الحداد المتوفى سنـة ١٣٨٢ هـ وهي مطبـوعة ضمن المجمـوعة السـابقة. وكانت في سنة ١٣٢٦ للإصلاح بين القبائل المتنازعـين، وقد تـوجّه من بلدته بضة في يوم ٦ جمادى الأولى صباحاً ووصل «المشهد» بعد ارتفاع الضحى وفيها خرجوا إلى بئر عطية للاغتسال «فرأينا على أحجارها كتابة بالقلم المسند الحميري فقال صاحب الرِّحلة إن لديه رقم القلم المسند على صور كثيرة في جزء من تاريخ أبي الحسن الهمداني الذي جمع فأوعى من ذكر محافد اليمن ومساندها ومآثرها» ويمر في هذه الرحلة على المدن والقرى

التي مر بها الرحالة محمد بن هادي السّقاف وقد ذكرنا منها «الهجرين» و«قيدون» و«بضة» وغيرها وتستمر هذه الرحلة في ذكر المراحل وكلام صاحب الرحلة في تهذيب النّفوس والأخلاق الدينية حتى تنتهي، وهي من نفائس الرّحلات لأنها بقلم مؤرخ قدير لولا ما شابها من الاختصار والله أعلم.

رحلة الأشواق القوية

هذه الرحلة للشيخ الصوفي عبدالله بن محمد بن سالم بن احمد بن علي باكثير أحد العلماء الأفاضل مولده سنة ١٢٧٦ ووفاته سنة ١٣٤٣ وقد طبعت مع تعاليق تاريخية للأديب المؤرخ عبدالله بن حامد السقاف سنة ١٣٦٠، وفيها يقول مؤلفها في البداية منها «لما كان التاريخ ٢١ شوال سنة ١٣١٤هـ سافرت من زنجبار. ووصلنا الشحر نهار ١٧ ذي القعدة وزرنا مآثرها صبح يوم الخميس» ثم يستفيض في ذكر زياراته للعلماء والمآثر.

رحلة الكاف إلى الحجاز ومصر

مؤلف الرحلة هو العلامة البحاثة حسن بن عبدالله بن عبد الرحمن الكاف ولد بمدينة تريم سنة ١٢٩٧ وتوفي والده وهو في سن الصِّبا فعني به أخواه حسين وعبد الرحمن وجد في طلب العلم وبرّز فيه، وولع بمطالعة الكتب وجمعها حتى شاد مكتبة كبيرة افتتحها سنة ١٣٣١ لمن يرغب في المطالعة توفي سنة ١٣٤٦.

ورحلته المذكورة جمعها عنه الفقيه العلامة محمد بن عوض بافضل السابق ذكره في رحلات السيد أحمد بن حسن العطاس وهي تقع في مجلد متوسط في نحو ٦٢ ورقة وقد أسماها «الطرفة الشّهية المستفادة من الرِّحلة إلى الدِّيار المصرية والحجازية» وهي تتفق في موضوعاتها مع رحلة العلامة شيخ بن محمد الحبشي، ومن الرحلة مخطوطة مصورة بجامعة الدول العربية.

رحلة العلامة عبد الرحمن بن عبيد الله إلى دوعن

هو العلامة والشاعر والرحالة الكبير عبد الرحمن عبيدالله بن محسن السقاف برع في علوم الأدب والفقه والتاريخ ودخل إلى عدة بلدان منها الهند وجاوة وقصد صنعاء عدة مرَّات ورحلته إلى دوعن عبارة قصيدة وصف فيها رحلته إلى دوعن (من بلاد حضرموت) سنة ١٣٦٠ هـ، وهي مطبوعة في كراسة منها قوله في ذكر بلدة من دوعن تسمى «عورة».

وسرت لداعى عورة في وعـورة ... وجئت كأني جئت من ساحة الوغا

وأخرى تعرف بضرى:

وبتنا بضرى عند حرّ مهذب ... يتاجر لكن قيل لي ما تورّعا

ويذكر احتفال أحصل (الغيوار) من تلك البلاد ـ بقدومه:

وعجنا إلى الغيوار صبحاً فاطنقوا ... كذا وكذا عند التَّحية مدفعا

وزرنا البعيد الصيت حامي الحمى الذي ... به صار من عدنية الليث امنعا

وكان زعيم المشهد الشهم غائبا ... مضى هو والسلطان في رحلة معا

وكان مكيناً عنده حيث انه ... بأخلاقه لم يبق للظرف موضعا

سوى لحية فيها يسير زيادة ... أريد على تقصيرها فتمنّعا

وفيه جيده بالليل ابصرت سبحة ... من الرقش خفنا ان تدّب وتلسعا

وفي هذه النماذج يتبين اسلوب المؤلف المرح وعلى هذه القصيدة شرح كبير مخطوط بمنزل أولاد المؤلف، وللأديب الشاعر عبد الرحمن بن عبيدالله معجم كبير في بلدان حضرموت وقفت عليه وهو لا يزال مخطوطا. وقد أفاد فيه ذكر رحلة للسّلطان عمر بن صالح بن احمد بن الشيخ على هرهرة، قال في أولها: كان نهوضنا إلى حضرموت في شهر دي القعد سنة ١١١٧ الخ.

توفي العلامة عبد الرحمن بن عبيدالله السقاف سنة ١٣٧٥هـ.

رحلة النّفحة الشذية

هذه الرحلة ألفها العلامة الصوفي الزَّاهد الداعية عمر بن أحمد بن أبي بكر بن سميط، أحد العلماء الدّعاة المبرزين في عصره، كان أكثر مكوثه في بلدة من أفريقية تسمى زنجبار وقد بدأ رحلته منها إلى بلدة حضرموت في يوم ٢٤ من ربيع الثاني سنة ١٣٣٩ هـ وكان وصوله عن طريق البحر حيث تعدّدت المراسي التي وقف بها ووصل المكلا في ليلة الاثنين ٥ جمادى الأولى سنة ١٣٣٩ هـ وهنا يلتقي بأفاضل حضرموت وعلمائها وصلحائها ويطنب في وصف من لقيه بها، وقد دفعه الشوق إليهم إلى القيام بهذه الرحلة وهي مطبوعة في عدن سنة ١٩٥٨ ميلادية وتقع في ٢٨١ صفحة وعنوانها «النفخة الشذية من الديار الحضرمية».

توفي صاحب الرحلة رحمه الله سنة ١٣٩٧ هـ.

رحلة إلى الثغرين

هي رحلة داخلية قام بها في أرجاء حضرموت العلامة المؤرخ محمد ابن هاشم بن عبد الرحمن العلوي ولد سنة ١٣٠٠ بحضرموت وتلقى علومه عن جماعة من شيوخ مدينة تريم حتى برع في عدّة علوم وفي سنة ١٣٢٥ رحل إلى جاوة وساهم في تحرير صحفها وتزعّم البعثة المرسلة إلى مصر سنة ١٣٤٤ ثم عاد إلى مسقط رأسه وأحيى بها الندوات والجمعيات توفي سنة ١٣٨٠. وكتابه «رحلة إلى الثغرين» جعله في وصف رحلته إلى الشحر والمكلا وكانت بمناسبة تعبيد الطريق للسيارات والصلح بين القبائل المتنازعة، وقد طبع بمصر سنة ١٣٥٠هـ.

رحلات المؤرخ زبارة

كان المؤرخ محمد بن يحيى زبارة المولود سنة ١٣٠١ والمتوفى سنة ١٣٨٠ من أنشط اليمنيين الذين عرفوا الرحلات في مطلع القرن العشرين وقد ذكر أخبار رحلاته في كتابه «مباحث دينية وأدبية» وقد رحل من صنعاء إلى مكة برًّا سنة ١٣٤٧ بقصد الصلح بين الإمام يحيى والملك عبد العزيز آل سعود، ونظم رحلته هذه في كتابه المذكور، وعزم في آخر السنة المذكورة إلى مصر لطبع الكتب اليمنية والأخذ عن شيوخها، وقد مكث بها سنتين وفي سنة ١٣٥٠ عزم إلى المؤتمر الإسلامي بالقدس وعاد إلى صنعاء ومعه الزّعيم الإسلامي شوكت علي الهندي، وفي سنة ١٣٥٥ رحل إلى الهند والعراق وإيران والشام ومصر والحجاز، يقول «في أول سنة ١٣٥٥ عزمت من صنعاء إلى عدن فإلى بمبي في الهند واستقبلني فيه الزعيم شوكت علي ثم سرت إلى البصرة وبغداد ونزلت بدار العلوم الدينية، ثم استدعتني الحكومة الإيرانية بواسطة وزيرها في بغداد فسرت إلى طهران وغيرها من أمهات المدن الإيرانية، ومنها خراسان وأصفهان وغيرها وزرت مليكها رضا شاه بهلوي وولي عهده الأمير شابور وغيرهما وقابلوني بغاية الرِّعاية والاحترام واتَّصلت بأكابر أعلامها وأهدوني من مؤلفات العلماء في العلوم الإسلامية كما كان تقديمي الكتب القيّمة اليمنية إلى مكتبة بغداد العامة وغيرها ورفعت إلى ملك إيران من صنعاء قصيدة أولها:

لِـتَزْه بـأنـوارِ السَّعـادة طـهـران وتعـتزُّ فـوق المشـرِقَين خـراسـان

الرحلة التهامية

هذه الرحلة أرجوزة شعرية طويلة كتبها العلامة عبدالله بن حسين الأهدل، وهو من علماء القرن الرابع عشر إلاّ أنّنا لم نجد من ترجم له ولا شك أنه كان صاحب اطّلاع وإلمام بعلوم الأدب وقد كتب رحلته هذه

بالشّعر مصوراً فيها ما جرى له في السّفر من الحديدة إلى صنعاء على أثر استدعاء الدولة له وجماعة من أعيان تهامة.

وقد طبعت هذه الرِّحلة في صنعاء نحو سنة ١٣٦٠ هـ ونظراً لندرة هذه الرِّحلة ـ إذ لا أعلم بوجود نسخة منها سوى واحدة عند العلامة الجليل أحمد بن علي زبارة وأظن أنه لم يطبع منها سوى بضعة نسخ لا غير ـ وطرافتها فإننا سنقف عندها قليلاً:

وقد ذكر فيها أمر السفر والاجتماع في الحديدة لهذا الغرض يقول:

فاجتمعوا في بندر الحديدة ... بحالة تجمعهم سديدة
من حيس مع زبيد والمدينة ... كذا من العبسية الرَّصينة
وفيهم مثل مشائخ البرع ... قد خرجوا من غير حزن وجزع
والواعظات وصليل قد خرج ... هادي والقوزي بينهم درج

ثم تجهز الموكب للخروج من الحديدة إلى صنعاء وها هي المواتر «السيارات» تشمّر لهذه المهمة.

وخرجت من بندر الحديدة ... مواتر كثيرة عديدة

ويصلون بالسفر مراحل متعدّدة منها باجل والبحيح وهناك يبيتون:

ساروا بنا ودخلوا في باجل ... فوصلوه في اجتماع حافل
من أهل مكتب وكل عسكر ... وكل هيئة ترى في المأثر
ولم نزل نسير في حال السفر ... حتى انتهينا في «البحيح» واستقر
بتنا وكانت ليلة غرّاء ... وأسبل اللَّيل له غطاء

وفي الصّباح يواصل الجميع سيرهم

إلى صباح الصّبح بعد الأكل ... وركبوا في سفر للكل
وبعد ذاك قد خرجنا للسّفر ... وأزمع الركب بنا تلك الحجر

وتقبل عليهم عبال بعنبها وقاتها فيقبل الجميع ويتناولون من طيّباتها:

وجاوزوا عبال ثم وقفوا ... هيئتهم لأجل حال يصرفوا
وأخذوا من تلكم الأعناب ... والقات شيئاً ناف عن حساب
نعم وأعطى كل شخص ما كفى ... مع زيادة على ما سلفا

وبعد ذلك يعزمون على متابعة السير فيمرون على «غيلمة» و«جعيرة» ثم «صيحان» وغيرها يقول:

ثم توجّهنا لنحو غيلمة ... وقد قطعنا كل حال مؤلمة
إلى جعيرة نسير في النّعم ... لم لا ونحن مع سادات الأمم
ثم إلى صبحان وادي السلفية ... ثم إلى ظهر تلك الأبنية

وفي أكمة الأعزاب تثور النار في بعض السيارات «المواتر» ويصاب بعضهم بحروق يقول:

ثم إلى لكمة الأعزاب ... وثار بعض النّار في الأصحاب
في «موتر» شبّت عليه النّار ... من وسطه فيها لنا اعتبار
وذاك حال السَّير للمواتر ... في حالة العزم إلى التبادر
وكلهم قد فاز بالسلامة ... من غير تحريق ولا ندامة
سوى أخ انكسرت إحدى يديه ... لخوفه من حادث جرى عليه

وأخيراً يدخلون صنعاء، بعد عناء شديد من مشقة الطريق والسَّيارات، ولكن قبل الدُّخول إلى المدينة يعثر بهم الموتر «السيارة» الذين هم فيه على أثر عطل أصابه وهكذا:

بعد شروق يومنا الإثنين ... من غير ما حدس ولا تخمين
وكان في موترنا تأخّر ... في وادي المهدي ثم قرّروا
تصليحه ثم ركبنا فيه ... جميعنا من غير ما تمويه
وقد تأخرنا وكان من حضر ... من بعدنا ينتظرونا في السفر

وما زال يسير بهم هذا الموتر هنيهة حتى يصل بهم موضعاً يعرف بقرض وهناك ينحط بهم وينكسر تماماً:

نعم وصلّينا صلاة الظهر والقصر والجمع لوقت العصر
ولم نزل نسير سيراً معترض حتى أتينا جبلاً يدعى قرض
فانكسر الموتر كسراً بيّنا بحالة يحتاج فيها الإعتنا

ويتركون هذه السّيارة التّعيسة إلى أخرى فتمشي بهم قليلاً، وكأنها كأختها فإنها لم تصل إلاّ إلى حمام علي، وبالكاد وصلت.

ثم ركبنا غير هذا المركب في «موتر» موقّع مقرب
مع جملة الأصحاب أهل السيرة أهل النهى والحالة الخطيرة
ثم توجّهنا لحمام علي في وقت مغرب بلا تزلزل

وقد جاءهم أهل الضّيافة وسألوهم عن سبب تأخرهم ومعهم سيارة أخرى:

ما سبب التأخير للسّادات عن وقت وصلهم على العادات
ورجعوا في معبر وجاؤا بموتر وقد دنا المساء

وعلى السيارة أن تقطع بهم الجبال وما كادت تجتازها وتصل إلى معبر إلاّ والقوم في حالة من الإعياء الشديد وقد ساروا ثلثى الليل:

ورحّلونا في جبال المصنعة لأنها تعيبة في المهيعة
ثم دخلنا في محل معبر من بعد ثلث الليل في وقت حري

ويقضون ليلتهم هناك بعد أن قدم لهم العشا:

وقد مكثنا عندهم هنيهة وقرّبوا العشا للبرية
من بعد ذاك وجّهوا أفراداً لكل شخص مننا فرادى
بتنا بليلة بها السّعد حضر بكل خير وبها النحس نفر

وفي الصباح يعزمون، وها هي أعلام صنعاء تلوح للرّاكبين ولكن هيهات إذ أمامهم عقبة يسلح الذي تفشل في اختراقه سيارتهم وتضع حملها لهوله:

ثم خـرجنا قـاصدين العـاصمة وقـد وصـلنـا في جبـال قـاحمـة
ليسـلح وفيـه «مـوتـر» بـقي راكبـه الشهم هـو الـبر التـقي
ورسـب «المـوتـر» حـقّـنـا بـه وأخـرجـونـا أهله من نـصبـه

ولم يبقَ أمامهم بعد هذا العناء من محنة السّيارات وما سبّبته لهم من تعب إلاّ أن يعتمدوا على أنفسهم ويقطعوا الطريق مشياً على أرجلهم حتى أتى إليهم الأهالي «أهل صنعاء» تقدمهم السَّيارات:

مـا راعنـا إلا الأهـالي قـد بـدت لهـا مـواتـر بـعـزم قـيـدت

ثم يدخل صنعاء ويحتفل به النَّاس هنالك، وهي طويلة فانظرها.

في جنوب الجزيرة العربية

في سنة ١٩٤٧ م قام الأستاذ صلاح البكري برحلة إلى الجنوب بدأها من مصر وزار عدن ثم اتجه إلى المكلا من حضرموت وزار سائر بلدانها وهي كبيرة وفيها الكثير من المزج التاريخي لبعض الحوادث، وقد طبع كتابه هذا في مصر سنة ١٣٦٨ هـ ويقع في ٢٩٢ صفحة قلت وله رحلة أخرى إلى بلاد يافع بعنوان في شرق اليمن بدأ في أول شوال سنة ١٣٧٣ ووصف فيها يافع وبعضا من تاريخها وهي مطبوعة سنة ١٣٧٤ وتقع في ١٦٣ صفحة

قرة العين في الرحلة إلى الحرمين الشريفين

هي رحلة كبيرة قام بها العلامة عبدالله بن علي بن الشيخ أبي بكر

من أهل حضرموت إلى الحج سنة ١٣٨٢ وفيها الكثير من الاستطرادات والمباحث الدينية المتعلقة بالحج وأحكامه الفقهية قال في أولها:

«قد رجاني بعض الأخوة الأعزاء أن أوافيهم عند العود إليهم من الحرمين بمعلومات شافية عن حقائق الأمور هناك وعما يلزم لمريد الحجّ عمله وإعداده ليكون ذلك دليلاً لهم يتبعونه في رحلتهم القادمة إلى الأراضي المقدسة.. وقد قرّرت أول الأمر أن أحصر عملي في كتابة ما يهمهم معرفته عن الحرمين الشّريفين وعن الآثار الإسلامية وفعلاً بدأت في تدوين عناصر هذه المواضيع ولكن رأيت فيما بعد أن أتناول إلى جانب ما تقدم أعمال الحج ثم عن لي بعد ذلك أن أسجل انطباعاتي في هذه الرحلة وأكتب كل ما يحسن إثباته فيها مما وقعت لي حوادثه أو رأيتها بعيني أو سمعتها بأذني تكميلاً للفائدة».

طبع الكتاب على نفقة المؤلف بمصر سنة ١٣٩٠ ويقع في ٣١٥ صفحة.

فهرس الموضوعات